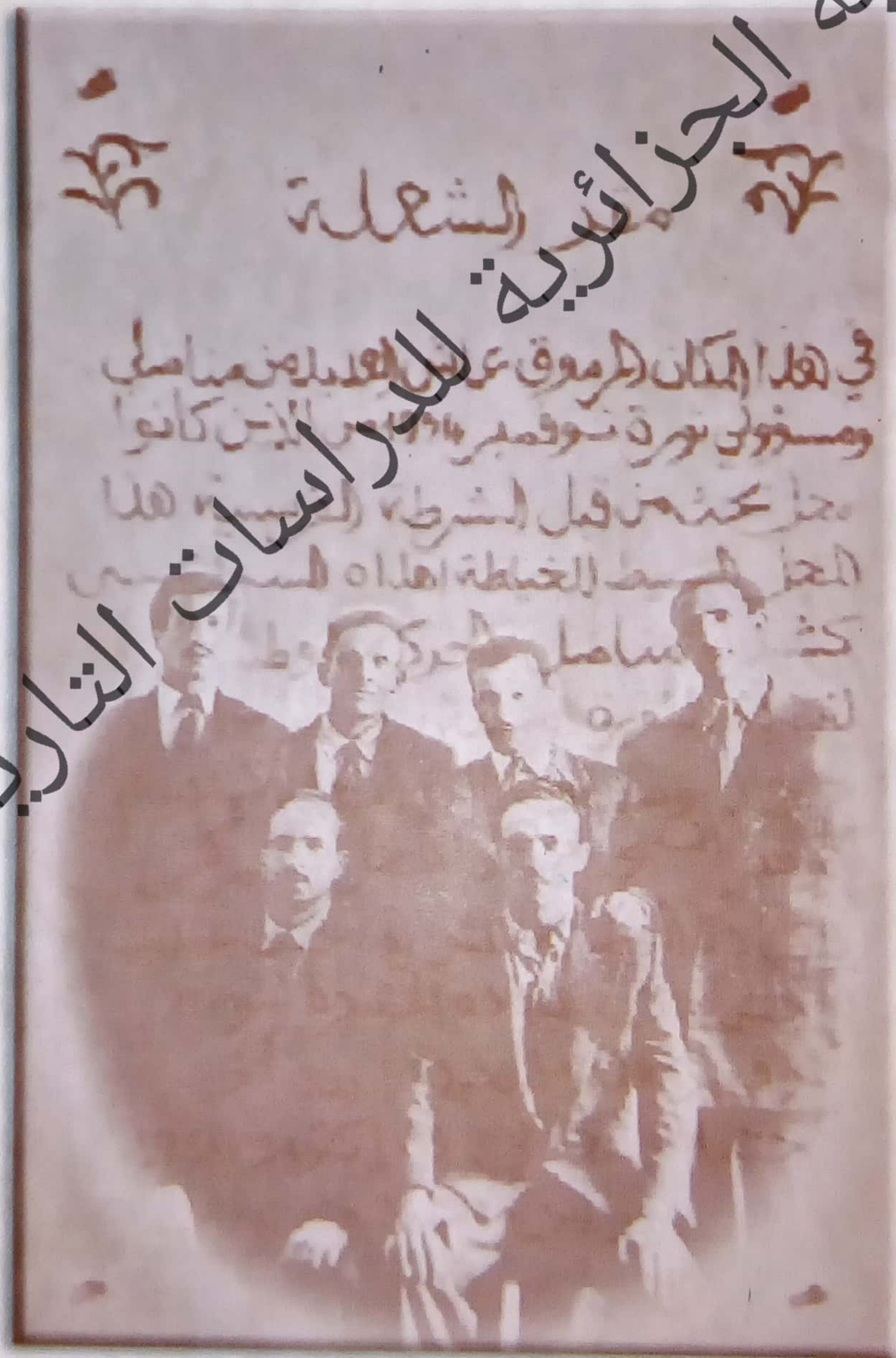
عيسى كشيدة

مهندسو الثورة

تقديم عبد الحميد مهري



منشورات الشهاب

عيسى كشيدة

مهندسو الثّورة

شـــهادة

تقديم : عبد الحميد مهري

ترجمة من الفرنسية : موسى أشرشور

منشورات الشهاب

تصفيف و تصميم الغلاف : منشورات الشهاب

ردمك : 9961-63-506-X

الإيداع القانوني : الثلاثي الرابع، 2003، رقم 2043/2003

تشكــرات

تحياتي وتشكراتي أهديها لزوجتي التي تحملت الأعباء والمحن التي عشتها وقاسمتني إياها من غير أن تشكو لي يوماً . . وكانت دوماً تتحلى بفطنتها وتحتفظ ببرودة دمها رغم تعرضها لمضايقات الشرطة الفرنسية . . وحافظت على كثير من الأسرار . . لكنها للأسف لم تقـو على الحفاظ على صحتها . . لطالما قاست وعانت من الاضطهادات . . .

لهـا أهـدي هذا الكتاب

وأخص بشكري الأستاذ دحو جربال الذي شجعني وأسدى لي نصائحه كما أخصّ بالشّكر الأستاذ رشيد طوبيشي الذي عمل بصبر وتفان لإخراج هذه القصة ووفّق في تدوين أفكاري وذكرياتي وشهادتي بكل أمانة ونزاهة .

المـؤلف

تقديم

لا تزال مراحل كاملة من تاريخ الثورة الجزائرية مغمورة وباقية في الظل . وذلك راجع إلى عدة عوامل . العامل الأول يكمن بالطبع في ضرورة السرية الصارمة التي فرضتها ظروف الكفاح ضد النظام الاستعماري على الحركة الوطنية الثورية . وهناك عوامل أخرى أتت ، قبل وبعد الاستقلال ، لتضاف إلى الأسباب الأولى .

إن تداخل هذه العوامل فيما بينها قد حدد لدى جيل حركة التحرير الوطني نظرة ضيقة للتاريخ ، وهي خليط من الحذر و التباعد . ولقد سادت هذه النظرة ـ ولا زالت مسيطرة إلى الآن ـ لدى الكثير من أبطال تلك المرحلة .

و لم يغير تبوؤ بلادنا للاستقلال ، في الظروف الصعبة والمعقدة التي نعرفها ، هذه النظرة للتاريخ . بل وأخطر من ذلك ، على مقتضيات الحرب التحريرية ، زاد التلاعب السياسي عن طريق المبالغة والتهميش المعمم أو عن طريق الطمس الكلي .

أكيد أن النقص في المعلومات وندرة الشهادات والتوثيق في هذا المجال من العوامل التي ساعدت على انتشار هذه الممارسات . إن كل المهتمين بهذه الفترة من التاريخ يحسون بالنقص في المعلومات . وهذا النقص تتفاوت حدته من فترة إلى أخرى . فالمرحلة الممتدة من تاريخ انكشاف المنظمة الخاصة إلى غاية اندلاع ثورة الفاتح نوفمبر ، لأحسن صورة في هذا الصدد .

تعد هذه المرحلة هامة جداً لمعرفة مسار تحول الحركة الوطنية الثورية المتوجة بإعلان الكفاح المسلح في الفاتح نوفمبر . وتعد كذلك إحدى المراحل الأكثر نشاطاً و حركة بالنسبة لبعض مسئولي المنظمة الخاصة . نشاط قد يبدو تجنيحياً

بالنظر إلى نظام الحزب ، لكن التاريخ بيّن أنه لم يكن قط في نية أصحابه إدراج عملهم على هذا النهج .

الظروف الخاصة جداً التي سادت في تلك الفترة تبرر حرص هؤلاء على التحصن بثلاث دوائر من السرية : إزاء الإدارة الفرنسية في المقام الأول ، ثم إزاء قيادة الحزب ، و حتى إزاء العديد من مناضلي المنظمة الخاصة الذين لم يتم إشراكهم في المشروع إلا لاحقا .

كشف الأخ محمد بوضياف عام 1971 النقاب عن بعض فصول هذه المرحلة في كتاباته المنشورة في الخارج على أعمدة الصحيفة المعارضة «الجريدة» و المتعلقة بالتحضيرات لأول نوفمبر . تعد هذه الشهادة إسهاماً هاماً في كتابة تاريخ تلك الفترة وتشكل مرجعاً أساسياً لبحوث أخرى .

لم أكن على دراية بمقال محمد بوضياف ، ولكني كتبت أنا بنفسي شهادة عام 1975 لحساب مجلة «الأصالة» في عددها الخاص بمناسبة ذكرى أول نوفمبر حول هذه المرحلة . وقد قال لي الفقيد مولود قاسم مدير المجلة ، أن هذه المساهمة أثارت ، رغم الإيحاءات المتعمدة ، ردود أفعال شديدة داخل بعض دوائر الحكم وأنها وصفت على أنها «محاولة لبعث الموتى» ! .

فقد عقد مؤخراً ، تحت إشراف مؤسسة محمد بوضياف يومي 11 و12 ماي 2001 ملتقى تمحورت أشغاله حول هذه المرحلة . كان الموضوع بعنوان : «مساعي التنسيق بين جيوش التحرير في المغرب العربي» وحضره لأول مرة ، حسب علمي ، مناضلون وشهود ومؤرخون من البلدان المغاربية الثلاثة . ولقد سجلت أشغاله شهادات هامة سيساهم نشرها مساهمة فعالة في كتابة تاريخ حركات التحرير الوطنية المغاربية .

إن الشهادة التي ينشرها اليوم الأخ عيسى كشيدة متمحورة حول هذه المرحلة بالذات من تاريخ الحركة الوطنية وتعطي امتداداً أوسع لكل هذه المساهمات . ويعتبر الأخ عيسى كشيدة من رجال الرعيل الأول ، و قد كان شاهداً على هذه المرحلة الحافلة بالأحداث المضطربة و المأساوية . تحتوي شهادته على عناصر هامة تتكون منها شبكة معقدة ، يصعب إعادة تركيبها من خلال الذاكرة

المجردة . وفي هذه العمل الشاق ، طبق المؤلف منهجية صارمة و دقيقة و نزيهة ، متسمة بالحرص الكبير على التفاصيل . وتحيي شهادته ، لمن عرفه ، الجو الذي كان سائداً في تلك الفترة والمناخ الذي كان يطبع تلك الدائرة الضيقة التي كان يشكلها من كانوا يحضرون لاندلاع ثورة أول نوفمبر . وربما كان بإمكان هذه الشهادة أن تكون أسهل للقراءة وللاستغلال من قبل الباحثين لو استعين بنبذة كرونولوجية (زمنية) . ولا تلغي هذه الملاحظة شيئا من جهد عيسى كشيدة و لا من أهمية شهادته التي تمثل أداة ثمينة في يد الباحثين و المؤرخين .

وعندما طلب مني الأخ عيسى أن أقدّم لهذه الشهادة ، شعرت بقيمة الصداقة والوفاء الذين نشآ أثناء الكفاح . لكن وبقبولي الطلب ، وجدت نفسي في مواجهة التساؤلات التي اعتاد أن يطرحها رجال ونساء جيلي كلما أقدموا على تناول موضوع التاريخ . التساؤل الأول الذي يتبادر إلى الذهن هو : ماذا بوسع الشهادات أو فصول من تجربة شخصية أن تمثله أمام التدفق الجارف للتاريخ؟ وما هي الفائدة التي من المفروض أن تقدمها هذه المساهمة للحاضر و لاسيما للمستقبل ؟ و كيف يتسنى التقديم لشهادة دون تشويه نقاوتها و فرادتها؟ فاخترت أن أحاول استقراء السياق العام الذي تندرج فيه الوقائع و الأحداث التي تعرض لها المؤلف . و قد يتيح هذا الطرح ، في بعض الحالات ، جملة من القراءات .

كانت الفترة الممتدة ما بين 1952 و 1954 تسيطر عليها جهود مجموعة مصغرة من مسؤولين سابقين في المنظمة الخاصة ، المنصبة في حركة الاستعداد للانتقال إلى العمل المسلح دون انتظار موافقة القيادة السياسية للحزب . لم يكن مشروع إعلان الحرب التحريرية نتاج خلاف بين مصالي و اللجنة المركزية ، كما جاء به العديد من النصوص التاريخية . والحقيقة ، أن هذا المشروع بدأ يتبلور في الأفق منذ 1952 .

إذ فوجئت المجموعة بالانشقاق الذي وقع في الحزب فعملت كل ما في وسعها للتكيف مع الوضع والمثابرة في التحضيرات لتجسيد مشروعها .

وشاءت الظروف أن هؤلاء المسؤولين ، الذين أعرفهم جيداً ، طالما أشركوني في مشروعهم إلى درجة أنهم أعدوني واحدا منهم بالرغم من تحفظاتي . فنقطة الانطلاق كانت صدفة . قيادة الحزب التي استدعتني في مطلع 1952 لمهمة في المقر المركزي ، أسكنتني في شقة تقع في 13 شارع عرباجي عبد الرحمان (شارع مارنغو سابقا) ، وهي الشقة التي يأتي بوضياف للعمل فيها كل يوم وفيها ، كانت لقاءاتي مع بوضياف يومية واستمرت إلى غاية رحيله إلى فرنسا . كنا نلتقي أحيانا حتى في أيام نهاية الأسبوع في مقر جريدة «المنار» الكائن بـ 16 شارع دبيح شريف (شارع روفيغو سابقا) . هذه اللقاءات والعلاقات الحميمية التي نسجت بيننا تتيح لي اليوم الفرصة للحديث عن وقائع عشتها .

في مطلع عام 1952 ، أفضت عدة أيام خصصت لمناقشة الوضع الداخلي للحزب و الوضع العام في الجزائر و المغرب العربي إلى مشروع تأسيس لجنة مصغرة مشكلة من محمد بوضياف و ديدوش مراد ومصطفى بن بولعيد و العربي بن مهيدي . هذا الأخير ، وبسبب إجراءات الحيطة التي اتخذها ، لم يحضر لاجتماعات اللجنة . وكان محمد بوضياف الوحيد الذي حاول الاتصال به .

ومع توالي الاجتماعات ، اتخذت اللجنة جملة من القرارات وسطرت محاور للعمل السياسي . وتتمثل المحاور الأساسية فيما يلي :

1 . إعادة تشكيل المنظمة الخاصة دون انتظار أمر من قيادة الحزب ، التي ربما تجاوزتها الأحداث . وتنفيذاً لهذا القرار ، تم الاتصال بعدد من قدامى مناضلي المنظمة ، كما تم تنظيم وإنشاء مجموعات في الشرق والغرب ووسط البلاد . وتم إعادة تفعيل المنظمة في الأوراس ، وإن كانت لم تحل فيه في يوم من الأيام . وجرت عدة محاولات للدخول في اتصال مع مناضلي القبائل (ولاسيما كريم و أوعمران) لكنها باءت بالفشل . في حين رفضت بعض العناصر في مناطق أخرى الانضمام إلى المشروع . وآخرون ، سيما ممن اقترحهم ديدوش مراد ، لم يحتفظ بأسمائهم في تلك الآونة للاتصال بهم بعد انفجار الخلاف بين مصالي واللجنة المركزية . وقد حضر البعض منهم اجتماع الاثنين والعشرين .

وكان الدكتور لمين دباغين المسؤول السياسي الوحيد الذي تم الاتصال به منذ البداية . لكن الاتصالات معه لم تفض إلى نتيجة تذكر .

2 . تحضير عناصر اللوجستيك للعمل المسلح . وتم تكليف بن بولعيد بالسفر سراً إلى ليبيا لإعادة تشكيل شبكات قديمة للإمداد بالسلاح . كما كلف بإنشاء ورشة لصناعة القنابل في الأوراس قصد تموين المجموعات المكلفة بتنفيذ العمليات على مستوى كامل التراب الوطني . تم السفر إلى ليبيا في ظروف جيدة ، وكان كل من بن بولعيد وبوضياف راضيين عن النتيجة . أما فيما يتعلق بالورشة ، و بالرغم من وجود صعوبات مادية و مالية كبيرة ، فقد تم إنشاؤها في دوار «الحجاج» ودخلت في طور الإنتاج . ولسوء الحظ فإن مخزن توزيع القنابل المقام في باتنة تعرض لحادثة انفجار ، كما سيأتي ذكره لاحقاً .

3 . تطهير العلاقات بين قيادة الحزب و مناضلي المنظمة الخاصة ، بتجنيد هؤلاء المناضلين في عمل سياسي بناء كفيل بإخراج الحزب من الانسداد الذي وجد نفسه فيه بعد انكشاف المنظمة الخاصة ، و فشل سياسة المشاركة في الانتخابات . وذلك بتجنيد كافة المناضلين في حملات لدفع القيادة إلى العزوف عن سياسة المشاركة في الانتخابات المزورة التي تنظمها الإدارة الاستعمارية ، و الشروع في إعادة بناء المنظمة على أسس جديدة . واعتبر هذا العمل السياسي جد هاما لأنه كان ينبغي العمل على تفادي إضعاف الحزب سياسيا مع مواصلة التحضيرات للعمل المسلح . ففي هذا الإطار كان بوضياف و ديدوش يؤديان المهام السياسية التي تكلفهما بها القيادة ، لاسيما إيفادهما إلى فرنسا . و كان بعض المسؤولين القدامى للمنظمة يجهلون الدوافع الحقيقية لهذا السلوك ، و كانوا يعتقدون بأن موقف بوضياف و ديدوش ينم عن ضعف إزاء قيادة الحزب .

4 . إعادة طرح مشكلة ائتلاف الأحزاب السياسية على أسس سليمة وكفيلة بدعم الكفاح المسلح ساعة اندلاعه . في هذا الإطار اقترح علي بوضياف أن أشجع مبادرة قام بها الشيخ محمود بوزوزو ، مدير جريدة «المنار» ، يدعو فيها إلى وحدة الأحزاب . وبصفتي متعاونا مع هذه الجريدة ، عملت كل ما

في وسعي لإنجاح هذه المبادرة بحملة شُرع فيها وأُبرزت في شكل استفتاء أو استطلاع للرأي . وكان لها صدى أزعج إلى حد ما قيادة الحزب التي كانت تحضر وقتها في السرية لنداء من أجل «مؤتمر وطني جزائري» . وقد أخبرنا بن بولعيد أنها أزعجت القيادة وبيّن دواعي هذا الانزعاج بسبب الآراء المعبر عنها بمناسبة هذه العملية الاستفتائية التي شملت قطاعاً واسعاً و متنوعاً ، وكان جديراً بالمراجعة ، فهو مشكّل من اتجاهات فكرية و تيارات سياسية مختلفة عشية اندلاع ثورة أول نوفمبر .

بالفعل ، كان دعم العمل المسلح بجبهة سياسية عريضة يمثل دوماً انشغالاً رئيسياً في إعداد استراتيجية الجماعة . وقد تم التعبير عن هذا الانشغال عشية اندلاع الثورة في شكل نداء للانخراط الفردي في جبهة التحرير ، وسعياً لتجاوز التمزقات التي سببها الصراع القائم بين مصالي و اللجنة المركزية .

5 . بمجرد استخلاص الدروس من فشل كل المساعي التي بادر بها الحزب لدى حزب «الاستقلال» وبخاصة لدى حزب «الدستور الجديد» من أجل التنسيق لتحضير العمل المسلح ، قرر تكثيف العلاقات مع المناضلين التونسيين و المغاربة المجندين فعلاً في العمل المسلح أو الذين يعتزمون خوضه . وعرف هذا التوجه بداية تجسيد في الميدان أثناء اللقاءات التي جرت ، في غضون شهر أوت من عام 1952 ، مع ضابطين مغربيين أوفدهما الأمير عبد الكريم الخطابي ، وهما الهاشمي الطود و حمادي عزيز . وقد التقيت بهما بعد أن وجههما إليّ صديقي المغفور له الطاهر قيقة ، المناضل المغاربي الكبير ، الذي كان مناضلاً في حزب الشعب الجزائري و في نفس الوقت في حزب الدستور الجديد .

وكانت مهمة المبعوثين المذكورين تتمثل في ربط علاقات تنسيق بين مجموعات العمل المسلح ، على صعيد البلدان المغاربية الثلاثة ، ومحاولة نشر مجموعات في المناطق التي كانت تخلو منها . وفي نهاية المطاف صرحا لي بأنهما كانا مكلفين بمهمة لدى الفقيد أحمد مزغنة وطلبا مني أن أسهل لهما الاتصال به . وبما أن أحمد مزغنة لم يكن معروفاً في أوساط المناضلين حتى

يتسنى له تقديم اقتراح أو اتخاذ تدابير في العمل الميداني ، طرحت على محدثيّ السؤال التالي : «هل تريدان رؤية أحمد مزغنة أم ترغبان في لقاء من هم باستطاعتهم القيام بتنسيق العمل المسلح؟» . لاحت على وجهي محدثيّ علامة دهشة لما قلته فتبادلا نظرة وردّا عليّ قائلين : «طبعاً نريد رؤية مسؤولي العمل المسلح .» وقلت : «على كل ، سأمكنكما من الاتصال بأحمد مزغنة ومع مسؤولين آخرين في الحزب ، وبخاصة من هم قادرون على تحضير العمل المسلح .» ومكنتهما من الاتصال ببوضياف بعد أن أخبرتهما بتفاصيل القضية .

و التقينا مرة أخرى مع هذين المبعوثين بعد عودتهما من المغرب حيث أديا نفس المهمة . وكشفا لنا بأن المناضلين المغارب مستعدون لخوض غمار الكفاح المسلح في غضون عام 1953 .

سفر بوضياف و ديدوش إلى فرنسا

في أواخر صيف 1953 ، اقترحت قيادة الحزب على محمد بوضياف وديدوش مراد تولي مسؤوليات في تنظيم فيدرالية الحزب في فرنسا . وكان هذا الاقتراح موضوع مشاورات بين بوضياف و باقي أعضاء المجموعة ورحب به جميع من استشيروا في شأنه . والعنصر الذي كان له وزنه في القرار يتمثل في فكرة السعي لتمويل تحضيرات العمل المسلح انطلاقاً من فرنسا ، فكلهم يتذكرون الصعوبات المالية التي لقيها بن بولعيد لإنشاء ورشة لصنع المتفجرات .

قبل مغادرة ديدوش مراد الجزائر ، ربط صلتي بمسؤول العاصمة زبير بوعجاج ، في حين عرّفني بوضياف بن عبد المالك رمضان ، مسؤول منطقة الغرب ، كما أعطاني عنواناً للالتحاق به في فرنسا ومفتاح شفرة تستعمل كوسيلة تعارف بين مسؤولي الشبكة .

و كانت كلمة السر : «هب الريح» . وشاءت الأقدار أن استعمل زبير بوعجاج هذا المفتاح في وقت لاحق في السجن ، وقد طلبه مني للدخول في اتصال مع رابح بيطاط ، المحال للسرية بعد اعتقاله .

وفي غياب محمد بوضياف و ديدوش مراد، وقعت ثلاثة أحداث هامة تتمثل في انعقاد مؤتمر الحزب في أفريل 1953، وانفجار باتنة في شهر جويلية من نفس العام و أخيرا تفجر الخلاف بين مصالي و اللجنة المركزية في فيفري 1954. وسأسرد هذه الوقائع حسب تسلسلها الزمني فيما بعد. قبل هذا أريد أن أشير إلى الآثار الهامة التي خلفتها هذه الأحداث على مشروع الجماعة. فإذا كانت حادثة باتنة لم تفرض سوى تأجيلاً للتحضيرات المادية و البرمجة، فإن تصدع الحزب كان بمثابة زلزال سياسي خلط الآفاق السياسية باقتراب موعد الانتقال إلى العمل المسلح.

وكان الاتجاه الساري نحو الحرب يبدو فعلاً أمراً محتوماً بحكم الصراع المحتدم مع النظام الاستعماري و العجز شبه الأكيد للحزب على مواجهته. و الصراع بين مصالي و اللجنة المركزية عجّل بالانتقال إلى الكفاح المسلح، الذي صار ضرورياً لإسقاط النظام الاستعماري بالطبع وأيضاً لتجاوز الصراعات الداخلية و تفادي تشتت القوى الحية للأمة.

1 . مؤتمر الحزب-أفريل 1953

في شهر أفريل 1953 انعقد في الجزائر العاصمة مؤتمر الحزب. وكانت فرصة مواتية لإنجاز عمل سياسي عميق، جند كافة المناضلين المهيكلين. و تركز العمل على محورين اثنين: التخلي عن سياسة المشاركة في الانتخابات المزورة والعمل على إحياء المنظمة الخاصة.

لقد تم إقرار و تنظيم هذه الحملة مع بوضياف العائد إلى الجزائر. أثناء وجوده بفرنسا في فترة انعقاد المؤتمر، كنت أنا أنسق العمل، قبل و أثناء المؤتمر، رفقة بن بولعيد و بن عبد المالك رمضان.

أعطت الحملة ثمارها بما أن المؤتمر قرر فعلاً إعادة تشكيل المنظمة الخاصة، التي أطلقت عليها تسمية «البركة» في مناشير الحزب السرية، لكن تركت للقيادة حرية الفصل في قضية المشاركة أو عدم المشاركة في الانتخابات.

بعد قرابة شهر من انتهاء المؤتمر، جاء بن خدة يخبرني بأنني عينت عضوا في اللجنة المركزية، فعلقت جوابي لبضعة أيام، طلبت رأي بوضياف العائد وقتها إلى العاصمة فنصحني بشدة بقبول العرض وأردف قائلا: "نستطيع أن ننسق مع ابن بولعيد، وهو نفسه عضو في اللجنة المركزية".

علمت لأول مرة بأن بن بولعيد، الذي كانت تجمعني به علاقة ودّ متينة، كان عضواً في اللجنة المركزية. وفي تلك الظروف، تعتبر مثل هاته المواقف من الأمور العادية التي تفرضها قواعد السرية.

في غياب كل من محمد بوضياف و ديدوش مراد، وقع حدثان، أحدهما مادي و الآخر سياسي، فرضا تغيرات هامة في برنامج عمل المجموعة: انفجار باتنة وانشقاق الحزب.

فالأول فرض تأجيل التحضيرات وتهيئة المخططات، والثاني خلخل كلياً الآفاق السياسية.

2 . انفجار باتنة

لقد أدى بن بولعيد المهمة التي كلف به أحسن أداء: إنشاء ورشة صنع المتفجرات في دوار الحجاج (الأوراس). والإنتاج صار كافياً للشروع في توزيعه على مختلف نقاط التراب الوطني.

كأول مرحلة، خزن بن بولعيد كمية هامة من المخزون في دكان أحد المناضلين (السيد مشلق) الكائن بـ 20 نهج فرنسا بباتنة (شارع الجمهورية الآن). في يوم الأحد 19 جويلية 1953، انفجر المخزن. المدينة كلها كانت تحت وقع الصدمة. و جميع السلطات المدنية والعسكرية سارعت إلى المكان وتفاجأت باكتشاف ترسانة حقيقية.

نبأ هذا الانفجار أبلغني به بن بولعيد الذي جاء يزورني في العاصمة. ببسمته المعتادة، واكتفى بمدّي قصاصة من جريدة Ladépêche de Constantine التي أوردت الحادثة. بعد قراءتها، تصوّرت هول الكارثة التي ذكرتني مباشرة بحادثة تبسة والتي كانت السبب في انكشاف المنظمة الخاصة. إلا أن وقع حادثة

باتنة أهم منه و بلا شك أكثر هولا . في نفس اليوم بعثت بالقصاصة من دون تعليق إلى محمد بوضياف الذي لم يتمكن من الالتحاق بالعاصمة إلا بعد مدة .

ما العمل ؟ أسرّ لي بن بولعيد بأنه سيحاول طمس القضية بالمال وبأنه سيطلب لهذا الغرض المبلغ المالي اللازم (250 ألف فرنك) من قيادة الحزب . وعن سؤال : « كيف يمكن تبرير مصدر الانفجار لقيادة الحزب ؟ » رد قائلا بأنه سيزعم بأن الأمر يتعلق بمخزن قديم يحوي معدات المنظمة الخاصة .

لم أرتح لمصداقية التبرير الذي قدمه بن بولعيد . لكن كل شيء سار على ما يرام . فالقيادة منحت المبلغ المطلوب و تقبلت دون مشقة التبريرات المقدمة .

والجدير بالذكر إن انفجار باتنة لم يكن ، على حسب علمي ، مسجلا في أي وثيقة من الوثائق الفرنسية الممكن الرجوع إليها . باستثناء ما صرح به أحد المشاركين في اجتماع أمني عقد في قسنطينة إبان حرب الجزائر ، في تدخله قائلا : « أتذكر أن هناك انفجارا وقع في باتنة » .

3 . انشقاق الحزب

أعتقد أن قصة الانشقاق الذي وقع في الحزب والصراع بين الرئيس واللجنة المركزية قصة معروفة . وفي احتدام هذه الأزمة ، اقترحت على بن عودة و[illegible] استدعاء بوضياف وديدوش إلى العاصمة ، إذ كنا نخشى أن يشتت عناصر المنظمة الخاصة الذين لم ينضموا بعد إلى الشبكة من جراء الأزمة التي قد تعصف بهم . ولقد سمحت عودة بوضياف وديدوش إلى العاصمة بمواصلة نشاطات اللجنة وبالتجميع التدريجي لقدامى المنظمة الخاصة .

تمثل تأسيس اللجنة الثورية للوحدة والعمل الحلقة الرئيسية في هذا الصراع وعاملا محركا لعملية إنضاج الحركة الثورية . ولأن بروزها إلى الوجود تزامن مع احتدام الصراع ، اعتبرها البعض ، بشكل سطحي نسبيا ، بمثابة نواة محايدة تقف على نفس المسافة بين الطرفين . وفي الحقيقة ، تعتبر اللجنة الثورية تنظيما

أكثر تعقيدا ، لا بالنظر إلى الإطارات التي تكونها فقط ولكن على الخصوص بحكم أهدافهم المتناقضة مبدئيا .

كثير من جوانب حياة هذا التنظيم ظلت غامضة أو مجهولة تماما بالرغم من المكانة التي يحتلها في الكتابات التاريخية . فخلال فترة حياته ، الحافلة والمضطربة ، قطعت اللجنة الثورية للوحدة والعمل في ظرف بضعة أشهر أطوار الحياة الثلاثة : النشأة والنمو والموت .

حسب محمد بوضياف ، يكون محمد دخلي (المدعو سي بشير) هو الذي اقترح عليه التحالف بين عناصر المنظمة الخاصة والأعضاء المداومين في الحزب ، بهدف المحافظة على وحدة القاعدة النضالية وإرغام المسؤولين على حل الأزمة . وعندما طلب بوضياف رأيي في هذا الاقتراح ، أبديت موقفا متحفظا . إذ كنت أخشى أن تحد الصعوبات التي كانت لازالت تطبع العلاقات بين المداومين وعناصر المنظمة ، من مصداقية هذا التحالف وفعاليته . ورد علي بوضياف قائلا : « في الظرف الذي نعيشه ، هذه الصيغة هي الوحيدة التي ستمكننا من الاستحواذ على القاعدة » . وقد صدقته الأحداث فيما قاله .

مع مرور الأيام ، ساعد تعقد الصراع بين مصالي واللجنة المركزية ، وكذا غياب أفق حل قريب للأزمة ، على تلاحم صفوف اللجنة الثورية وساهم في خلق جو من الثقة والتكافل بين المناضلين الذين يشكلونه . وذات يوم ، صرح لي بوضياف الذي كان مفعما بالتفاؤل ، بأن هذا التماسك والانسجام قد بلغ درجة جعلت مسؤولي اللجنة الثورية يقرون بالإجماع التخلي عن الأهداف التي سطروها في البداية ليكرسوا جهودهم لتحضير الكفاح المسلح الذي اعتبر الحل الوحيد لتجاوز أزمة الحزب وإعادة تفعيل حركة التحرير الوطني على أسس جديدة . ومع هذا التوجه الجديد للجنة الثورية ، صار كل مناضلي الحزب ، وليس فقط أعضاء المنظمة الخاصة ، مدعوين للانضمام إلى [illegible] الثورة المسلحة . حقق هذا التطور الذي عرفته اللجنة الثورية التلاحم مع المشروع الأول الذي تبنته المنظمة الخاصة ، بإضفاء نوع من الشرعية عليه . فلم يتم [illegible] توجيه سوى الأنظار إلى الكفاح المسلح كحل وحيد للأزمة [illegible] على اللجنة

باتنة أهم منه و بلا شك أكثر هولاً . في نفس اليوم بعثت بالقصاصة من دون تعليق إلى محمد بوضياف الذي لم يتمكن من الالتحاق بالعاصمة إلا بعد مدة .

ما العمل ؟ أسرّ لي بن بولعيد بأنه سيحاول طمس القضية بالمال وبأنه سيطلب لهذا الغرض المبلغ المالي اللازم (250 ألف فرنك) من قيادة الحزب . وعن سؤال : « كيف يمكن تبرير مصدر الانفجار لقيادة الحزب؟» رد قائلا بأنه سيزعم بأن الأمر يتعلق بمخزن قديم يحوي معدات المنظمة الخاصة .

لم أرتح لمصداقية التبرير الذي قدمه بن بولعيد . لكن كل شيء سار على ما يرام . فالقيادة منحت المبلغ المطلوب و تقبلت دون مشقة التبريرات المقدمة .

والجدير بالذكر إن انفجار باتنة لم يكن ، على حسب علمي ، مسجلاً في أي وثيقة من الوثائق الفرنسية الممكن الرجوع إليها . باستثناء ما صرح به أحد المشاركين في اجتماع أمني عقد في قسنطينة إبان حرب الجزائر ، في تدخله قائلا : « أتذكر أن هناك انفجارا وقع في باتنة » .

3 . انشقاق الحزب

أعتقد أن قصة الانشقاق الذي وقع في الحزب والصراع بين الرئيس واللجنة المركزية قصة معروفة . وفي احتدام هذه الأزمة ، اقترحت على بن خدة وحول استدعاء بوضياف وديدوش إلى العاصمة ، إذ كنا نخشى أن يتشتت مناضلو المنظمة الخاصة الذين لم ينضموا بعد إلى الشبكة من جراء الأزمة التي قد تعصف بهم ، ولقد سمحت عودة بوضياف وديدوش إلى العاصمة بمواصلة نشاطات اللجنة وبالتجمع التدريجي لقدامى المنظمة الخاصة .

يمثل تأسيس اللجنة الثورية للوحدة والعمل الحلقة الرئيسية في هذا الصراع وعاملاً محركا لعملية إنضاج الحركة الثورية . ولأن بروزها إلى الوجود تزامن مع احتدام الصراع ، اعتبرها البعض ، بشكل سطحي نسبيا ، بمثابة نواة محايدة تقف على نفس المسافة بين الطرفين . وفي الحقيقة ، تعتبر اللجنة الثورية تنظيماً

أكثر تعقيداً ، لا بالنظر إلى الإطارات التي تكونها فقط ولكن على الخصوص بحكم أهدافهم المناقضة مبدئيا .

كثير من جوانب حياة هذا التنظيم ظلت غامضة أو مجهولة تماماً بالرغم من المكانة التي يحتلها في الكتابات التاريخية . فخلال فترة حياته ، الحافلة والمضطربة ، قطعت اللجنة الثورية للوحدة والعمل في ظرف بضعة أشهر أطوار الحياة الثلاثة : النشأة والنمو والموت .

حسب محمد بوضياف ، يكون محمد دخلي (المدعو سي بشير) هو الذي اقترح عليه التحالف بين عناصر المنظمة الخاصة والأعضاء المداومين في الحزب ، بهدف المحافظة على وحدة القاعدة النضالية وإرغام المسؤولين على حل الأزمة . وعندما طلب بوضياف رأيي في هذا الاقتراح ، أبديت موقفا متحفظا . إذ كنت أخشى أن تحد الصعوبات التي كانت لازالت تطبع العلاقات بين المداومين وعناصر المنظمة ، من مصداقية هذا التحالف وفعاليته . ورد علي بوضياف قائلاً : «في الظرف الذي نعيشه ، هذه الصيغة هي الوحيدة التي ستمكننا من الاستحواذ على القاعدة» . وقد صدقته الأحداث فيما قاله .

مع مرور الأيام ، ساعد تعقد الصراع بين مصالي واللجنة المركزية ، وكذا غياب أفق حل مرضٍ للأزمة ، على تلاحم صفوف اللجنة الثورية وساهم في خلق جو من الثقة والتكافل بين المناضلين الذين يشكلونه . وذات يوم ، صرح لي بوضياف الذي كان مفعما بالتفاؤل ، بأن هذا التماسك والانسجام قد بلغ درجة جعلت مسؤولي اللجنة الثورية يقررون بالإجماع التخلي عن الأهداف التي سطروها في البداية ليكرسوا جهدهم لتحضير الكفاح المسلح الذي اعتبر الحل الوحيد لتجاوز أزمة الحزب وإعادة تفعيل حركة التحرير الوطني على أسس جديدة . ومع هذا التوجه الجديد للجنة الثورية ، صار كل مناضلي الحزب ، وليس فقط أعضاء المنظمة الخاصة ، مدعوين للانضمام إلى تحضير الثورة المسلحة . حقق هذا التطور الذي عرفته اللجنة الثورية التلاحم مع المشروع الأول الذي تبنته المنظمة الخاصة ، بإضفاء نوع من الشرعية عليه . فلم يبق توجيه سوى الانتقال إلى الكفاح المسلح كحل وحيد للأزمة ينبغي على اللجنة

الثورية أن تقترحه على المصاليين والمركزيين على حد سواء . وقد بدأت مسا[عي] في هذا الإطار وتمّ تنفيذها ، كما سأشير إليه لاحقا .

وفي تلك الأثناء ظهرت فجأة بعض المشاكل ، طمست في البداية لكنها لم تبرح أن خلقت أزمة قاتلة داخل اللجنة الثورية التي قطعت شوطا لا بأس به في مسيرتها .

في أواسط شهر ماي ، جاءني بوضياف غاضباً ليعلن لي نهاية اللجنة الثورية . وأخبرني بأن مشادة خطيرة وقعت بينه و بين محمد دخلي . هذا الأخير لامه على القيام بعمل مواز من خلال تعاطيه النشاط خارج الإطار الذي حددته اللجنة الثورية . و في رأيه فإن هذا يدل على انعدام ثقة . والحاصل أن محمد دخلي ، وهو رجل تنظيم متمرس ، اكتشف أمرا كان أعضاء المنظمة الخاصة قد أخفوه على شركائهم . ويتعلق بوجود شبكة كانت تنشط لأشهر عديدة قبل انفجار أزمة الحزب .

سألت بوضياف عن إمكانية تجاوز هذه الأزمة داخل اللجنة الثورية . وكان رده حازماً : «لا توجد أدنى إمكانية . علينا بالتفكير في صيغة أخرى» . وابتداء من تلك اللحظة ، عاد بوضياف إلى الطرح الأول : تحضير العمل المسلح بمعية نواة من المناضلين المتمرسين من المنظمة الخاصة دون سواهم . وكان اجتماع الاثنين والعشرين .

من جملة العواقب التي تمخضت عن الانشقاق داخل اللجنة الثورية ، تهميش عدد هام من إطارات التنظيم التي تبنت مبدأ الكفاح المسلح . و هذا لمدة أشهر عديدة . لم تحل هذه الوضعية ، حسب اعتقادي ، إلا بعد أن تولى عبان رمضان قيادة تنظيم العاصمة .

تساؤلات كثيرة و هامة تثيرها اليوم فصول هذه المرحلة التاريخية :

. على أي أساس كان تأسيس اللجنة الثورية بغذي تحولات مصالي الحاج الأخير من قدامى المنظمة الخاصة ؟ هذا يفسر ربما فشل مهمة بن بولعيد لدى هذا

. وعلى أي أساس كانت المواقف المتذبذبة والمترددة التي اتخذها بعض أعضاء اللجنة المركزية (لاسيما حسين لحول وبن يوسف بن خدة) بشأن التحضير للعمل المسلح ، مرتبطة بالانشقاق داخل اللجنة الثورية ؟ إنما الشيء الأكيد هو أن المرور باللجنة الثورية أتاح لجماعة 1952 توسيع شعبيتها ونفوذها خارج صفوف المنظمة الخاصة . كما سمح لها بأن تفرض نفسها كطرف أساسي في النقاش السياسي و في مساعي البحث عن حل للأزمة التي كانت تتخبط فيها الحركة الوطنية . ثم إنه بفضل هذا الالتفاف ، صارت لها القدرة على الإقناع بأن الكفاح المسلح بات الحل الوحيد للأزمة .

و طالما أن الأزمة حضرت اللقاءات و المناقشات بين مختلف الأطراف ، شاركت جماعة قدامى المنظمة الخاصة بقوة في هذه المناقشات للدفاع عن بديل الكفاح المسلح . بعض هذه اللقاءات جدير بأن يطلع عليه الجمهور . أسرد هنا بعض الحلقات التي عشتها شخصيا ، مما قد يسهل فهم بعض المواقف و تفهم بعض الأحكام . فخلال الفترة التي ساد فيها الوفاق داخل اللجنة الثورية ، أخبرني بوضياف بأن وفدا سوف يُرسل إلى مصالي و لدى اللجنة المركزية لمعرفة موقف كل طرف من فكرة الانتقال إلى الثورة التحريرية . وأراني الأسئلة التي من المقرر أن تُطرح عليهم .

أخذت على نفسي عناء الالتقاء بالأخوين لحول و بن خدة ، لإعلامهما بالمسعى المقبل . و قلت لهما : «إن الأسئلة التي ينبغي أن تجيبا عليها هامة جدا ودقيقة . فهي في رأيي تستدعي أجوبة صريحة ، بنعم أو لا» . استمعا إلي جيدا ، ولم يصرحا لي بشيء ، ولم يبديا أي رد فعل عليها .

التقيت بعد ذلك بن بولعيد فور التقائه بهما . كان مبسوطا ومنشرحا . قال لي : «إنها لمفاجأة سارة ، فالإخوان موافقون على الكفاح المسلح ، وأكثر من ذلك أعطونا مليون فرنك للإسراع في التحضيرات» .

هذا ، ويبقى أن الاتصالات التي جرت مع ممثلي مصالي على مستوى العاصمة لقيت الرفض . كان مولاي مرباح يعتقد بأن مثل هذه المسائل لا يمكن

الثورية أن تقترحه على المصاليين والمركزيين على حد سواء . وقد بذلت مساع في هذا الإطار وتم تنفيذها . كما سأشير إليه لاحقاً .

وفي تلك الأثناء ظهرت فجأة بعض المشاكل . طمست في البداية لكنها لم تبرح أن خلقت أزمة قاتلة داخل اللجنة الثورية التي قطعت شوطا لا بأس به في مسيرتها .

في أواسط شهر ماي ، جاءني بوضياف غاضباً ليعلن لي نهاية اللجنة الثورية . وأخبرني بأن مشادة خطيرة وقعت بينه و بين محمد دخلي . هذا الأخير لامه على القيام بعمل مواز من خلال تعاطيه النشاط خارج الإطار الذي حددته اللجنة الثورية ، و في رأيه فإن هذا يدل على انعدام ثقة . والحاصل أن محمد دخلي ، وهو رجل تنظيم متمرس ، اكتشف أمراً كان أعضاء المنظمة الخاصة قد أخفوه على شركائهم . ويتعلق بوجود شبكة كانت تنشط لأشهر عديدة قبل انفجار أزمة الحزب .

سألت بوضياف عن إمكانية تجاوز هذه الأزمة داخل اللجنة الثورية . وكان رده جازماً : «لا توجد أدنى إمكانية . علينا بالتفكير في صيغة أخرى» . وابتداء من تلك اللحظة ، عاد بوضياف إلى الطرح الأول : تحضير العمل المسلح بمعية نواة من المناضلين المتمرسين من المنظمة الخاصة دون سواهم . فكان اجتماع الاثنين والعشرين .

من جملة العواقب التي تمخضت عن الانشقاق داخل اللجنة الثورية ، نجد تهميش عدد هام من إطارات التنظيم التي تبنت مبدأ الكفاح المسلح ، و هذا لمدة أشهر عديدة . لم تحل هذه الوضعية ، حسب اعتقادي ، إلا بعد أن تولى عبان رمضان قيادة تنظيم العاصمة .

تساؤلات كثيرة و هامة تثيرها اليوم فصول هذه المرحلة التاريخية :

- على أي أساس كان تأسيس اللجنة الثورية يغذي تخوفات مصالي الحاج من قدامى المنظمة الخاصة؟ هذا يفسر ربما فشل مهمة بن بولعيد لدى هذا الأخير .

- على أي أساس كانت المواقف المتذبذبة والمترددة التي اتخذها بعض أعضاء اللجنة المركزية (لا سيما حسين لحول وبن يوسف بن خدة) بشأن التحضير للعمل المسلح ، مرتبطة بالانشقاق داخل اللجنة الثورية ؟ إنما الشيء الأكيد هو أن المرور باللجنة الثورية أتاح لجماعة 1952 توسيع شعبيتها ونفوذها خارج صفوف المنظمة الخاصة . كما سمح لها بأن تفرض نفسها كطرف أساسي في النقاش السياسي و في مساعي البحث عن حل للأزمة التي كانت تتخبط فيها الحركة الوطنية . ثم إنه بفضل هذا الالتفاف ، صارت لها القدرة على الإقناع بأن الكفاح المسلح بات الحل الوحيد للأزمة .

و طالما أن الأزمة حضرت اللقاءات و المناقشات بين مختلف الأطراف ، شاركت جماعة قدامى المنظمة الخاصة بقوة في هذه المناقشات للدفاع عن بديل للكفاح المسلح . بعض هذه اللقاءات جدير بأن يطلع عليه الجمهور . أسرد هنا بعض الحلقات التي عشتها شخصيا ، مما قد يسهل فهم بعض المواقف و تفهم بعض الأحكام . فخلال الفترة التي ساد فيها الوفاق داخل اللجنة الثورية ، أخبرني بوضياف بأن وفداً سوف يُرسل إلى مصالي و لدى اللجنة المركزية لمعرفة موقف كل طرف من فكرة الانتقال إلى الثورة التحريرية . وأراني الأسئلة التي من المقرر أن تُطرح عليهم .

أخذت على نفسي عناء الالتقاء بالأخوين لحول و بن خدة ، لإبلاغهما بالمسعى المقبل ، و قلت لهما : « إن الأسئلة التي ينبغي أن تجيبا عليها هامة جدا ودقيقة ، فهي في رأيي تستدعي أجوبة صريحة ، بنعم أو لا » استمعا إلي بتأن ، ولم يصرحا لي بشيء ولم يبديا أي رد فعل عليها .

التقيت بعد ذلك بن بولعيد فور التقاءه بهما . كان منبسطاً ومنشرحاً . قال لي : « إنها لمفاجأة سارة. فالإخوان موافقون على الكفاح المسلح ، وأكثر من ذلك أعطونا مليون فرنك للإسراع في التحضيرات » .

هذا ، ويبقى أن الاتصالات التي جرت مع ممثلي مصالي على مستوى العاصمة لقيت الرفض . كان مولاي مرباح يعتقد بأن مثل هذه المسائل لا يمكن

أن تناقش إلا مع مصالي نفسه . فتم اللقاء أخيراً مع مصالي شخصياً ، وكان ذلك مع بن بولعيد المتحدث باسم المجموعة .

وكان مصالي قد طالب ، في إطار تحضير المؤتمر ، باستقبال أعضاء اللجنة المركزية فرادى . ولقد استجاب بن بولعيد ، على غرار أعضاء آخرين من اللجنة المركزية ، للدعوة . لكنه كلف في الوقت نفسه من طرف الجماعة بمهمة خاصة تتمثل في محاولة إقناع الرئيس بوضع حد لتمزق الحزب ، مع إعطائه ضمانات بأن مسألة المرور إلى العمل المسلح تكفلت بها جماعة قدامى المنظمة الخاصة . ولم ينجح بن بولعيد في إقناع مصالي . فعاد إلى العاصمة خائباً ومكتئباً . قال لي : «قضيت تقريباً نهاراً كاملاً مع مصالي ، ولجأت إلى استعمال كل الحجج الممكنة ، دون جدوى . استمع إلي مصالي مطولاً و بتأن . كان دائماً يردد علي نفس الجواب : «كل هذا شيء جيد ، لكن قبل هذا يجب أن أطهر البيت .»

باطلاعه اللجنة المركزية المجتمعة بمحتوى محادثاته مع مصالي ، لم يكن بوسع بن بولعيد أن يفصح عن طبيعة المهمة التي كلف بها لدى هذا الأخير ولا عن الأبعاد الخاصة لهذه المحادثات . كان كلامه مختصراً جداً وواضحاً جداً في آن واحد . وبعدما أعرب عن خيبته الكبيرة ، خاطب أعضاء اللجنة المركزية بقوله : «إخواني ، أقسم لكم بأن سي الحاج موش راجل» . كثيرون ممن يعرفون التقدير والحب الذي يكنه بن بولعيد لمصالي ، اندهشوا . والبعض استلذ اللهجة الحادة والصريحة التي تكلم بها الرجل القروي . لكن القليل فقط فهموا سر هذه المرارة العميقة .

تحولت الاتصالات بين جماعة قدامى المنظمة الخاصة واللجنة المركزية إلى سويسرا ، لتضم ممثلين عن الوفد الخارجي في القاهرة . وتواصلت تقريباً إلى غاية عشية أول نوفمبر . لا أستطيع أن أدلي بشهادة مباشرة عن هذه الاتصالات ، التي تابعها بالأخص كل من امحمد يزيد و حسين لحول . لكن تولد عن مضمونها ونتائجها سوء تفاهم خطير وتباين كبير في الفهم و الرؤى . و أدل مثال على ذلك ، فكرة تنظيم مؤتمر تشرف عليه اللجنة المركزية كرد على ذلك الذي نظمه مصالي في بلجيكا . السؤال المطروح : هل يفهم من تسارع وتيرة

الاستعدادات للثورة ، الذي تقرر مع ذلك باتفاق مشترك في سويسرا ، التخلي عن مشروع عقد هذا المؤتمر ، أم أن العمل المسلح هذا مفروض أن يتم بعد انعقاد المؤتمر ؟

في أواسط شهر أكتوبر ، قررت محاولة اتصال أخيرة لتسوية هذه الصعوبات عقب دورة للجنة المركزية خصصت لمناقشة مدى جدية مشروع إعلان الكفاح المسلح . وهي المناقشة الوحيدة في هذا الموضوع التي حضرتها . في الظروف العادية ، تظل معالجة هذه المسألة حكرا على القيادة ، إن لم تكن على بعض أعضائها . فبناء على هذه اللائحة المصادق عليها في ختام الدورة ، تقرر إرسال يزيد ولحول إلى القاهرة لمتابعة جولة الاتصالات .

كان النقاش حاداً ، صريحاً و حيوياً . سمح بتوضيح موقف كل واحد . كانت هناك أقلية ، وافقت على مبدأ اللجوء إلى العمل المسلح كوسيلة نضال ، لكنها تحججت بضعف الاستعداد المادي لرفض « المغامرة » على حد تعبير بعض أعضاء هذه الجماعة . أحد الناطقين باسمها رفع هذه الحجة : «ليس بعلب السردين سنحرر الجزائر» . وردّ عليه أحد أعضاء اللجنة المركزية ساخراً : « نسي الأخ بأن علب السردين تحدث ضجيجاً» ، معرباً بذلك عن الموقف الصحيح للأغلبية التي تستجيب في تقديره للبعد السياسي لممارسة العنف الثوري .

المشروع الأول من اللائحة رفض من قبل يزيد و لحول ، قبل أن يطرح للتصويت . بحكم أن المشروع في نظرهما لا يعكس موقف اللجنة المركزية . وأعلنا بأنهما يرفضان الذهاب إلى القاهرة إذا لم يحدد موقف اللجنة المركزية بشكل واضح .

و تم تعديل اللائحة بالكيفية التي تمناها يزيد وصودق عليها بالإجماع . ولا أدري إن كان هذا النص محفوظا في مكان ما ، فهذه الوثيقة تكتسي قيمة تاريخية أكيدة ، إذ تعبر عن الموقف الذي ناقشته وصادقت عليه رسمياً اللجنة المركزية بخصوص مشروع الانتقال إلى الكفاح المسلح .

بعد دورة اللجنة المركزية واجتماع الستة يوم 23 أكتوبر 1954 التقيت بوضياف. بدا لي متعبا وقلقا. أخبرته بمجريات اجتماع اللجنة المركزية وبقرار إرسال يزيد و لحول إلى القاهرة. قال لي: «سيمكثان هناك، حيث سيحتاج إليهما. وعلى كل حال سوف لن يستطيعا العودة إلى الجزائر. فالانطلاقة ستكون في نهاية الشهر». بهذه الكلمات أبلغني بوضياف بتاريخ اندلاع الثورة. واسترسل طالبا مني أن أرافقه إلى مصر، مضيفا أن إخوان وفد القاهرة طلبوا من لحول و يزيد نفس الشيء أثناء لقائهم بسويسرا.

أفهمت الأخ بوضياف بأنني لست أنوي مغادرة البلاد. هذا الجواب الذي ربما لم يكن يتوقعه بوضياف، أحزنه وأغضبه. وقبل أن نفترق، قال لي بلهجة جافة: «عرضت عليك هذا الأمر، لأنك صديق ولأنك تعرف أشياء كثيرة».

عندما التقينا مجدداً في القاهرة، مع مطلع عام 1956، أول شيء بادرني به بعد التحية: «أرأيت في النهاية كيف قررت الخروج».

***

هذه هي إذن زاوية نظر شخصية، نظرة بلا شك غير وافية لتلك المرحلة الحاسمة من كفاحنا التحريري الوطني، التي تندرج ضمنها الوقائع و الأحداث التي جمعها الأخ عيسى كشيدة وتناولها بالتمحيص الدقيق و الوصف المسهب. وأرجو أن تأتي بعدها شهادات أخرى لتثري و تكمل هذه اللوحة. وأعني بخاصة المناضلين الذين لايزالون على قيد الحياة، من الذين وردت أسماؤهم في هذا الكتاب والمناضلين البواسل الذين قرروا الانسحاب من الساحة تواضعا.

أعرف أن بعضاً منهم (لاسيما الدكتور لمين دباغين ومحمد يزيد وسيد علي عبد الحميد و محمد دخلي) يطرحون على أنفسهم نفس التساؤلات الواردة في بداية هذه المساهمة: ماذا بوسع الشهادات وتفاصيل تجربة شخصية أن تمثله أمام تدفق التاريخ الجارف؟ وما هي الفائدة التي بإمكان هذه المساهمة أن تقدمها للحاضر وخاصة للمستقبل؟ كنت دائما أطرح على نفسي هذه

الأسئلة، وانتهى بي الأمر إلى صياغة سؤال آخر: لكن ما الفائدة من كتم هذه التجارب ومن تسهيل عملية التلاعب بالتاريخ بسبب صمتنا؟

يوم 20 أكتوبر 2001

عبد الحميد مهري

تمهيـــد

التاريخ خدمني وأكرمني .

دخلت السجن في العاصمة وفي وهران والبرواقية ، ومررت بمعتقل «بول كازيل» .

شاركت في الثورة . ضُربت وعذبت وأهنت . صحتي لم تعد بخير .

ولا أندم على شيء .

مكافأتي أني رأيت علم الجزائر يرفرف وعرفت مهندسي الثورة الستة .

كنت مناضلاً بسيطاً في حزب الشعب ، وحدث أن تقاطعت مسيرتي مع مسيرة القائد الكبير سي الطيب الوطني الذي اكتشف ذات يوم بأن محل الخياطة الذي كنت أملكه في قلب أعالي القصبة بالعاصمة تتوفر فيه جميع المؤهلات لإيواء المناضلين الوطنيين الذين هم محل بحث من قبل الشرطة الفرنسية .

استقر بوضياف في هذا المحل قبل أن يحوّله إلى مقر أول لقيادة أركان الثورة . الشيء الذي أتاح لي التعرف على عدد كبير من مناضلي الحركة الوطنية ولاسيما منهم رواد الكفاح التحريري الخمسة الذين التحق بهم بطل جرجرة. كريم بلقاسم .

عشت معهم طيلة سنوات وقاسمتهم أفراحهم وأقراحهم . بوضياف ، بن بولعيد ، بن مهيدي ، بيطاط ، ديدوش ، كريم : ستة رجال من الشعب ، أحدهم مات في فراشه ، ثلاثة سقطوا في ميدان الشرف واثنان راحا ضحية جزائر حرراها من أغلال مائة واثنين وثلاثين سنة من الاستعمار .

تعرفت عليهم ، أعجبت بهم ، واليوم أنا أحبتهم . . .

في هذه المساهمة المتواضعة، التي دفعني إلى كتابتها كثير من الأصدقاء والمناضلين، ومن خلال مسيرتي النضالية، أقدم إضاءة، وإن كانت غير كافية، حول بعض حيثيات النشاط الدؤوب الذي عرف به هؤلاء الزعماء، وكنت شاهداً لها وفي بعض الأحيان مشاركاً وفي غالب الأحيان فاعلاً.

سي الطيب الوطني

في أواخر 1949 كنت أناضل في صفوف «الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية» وأنشط على مستوى هياكل المنظمة الخاصة تحت قيادة مسؤول الناحية، محمود بوضياف وأصله من باتنة، وأثناء لقاء عادي في مقهى شعبي بالقصبة، قدّم لي مناضلاً يدعى سي الطيب.

كان الرجل متدثراً في قشابية داكنة، طويل القامة، نحيل الجسم، عيناه تبرقان. يتكلم كثيراً وبصوت صاف. يكبرني سناً بحوالي عشر سنوات. كان إنساناً ظريفاً ولسانه مهذباً. كنا نتحدث عن أمور بسيطة، وقلت له بأنني أمارس حرفة الخياطة وأنني تحصلت على شهادة من دار الخياطة الدولية «دارو» Daroux. حدثته عن التمييز الذي كانت تمارسه الغرفة التجارية في حق الجزائريين الذين تقدموا لهذه المسابقة بالذات وعن السلوك العنصري الذي اتصف به المترشحون الآخرون من ذوي الأصل الفرنسي اتجاههم، فحدق فيّ وتمتم لي مبتسماً: «لا تنس أنهم في بلاد احتلوها».

هذا اللقاء الأول مع سي الطيب، واسمه الحقيقي محمد بوضياف، كان فاتحة عهد صداقة بيننا دامت أكثر من أربعين سنة، تخللها كثير من التقارب والمخاوف والافتراقات والآمال.

قطعنا معاً طيلة مسيرتنا النضالية شوطاً كبيراً، إلى أن جاء ذلك اليوم التعس، التاسع والعشرين جوان 1992 على الساعة الحادية عشرة والنصف، و كنا ساعتها مجتمعين في دورة للمجلس الوطني الاستشاري الذي يرأسه رضا مالك، عندما طلب هذا الأخير على خط الهاتف وعاد بعد لحظات ليعلن

للمجلس مذهل الخبر المشؤوم: «الرئيس بوضياف اغتيل في عنابة». فعرفت أني فقدت صديقاً و شقيقاً.

هل كان منزعجاً إلى درجة أنه نسي أن يرفع الجلسة؟ يومها لم يعرف رضا مالك كيف يتصرف برزانة الرجل السياسي. غادرت القاعة، وتبعني محمد الشريف عباس و طرودي الهاشمي وعدد من الأعضاء الآخرين. كنت في حالة أخرى، وكمن تعوّد السير نائماً رجعت إلى البيت راجلاً.

على الساعة الواحدة و 13 دقيقة، وعندما رأيت على شاشة التلفزيون الوجه العبوس للصحافي وهو يعلن عن وفاة سي الطيب، تحققت جازماً أن رمز الثورة اغتيل. ولم أعد أسمع شيئاً، سبقت دموعي رغبتي في البكاء، وصار حلقي متشنجاً وشعرت بفتور همتي. ولم أعد أدري إن كان عليّ أن استمع إلى الأخبار أم أعلن نبأ الاغتيال لزوجتي وأولادي. لقد صرت عاجزاً عن التعليق على هذا الحادث الجلل.

عندما تعرفت على محمد بوضياف، كان حينها قد حوّل من قسنطينة إلى العاصمة. وغادر هيئة الأركان الجهوية لشرق الجزائر التي ينوبه في قيادتها العربي بن مهيدي ويساعده ثلاثة عناصر أخرى ستبرز مستقبلاً، وهم ديدوش مراد وغراس عبد الرحمان والعمودي عبد القادر.

وانضم إلى هيئة الأركان العامة للمنظمة الخاصة تنفيذاً القرار من قيادة الحزب (حزب الشعب/ الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية)، وتمّ ذلك عقب وقوع حدثين هامين: الأزمة البربرية و إقصاء لمين دباغين الذي كان عضواً في القيادة. فيما يخص هذين الحدثين، قام بعض المسؤولين السامين في هيئات الحزب بعقد تجمعات على مستويات ضيقة قصد تبرير الإجراءات والقرارات المتخذة وإعلان التوجيهات المقررة في القمة المتمثلة في إقصاء عدد من مسؤولي منطقة القبائل، مثل عمر أوصديق وواعلي بناي وعمر ولد حمودة والصادق هجرس ورشيد علي يحي ومناضلين آخرين معروفين.

وعلمنا بعدها بنبأ إبعاد حسين آيت أحمد الذي طلب منه أن يتخلى عن مهمته على رأس المنظمة الخاصة لصالح أحمد بن بلة ، وقد شكلت هذه الإجراءات كلها حدثاً بارزاً في حياة الحزب .

وكان قرار إقصاء لمين دباغين من رئاسة الحزب على نفس القدر من الأهمية ، وقد سلّم له القرار بعد أن دخل في صراع مع مصالي الحاج .

ستصبح علاقاتي بسي الطيب الوطني (كان واحداً من الأسماء المستعارة لمحمد بوضياف) أكثر عمقاً وأكثر جدية منذ اعتقالي في شهر ديسمبر 1949 على يد شرطة الاستخبارات العامة للعاصمة . رحت ضحية وشاية أحد جواسيس مصالح المخابرات الفرنسية الذي تمكن من التسلل داخل الحزب والوصول إلى عمق «المنظمة السياسية» وأصبح مناضلاً فيها . فاتخذته صديقاً لي . لكنه وشى بي وقال أني أتولى مسؤولية الدعاية والإعلام ، وهي فرع من الفروع التابعة لهيكل الحزب ، مكلف بضمان الاتصالات بين العاصمة وباتنة .

تركت لبضعة أيام في سراديب قسم الشرطة للعاصمة ، حيث تم تعذيبي واستنطاقي على يد المحافظ تورون ، بمساعدة الجلاد المشؤوم الذكر حميدي المدعو «دكتور شميث» ، الذي كان يتفنن في التنكيل بكل من يقع بين يديه من الوطنيين المعتقلين .

وكانت هذه أياما قاسية ، وقاسية جداً ، واجهتها بإيمان لا يتزعزع ، إذ كنت أحاكم نفسي ، وفي أعماقي كنت أحفز نفسي وأتشجع إلى أن أطلق سراحي بعد مرور بضعة أيام بدعوى انعدام الأدلة .

وإذا بقيت صامداً ، فهذا يعود أولاً إلى هذا الإيمان المطلق الذي يغمر قلب كل مناضل يؤمن بالله ولا يرضى بأن يلقي بإخوانه بين براثن الجلادين . « رجائي أن ما حصل لي لا يتكرر مع الأصدقاء والرفقاء المناضلين في السرية ، كفانا خوفاً ومآسي » .

وإذا كنت لم أفش سراً ولم أتفوه بكلمة ، فإني أؤكد أن الفضل يرجع إلى التكوين النضالي الذي اكتسبته داخل الحزب نتيجة دروس آداب السلوك

وحرب المدن التي تعلمناها من «دليل العسكري» والمأخوذة من الفقرة التي تحمل عنوان «سلوك المناضل أمام الشرطة» ، وهي وثيقة بيداغوجية وضعها الحزب في متناولنا. ولن أندم أبداً على مطالعتها وحفظ تعاليمها .

بفضل إيماني بالله جلّت قدرته وهذا التكوين النضالي ، استطعت أن احتفظ ببرودة دمي وأن أتحكم في نفسي حتى مكنني الله من أن أتصدى لمرامي الشرطة الفرنسية وأنقذ الشرف . وعند خروجي من قسم الشرطة ، غمرني شعور بالاعتزاز وبالفرحة في آن واحد ، بالاعتزاز لأني حاكمت نفسي وبالفرحة لأني لم أستسلم ولم أخن إخواني .

في تلك الفترة ، كان أي مناضل يلقى عليه القبض من قبل الشرطة ثم يطلق سراحه ، مهما كان مركزه في هياكل الحزب ، تجمّد نشاطاته تلقائياً . وينبغي عليه أن يبتعد عن المناضلين وعن المنظمة لبعض الوقت . هكذا كانت القاعدة المعمول بها في الحزب .

وبعد إطلاق سراحي ببعض الوقت ، زارني بوضياف الذي جاء يسأل عن حالي . حكيت له شريط الأحداث من بدايته إلى نهايته . لم أنس شيئاً ، بما في ذلك بعض التفاصيل التي لا أهمية لها . وأطلت في حديثي عن الأسئلة التي طرحها عليّ رجال الشرطة والجلادون خلال حصص الاستنطاق وحلقات التعذيب وفترات الاستراحة ، وعن الأماكن والمواقيت (وإن كنت في بعض الأحيان ، لا أعرف إن كان الزمن نهاراً أم ليلاً بعدما فقدت معالم الزمن وأنا أستنطق داخل قاعة معتمة) . أصغى إليّ بوضياف جيداً ومن حين إلى آخر يعود إلى بعض الجوانب التي بدت له مبهمة ، ويهز رأسه باستمرار معبراً عن إشفاقه وإشفاقه عندما كنت أروي له مشاهد التعذيب . هدأ من روعي وشجعني ، ثم وجهني نحو مسؤول «المنظمة السياسية» وهو سيد علي عبد الحميد لكي أسلم له تقريراً مفصلاً ، وبعد هذه المقابلة ، شعرت بالانفراج لأني كنت بأشد الحاجة لأن أخرج ما في أعماقي . بعد هذه المكاشفة مع بوضياف الذي كان ظريفاً وطيباً معي وأبدى تضامناً قلبياً وأخوياً ، زالت جميع الآلام التي عانيتها في زنزانات الشرطة .

يومها شرّفني بوضياف بثقته وعطفه بل وبصداقته . صداقة راحت تتمتن أكثر فأكثر بعد كل مقابلة وبعد كل مناقشة . أستمع إليه بكل روية وهدوء وكلي تقدير لخصاله الإنسانية ولعبقريته كقائد سياسي محنك . أعتقد أنه رأى فيّ المناضل والصديق الذي سيكون دوماً إلى جانبه يوازره بكل إخلاص . خمسون سنة بعد هذا التاريخ ، لم أنس يوماً حكمه ، و الله عليّ شهيد .

تعددت لقاءاتنا وصارت أحاديثنا تشمل كل المجالات . وذات مساء ، جاء يطلب مني أن أرافقه إلى سهرة يحضرها أحمد بن بلة وبلحاج جيلالي (كويبس) ومحمود بوضياف في بيت رقيمي جيلالي ، الكائن في 60 شارع القصبة ، القريب من مقر سكني الموجود في 45 من نفس الدرب . وامتدت السهرة حتى طلوع الفجر واستمتعت خلالها بمختلف مداخلات الساهرين وقدّرت مستوى ثقافتهم السياسية . وتركزت الأحاديث ، رغم كونها ودية وخارجة عن بروتوكلات اجتماعات الحزب ، على وضع البلاد ، وتناولت بالتحليل مواقف الأحزاب السياسية الجزائرية بكل توجهاتها ، كما تعرض فيها الرفقاء للآمال التي يعقدها المناضلون وكبواتهم .

وفضلاً عن الجوانب السياسية ، جلسوا كلهم يمزحون ويقصون النوادر والنكت ويتكلمون في أمور الحياة البسيطة .

كنّا كثيراً ما نتناول الشاي سوياً في مقهى يقع في شارع مارينغو يسيّره رابح أوقانا الذي نناديه من باب الاحترام و الألفة «عمي رابح» . و يتردد على المكان أيضاً بعض كبار مسؤولي المنظمة الخاصة ، من أمثال ماروك محمد المدعو بوسبسي وعمر بن محجوب المدعو عبد الكريم ، ويحدث في كثير من الأحيان ، أن يرفض عمي رابح تسلم النقود إذا ما أتاه مناضلون من المعوزين . أغلق هذا المقهى بقرار من الولاية لأسباب واهية . إلا أنه لم يخف على أحد أن العقوبة التي أصدرتها الإدارة الفرنسية في حق رابح أوقانا ترجع إلى تعاطفه مع عناصر الحركة الوطنية من حزب الشعب/ الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية . غيّر عمي رابح سجله التجاري و حوّل مقهاه إلى مطعم ، ولما فهم

قادة الحزب بأنه كان ضحية عاطفته إزاء المناضلين والحزب ، تضاعف عدد زبنه بفضل الإشهار الذي قام به مسؤولو الحزب .

اكتشاف المنظمة الخاصة

في مارس 1950 ، كانت مدينة تبسة مسرحاً لحادث هز الحركة الوطنية وأحدث زلزالاً أصاب كافة هياكل الحزب ، فقد حدث أن مناضلاً مسؤولاً محلياً للمنظمة الخاصة يدعى عبد القادر خياري الملقب رحيم ، أخل بواجبه ناسياً أن المناضل الملتزم داخل المنظمة مجبر بأن يبذل كل جهده ولا يستطيع أن ينسحب أبداً . وعندما تأكد الحزب من خطئه ، قرر معاقبته لعدم انضباطه . فقام بن مهيدي بتعيين فرقة يقودها ديدوش مراد ، متكونة من بن زعيم محمد وبن عودة مصطفى و بلّيلي أحمد وبخوش عبد الباقي وعجامي براهيم ، تتمثل مهمتها في التخطيط لاختطاف خياري وتنفيذ العقوبة المستحقة عليه .

غير أن ضعف التجربة في مجال الاختطافات أفشل المحاولة ، فقد فاستغل الشخص المتهم لحظة غفلة ونقص يقظة لدى مختطفيه ، واستطاع أن ينفلت من بين أيديهم ليتوجه إلى محافظة الشرطة و يبلغ السلطات عن مطارديه . بل أكثر من ذلك ، كشف عن أحد الجوانب الأكثر سرية والتي تجهلها السلطات الفرنسية ، وهو أن للحزب (حزب الشعب/ الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية) ، الحزب السياسي الشرعي ، جناحا عسكريا سريا يدعى المنظمة الخاصة (Organisation spéciale) .

والحرفان OS يدلان تارة على المنظمة الخاصة (Organisation spéciale) وتارة أخرى على المنظمة السريـة (Organisation secrète) ، إنما التسمية الأولى هي الصحيحة .

الحاصل أن الشرطة ذهلت باكتشاف وجود منظمة مهيكلة من هذا النوع ، بتفرعاتها على المستوى الوطني . أمر محافظ الشرطة «غريمالدي» بتجنيد ترسانته البوليسية لإيقاف الخاطفين الذين يشكلون بالنسبة له حلقة من سلسلة الجناح شبه العسكري . وبمجرد أن تم تحديد موقع الفرقة ، أمر بتطويق المنطقة ،

بمفرده. وجرى حديث عن حبك «مؤامرة من تدبير المنظمة الخاصة». إلا أن هذا لم يمنع الصحافة اليسارية الفرنسية، ومعها الحزب الشيوعي الفرنسي، من مساندة الحركة. وأكدت القيادة الوطنية بأن المنظمة الخاصة لم يكن لها أي أثر على الإطلاق. وإذا وردت اعترافات، فقد انتزعت بالقوة وتحت التعذيب.

هيكل شبه عسكري

لم يحمل مطلع هذا الربيع تباشير خير لهذا الجناح شبه العسكري المستقل والموازي للحزب، والذي تجسدت فكرته خلال مؤتمر عام 1947

وأثناء هذه الفترة ظهرت أولى الإرهاصات. ففور عودة مصالي الحاج من فرنسا، اجتمع في ندوة إطارات حزب الشعب، الذي لا يزال ينشط في السرية. واقترح عدد ممن حضروا الندوة إنشاء حزب شرعي، بالشكل الذي سيسمح باقتراح مترشحين للانتخابات المنتظرة، على غرار الأحزاب الأخرى المعترف بها. وتدخلت جماعة من الشباب، أكثر راديكالية، لتقترح، فضلاً عن كساء الحزب بثوب جديد، فكرة إنشاء تنظيم مسلح يعمل لتحضير الكفاح.

وقررت الندوة إنشاء «الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية» وعقدت أول مؤتمر لها في شهر فبراير عام 1947 في بلكور بالعاصمة. وكرر أيضا نفس الاقتراح الذي طرح في الندوة، أي إنشاء تنظيم شبه عسكري. وكان له ما أراد.

وهكذا أخرج المؤتمر إلى الوجود ثلاثة كيانات يرباط سرة واحد: «الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية» كحركة سياسية، «حزب الشعب الجزائري» و«المنظمة الخاصة» ترأسها على الترتيب، الدكتور لمين دباغين وأحمد بودة ومحمد بلوزداد. كان لابد، حسب وجهة نظر البعض، من المحافظة لبعض الوقت سريا على تسمية «حزب الشعب» تفاديا لإثارة غيظ المناضلين الذين ظلوا متمسكين بهذا الرمز.

علماً بأن الفارين جاءوا من عنابة. وفي مساء نفس اليوم، ألقي القبض على اثنين منهم في وادي زناتي، وأوقف الثلاثة الآخرون في الغد بعنابة. وكان الناجي الوحيد ديدوش مراد الذي تجهل هويته.

المهم أن الضربة وقعت.

اهتزت كل الدوائر الاستعمارية لهول الواقعة. محافظات الشرطة كانت تشبه خلايا نحل، واستولت على الحكومة العامة حالة من القلق والاستياء، وكل الساسة الفرنسيين راحوا يتشاورون والصحف تنشر الحدث بعناوين بارزة.

يعتبر قائد شرطة الاستخبارات العامة على مستوى العاصمة، المحافظ كوست، المسؤول المركزي لعملية المطاردة والقمع الجارية. وأمام خطورة الوضع، جاء الكولونيل شوين، قائد مصلحة الاتصالات لشمال إفريقيا (ما يقابل مصلحة المخابرات العسكرية SDECE في فرنسا) ليساهم هو الآخر بدوره.

واستولت حالة من الاضطراب والقلق على المناضلين، وصار كل واحد يسعى لينجو بنفسه. إذ لم يمر وقت طويل حتى شملت موجة من الاعتقالات كل الوطنيين المناضلين.

وراح الناجون ممن يجري عنهم البحث يفتشون عن ملاجئ في أي مكان. وسلط على الحزب قمع وحشي. وجندت كل مصالح الشرطة الفرنسية من أجل تفكيك المنظمة وإلقاء القبض على الإطارات والمناضلين في المقاطعات الجزائرية الثلاث. وفي زحمة هذه الحملة، التي ستدوم أكثر من عام، تمكنت الشرطة من وضع يدها على منفذي الهجوم على مكتب بريد وهران الذي حدث في سنة 1949.

وأعطت قيادة الحزب تعليمة للمناضلين: أنه في حالة الاعتقال، يجب إنكار وجود أي علاقة بين المنظمة الخاصة والحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية. وقام الحزب بحملة واسعة لمحاولة التخفيف من وقع الصدمة وإفشال مخططات مصالح الشرطة التي اتهمها بتدبير هذه الحيلة لضـ

و بحصول «الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية» على اعتمادها من الإدارة كحزب شرعي معترف به ، انطفأ حزب الشعب بموجب قرار اتخذته اللجنة المركزية المجتمعة في زدين (خميس مليانة) ، داخل مزرعة يملكها أحد المناضلين . فهكذا ، يكون حزب الشعب ، الذي أسس في 11 مارس 1937 وحُظر في 26 جويلية 1939 ، قد نشط عامين في الشرعية ودخل في السرية اثني عشر عاماً . وولدت من رحمه «الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية» وصار بوسع مناضليه أن ينشطوا في العلن .

و عُقد أول اجتماع لهيئة أركان المنظمة السرية في منزل محمد بلوزداد في حي القبة بالعاصمة يوم 13 نوفمبر 1947 ، ووُضعت خلاله استراتيجيتها وهياكلها وسُطر برنامج عملها . وكانت تسعى للاحتفاظ بأعضائها ، بتبنيها تنظيما خاصا من نوع «عنقود العنب» ، يقضي بأن يعرف كل عنصر زميلاً واحداً و مسؤول المجموعة الصغيرة دون سواهما ، ومسؤول المجموعة لا يعرف سوى مسؤولين اثنين لمجموعة صغيرة ومسؤول القطاع الذي ينتمي إليه .

علماً بأن المجموعة مؤلفة من مجموعتين صغيرتين ، وكل مجموعة صغيرة تضم ثلاثة أشخاص ، من ضمنهم مسؤولها . فالمجموعة متكونة من ستة أفراد .

عن هذا النظام قال بوضياف : «إن الهياكل منغلقة تماماً فيما بينها ، فكل مجموعة صغيرة تؤدي نشاطاً بمعزل عن المجموعات الأخرى ولا صلة لها بها» .

حُدد الترتيب التنازلي بالشكل التالي : هيئة أركان وطنية - إقليم - ناحية - منطقة - قسم - مجموعة . لهذا التنظيم مهمة تتمثل في التخطيط والتحضير لعملية كبيرة تغطي كامل التراب الوطني في انتظار التحضير لعمليات عسكرية . كما أنه من المقرر أن تقوم بعمل تنسيقي مع محاربي البلدان المجاورة : تونس و المغرب الأقصى .

و هكذا غادر عدد من المناضلين المختارين هياكل «المنظمة السياسية» التابعة للحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية وصار نشاطهم من وقتئذ محدداً

ضمن دائرة المنظمة الخاصة . وانفصلت المنظمتان (الخاصة والسياسية) انفصالاً تاماً عن بعضها ، وصارتا تنشطان بالتوازي ، مع قيام اتصال بينهما على مستوى القمة وهما تعملان تحت راية حزب الشعب/ ح . إ . ح . د .

وانصرف مسؤولو المنظمة الخاصة إلى العمل و نسجوا شبكة على المستوى الوطني أطروها بمخطط عمل ملائم . وهو عمل كبير تم إنجازه ولا يمكن إلا التنويه بهؤلاء المؤطرين وكل المناضلين . لا شك أن هناك نقائص في التسيير ، بما أن التعديلات مست المسؤولين في أعلى المراكز بل و حتى على مستوى بعض الفروع الثانوية ، لكن فضل المنظمة الخاصة يكمن في كونها استطاعت أن تنشط في السرية على المستوى الوطني من 1947 إلى 1950 من دون أن تتوصل السلطة الفرنسية ، بكل ما تملكه من مصالح درك و شرطة و استخبارات عامة و مخبرين ، أن تخترق السر إلى غاية ذلك اليوم المشهود من مارس 1950 حيث خذل رجل السر ، وهو مناضل وأكثر من ذلك مسؤول ، وقامت من أجله القيامة التي يعرفها الجميع .

صحيح أن شكوكاً كثيرة راجت إثر اعتقال بعض المناضلين ومصادرة بعض الوثائق ، إلا أن التحريات أدت برجال الشرطة إلى طريق مسدود ولم تتوصل التحقيقات إلى أي نتيجة ، وذلك يدل على مدى حرص المكونين في المنظمة على تطبيق قواعد السرية في الأفعال و التوثيق .

كان بوضياف من تعداد أولئك الذين نجوا بأعجوبة من الاعتقال . مثل بعض مساعديه المعينين في قسنطينة ، مثل بن مهيدي العربي وديدوش مراد ورابح بيطاط وغراس عبد الرحمان وحباشي عبد السلام ومشاطي محمد وسويداني بوجمعة وبوصوف عبد الحفيظ وبن عبد المالك رمضان وبوعلي أسعيد وملاح سليمان ومثل بعض المناضلين الذين سيتم استدعاؤهم مستقبلا ويشكلون ما يسمى مجموعة الاثنين والعشرين .

جاءني بوضياف إلى بيتي في حالة يرثى لها : ثياب رثة و ممزقة وقدمان تنزفان . وكان منهاراً معنويا ومنهكا بدنيا . بعد فراره ، كان فقد الصلة بعدد من مساعديه وأراد أن يطلع على أخبار بعضهم . أخبرته بما كنت أعلم .

مكث عندي منطوياً على نفسه لعدة أيام ، و أذنه لصيقة بجهاز الراديو ومنقباً و متصفحاً الصحافة المكتوبة ، «ليكو دالجي » «L'echo d'Alger» لو جورنال دالجي » «Le Journal d'Alger » ، «لاديباش كوتيديان» «La Dépêche Quotidienne» ، «دارنيار أور» «La Dernière Heure » ، «ألجي ريبوبليكان» «Alger Républicain » ، بحثاً عن أخبار حول المأساة التي حلت بالحركة الوطنية .

بعد مرور وقت ، أدركنا حجم الخسائر . فمن بين الاعتقالات التي وقعت ، سجلنا اعتقال مسؤولي المنظمة الخاصة : أحمد بن بلة وعلي محساس وبلحاج جيلالي عبد القادر ومحمد يوسفي وعمر بن محجوب وجيلالي رقيمي وسيد علي عبد الحميد الذي كان إطارا وطنيا في المنظمة السياسية .

كنت أعرف معظمهم ، كوني إما التقيت بهم بصحبة بوضياف ، أو أسكنتهم عندي في 45 شارع القصبة داخل دكاني .

بوضياف و « الخارجون عن الشرعية »

دفع الزلزال الذي أحدثه رحيم بقيادة الحزب إلى إقرار الحل النهائي للمنظمة الخاصة ، وأدمجت كامل تشكيلتها في المنظمة السياسية . وعُين إطاراتها ممن نجوا في المداومة كرؤساء دوائر .

بقي بوضياف في العاصمة لبعض الوقت ، من غير مسؤولية محددة ، محتفظاً بعلاقات مستمرة مع قيادة الحزب ، ولاسيما مع لحول حسين ، الأمين العام ، و سيد علي عبد الحميد ، مسؤول التنظيم الوطني ، الذي أطلق سراحه منذ مدة قصيرة ، المداومين في مقر «الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية » ، الذي لايزال حزبا شرعيا ومعترفاً به رسمياً من قبل الإدارة الفرنسية .

بعد أن ساد هدوء نسبي ، قرر الحزب وضع تقييم عام وسد الثغرات . وفي إطار هذا المسعى ، أسندت إلى محمد بوضياف مسؤولية جمع كل العناصر

المبحوث عنهم والتفتيش عن مخابئ آمنة لهم عند مناضلين اشترط أن يكونوا من المتمرسين والمخلصين والسريين .

شكل بوضياف نواة صغيرة من المناضلين انضممت إليها ، و كانت متألفة من بوقشورة مراد ومسعودي عبد الواحد ونايت مرزوق عبدالرحمان وقصاب نذير وغربي عبد القادر ومصطفى زرقاوي وأعطاهم التعليمات التالية :

- استرجاع الأسلحة والذخائر والوثائق التي بحوزة المناضلين ،
- ربط اتصالات وإنشاء صناديق بريد ،
- إحصاء أماكن إيواء .

ملجأ آمن

غادرت المحل الذي أملكه في 45 شارع القصبة ، وحططت الرحال في محل أوسع في 6 شارع بربروس في سيدي رمضان بأعالي القصبة ، ولم أكن أتصور حينها أن هذا المحل سيصبح في يوم ما ملتقى لكل من كانت تضمهم الحركة الوطنية من قادة و مسؤولين و يكون مسرحاً لمداولات تاريخية سوف تقرر مصير شعب بأكمله . و سنتعرض فيما بعد بإسهاب لكل ما جرى في ثناياه . كان لهذا المحل مدخلان ، الأول يؤدي إلى شارع "كتاروجيل "(قطاع الرجل) و الثاني إلى شارع "بربروس" . وهذا الموقع ملائم تماماً لإيواء الفارين ويتيح للمطاردين إمكانية التسلل بسهولة في حالة دخول الشرطة (يوجد المحل بمقربة من مستشفى آيت إيدير حاليا) .

سمح لنا الاندماج من جديد في المنظمة السياسية ، بعد حلّ الجناح السري (المنظمة الخاصة) في عام 1951 ، بإعادة ربط الصلة برفاقنا القدامى الذين ينشطون في دواليب الحزب ، حيث أنه أعيد فتح المجال . فجاءت تعليمة من قيادة الحزب توصي بتكليفنا بمسؤوليات ، سواء داخل لجنة مساندة ضحايا القمع ، أو في تأطير الجمعيات والمنظمات التابعة لها أو التي توجد تحت الوصاية السرية للحزب ، وأخص بالذكر هنا حركة الكشافة الإسلامية ، التي ستصبح منبتاً للمناضلين و كانت بالنسبة لنا أول مدرسة في الوطنية ، وكذلك جمعية

الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا والمدارس الحرة والمنظمات النقابية والمنظمات الحرفية مثل الخبازين والخضارين ، وحتى بعض فروع الكنفدرالية العامة للعمال سيما فرع عمال ميناء العاصمة ، حيث أن عددا كبيرا منهم مناضلون مهيكلون ، مع أن كنفدرالية العمال محسوبة على الحزب الشيوعي الجزائري ، كما هو معلوم .

كان بوضياف كثير النشاط و دائم الحركة في وظيفته الجديدة ، ولا يتقاعس في حل جميع المشاكل المتعلقة بإيواء المناضلين لوقايتهم من ويلات الشرطة. بعض هؤلاء الرجال معروفون لدى مصالح الأمن ومبحوث عنهم ، ولم يبق لهم متسع للتحرك ، مما يفسر الدأب الذي استمر عليه بوضياف . وظل يعمل جاهداً حتى يعثر على الحذاء الذي يناسب كل عنصر حائر أو يعاني من بعض المشاكل مع مسؤوليه المحليين ، كما يحصل في بعض الأحيان . وكان الحزب يسمي هؤلاء «الخارجون عن الشرعية» .

ميّز المرحلة التوتر والقلق . إذ لابد من إيواء كل الهاربين . وجد عدد كبير منهم في الأرياف ، ملاذاً لدى مناضلين يشتغلون في الفلاحة عند المعمرين . وكانوا يُسكنون زملاءهم في مستودعات الحصيد أو في السقائف التي لا يدخلها صاحب المزرعة . لم يكن الأكل متوفراً بشكل منتظم وليس متاحاً على الإطلاق تبديل اللباس ، ولا رؤية الأهل ، وباستطاعتنا أن نتصور المعنويات التي كان عليها هؤلاء الوطنيون . ولم يكن الإيواء عند أهل الحضر دوماً مريحاً . يعيش اللاجئون مع الأسر المضيفة لكنهم لا يجدون في أوساطها كل راحتهم . تصوروا أنه في الأحواش ، مجرد الذهاب إلى بيت الخلاء يعد مشكلة لأنه لا توجد عادة سوى بيت خلاء واحدة وعين ماء واحدة لكل الأسر التي تعيش في نفس الحوش . ماذا بوسع الضيف أن يفعله في هذه الحالة ؟ فضل البعض مغادرة مأواهم لأن ظروف العيش فيها لا تطاق . وللأسف كان المضيف في بعض الحالات قلقاً (هل يرجع ذلك إلى الخوف؟) ويملي السلوك على من هو مكلف بحمايتهم ورعايتهم . هي حالات نادرة ، لكنها حقيقية . كان بوضياف يسجل كل ذلك و لكنه في بعض الأحيان يبدو عاجزا لأن إمكاناته محدودة .

كان يمارس علينا (مراد بوقشورة وأنا) ضغطا مستمرا لكي نجد المزيد من الملاجئ و نختار المناضلين الذين لا يمكن أن يسببوا مشاكل . وروى لنا بوضياف أن أحد اللاجئين جاءه ذات يوم مستشيطاً من الغضب ، يشكو له من مضيفه الذي لم يسمح لأحد بالسعال ليلا . وتوجد حالات عديدة مشابهة ، لكن بصفة عامة ، كل الذين قبلوا إيواء إخوانهم تصرفوا كمناضلين مطيعين لأوامر الحزب . لم يستطع العديد منهم توفير المأكل و المشرب بسبب عوزهم . فالفقير يأوي الفقير وكلاهما يشقيان . لم يكن الحزب يساهم ماليا .

في عام 1952 ، تمكن محمد خيضر المدعو سيد علي ، وهو واحد من الذين شاركوا في الهجوم على مكتب بريد وهران و كان دوره كسائق تحت إمرة بلحاج بوشعيب المدعو سي أحمد ، رفقة سويداني بوجمعة وحداد عمر المدعو «زيو بلو» ، تمكن من الفرار من سجن وهران . أثار نبأ فراره ضجة كبيرة وشرع رجال الشرطة على الفور في اقتفاء آثاره ، مجندين ترسانة ضخمة . ولم يستطع البقاء في وهران فقرر الالتحاق بالعاصمة سيراً ، لأن القطار والحافلات كانت تحت المراقبة البوليسية .

عند وصوله إلى العاصمة ، خلقت حالته مشكلة لقيادة الحزب التي وجهته إلى بوضياف . تلقى هذا الأخير توصية بأن يضع خيضر في مكان آمن تتوفر فيه جميع ضرورات الحياة حتى لا يفكر في الخروج . تردد بوضياف قليلاً قبل أن يوكلني هذا المناضل الكبير مع العلم أنه كان يسكن في نفس الحي الذي أسكنه وأنه معروف لدى الجيران . أعطاني بوضياف مهلة للتفكير وترك لي حرية اتخاذ القرار . لم يسمح لي ضميري بأن أرفض إيواء مناضل وطني من طراز محمد خيضر . لم يكن عليّ إلا أن أطيع أوامر الحزب وأؤدي واجبي كمناضل . لم يكن بوضياف يدري بأني أعرف خيضر وأنه كانت لي معه علاقة في تنظيم فرعنا بوساطة من حميد عادر . هذا الأخير هو الذي امتحنني لقبولي في الجناح شبه العسكري للمنظمة الخاصة .

قبلت إذن بإيواء خيضر وأنا واع بكل المخاطر التي قد يسببها وجوده بيننا ، ومنها أن المكان قريب من حانة يسيرها شخص يدعى موح الصغير (Petit

Moh) ، وهو مُخبر معروف يزود بأخباره أحد قادة الشرطة التابعين للدائرة الثانية في القصبة ، و يدعى روجي . كما توجد حانة أخرى في نفس الحي يملكها عمر البياع ، مخبر آخر يتعامل مع الشرطة القضائية تجده دائماً واقفاً على عتبة حانته متجسساً على الجميع .

كنت أسكن و أعيش في حي يرتاده رؤساء عصابات الناحية ، مثل الإخوة حميش ، والإخوة بوزومبو والإخوة كربالي وغيرهم من الأشرار . لكن من بين الذين تبين ضررهم بالقضية الوطنية بلا منازع بعبوش ، الذي انخرط في أول الأمر في صفوف جماعات الفداء ، ثم ارتد وصار في خدمة مظليي ماسو وصار يشي بالناس ويتولى شخصياً تعذيبهم . وبالإضافة إلى بعبوش نجد عبد القادر رفعي المدعو «بود أبوط» تاجر بغاء من الصنف الرديء ، الحاقد على الفداء. هذان المخبران سيلقيان حتفهما على يد علي لابوانت .

كانت علاقتي بكل هؤلاء طيبة . كان واجباً علي كمناضل ، أن أتحلى بسلوك مهذب و محترم . إذ عرفت كيف أتكيف مع الوسط و أسلك معهم سلوكاً لا يقبل الطعن . مما دفع بهذه الحثالة إلى معاملتي بنوع من الاحترام ، بل وعاد ذلك بفائدة على مهنتي كخياط . وهكذا كان من بين زبائني مصطفى حميش ، رئيس عصابة القوادة في العاصمة .

لم يكن وجود محلي في مكان تتردد عليه فئة غير محبذة في المجتمع مصدر ضرر . لا عراك ولا تدخل للبوليس ، بحيث أن محافظة الشرطة قريبة جداً . فأصحاب هذه الأوساط يتفادون أية حوادث على مقربة من مركز الشرطة ، الأمر الذي ألهم بوضياف هذه الفكرة التي لا تخلو من المنطق : «إن أفضل ملجأ هو الملجأ الواقع قاب قوسين أو أدنى من الشرطة ، بما أن محافظة الدائرة الثانية قريبة جداً من منزل عيسى» .

و وجد بوضياف و بن مهيدي و ديدوش راحتهم في دكاني . فالقاعة الخلفية تتوفر على كل الضرورات ولم يملّ المطاردون الثلاثة العيش فيها . كان في متناولهم جهاز راديو و يطالعون الصحف يومياً . واشتغلوا بكل راحة

واطمئنان . ساعد هذا الجو بوضياف كثيراً و حثه على متابعة مراسلاته وإعداد تقاريره الشهرية للحزب . كل الظروف كانت إذن مواتية له ليتأمل في مصير الحزب و مصير الأمة .

أحياناً كان يوقظني في منتصف الليل و يدعوني إلى جولات في الخارج . ينطلق في الحديث عن القضايا الساخنة المتعلقة بالأحداث السياسية وبالحركة الوطنية والوضعية الاجتماعية الداخلية . ويتأسف لأحوال الشعب والبؤس الذي يشتى فيه المواطنون ، مركزاً على حال سكان الأرياف التي يبدو أنه درسها دراسة دقيقة ، وينتقد بشدة النظام الكولونيالي الذي همشهم وشردهم . «إنهم يعيشون في القرون الوسطى ، يجب أن تتغير الأوضاع» . وعندما يتكلم عن الشباب ، تتغير لهجته العذبة وتتحول إلى لهجة أخرى منقبضة ، ويثور قائلاً : «ماذا سنترك لهؤلاء الشباب؟» .

تخال أن كل أبناء الجزائر أبناؤه . ويردف قائلاً : «يجب أن تتغير الأوضاع» كان يؤمن بذلك إيماناً عميقاً و كان ما يتمناه أن تتجند كل الجماهير وراء حزب قوي ، منضبط وعادل وأبي . ويتحدث بشوق عن القيم الأخلاقية التي يتميز بها الشعب وعاداته و تقاليده . وكان واثقاً أشد الوثوق من أن الشعب الجزائري قادر بالتأطير الجيد ، على صنع المعجزات بعد اضطهاد دام زمناً طويلاً سيكسر قيود الاستعمار وقادر على تقرير مصيره بيده . يكفي أن يفتح له المجال ليقوم بثورته.

إلــتــزامــي

بينما كنت أصغي لما يقوله بوضياف ويحكيه عن أوضاع الجزائريين سياسياً واجتماعياً ، فإذا به يفاجئني وهو يسرد حياتي بموضوعية ، هو الذي لم يعرفني من قبل . ذكّرني بفترة دراستي ابتداء من سنة 1934 التي قضيتها في مدرسة للأهالي كان قسم هام من التلاميذ يأتونها حفاة . وكلّمني عن آثار الحرب العالمية الثانية التي عانى الجزائريون من تبعاتها ودفعوا فيها ثمناً غالياً من التضحيات : البؤس ، توزيع الأغذية بالتقسيط ، بطاقات التموين بالمواد الأساسية ، استفحال ظاهرة التقشف والندرة التي زادت من انتشار ممارسة السوق السوداء وعواقبها

الوخيمة على الأسر ذات الدخل المحدود . فإذا كانت بعض العائلات الميسورة الحال ، وهي قليلة جداً ، تتحصل على بعض المواد المحظورة ، فإن أغلبية السكان في باتنة ، حيث كنت أسكن وقتها ، كانت تعيش في فقر مدقع .

في باتنة ، نسبة عالية جداً من الجزائريين كانوا خلال النصف الأول من الأربعينيات من دون شغل ومن دون مصادر رزق . أمام دار البلدية ، كل يوم تشاهد طوابير غير منتهية من الناس الذين يسجلون أنفسهم لدى مكتب المحتاجين على أمل الحصول على بعض الفتات . كان مشهداً مثيراً للشجن . هناك أرباب عائلات ، ممن مُست كرامتهم ، يخجلون من رفع رؤوسهم . وتراهم يدفنون القليل من الحياء الذي بقي لهم . فهؤلاء الرجال الذين يحرصون عادة على ستر فقرهم ، لم يبق لهم سوى أن يتخطوا حدود كرامتهم والخوف من كلام الناس ، على أمل أن يحصلوا من المكتب الخيري على ما يسُدّ رمق أولادهم (الصدقة) .

وسوف يبقى في ذاكرتي مدى حياتي ما سمعته عن أبي وهو يقول لأمي : «أنا أشقى كثيراً لأضمن عيش أولادي» . لم يكن يراني ، وقد اطمأنت نفسي لذلك .

لم تتحسن أوضاع الباتنيين بانتهاء الحرب العالمية الثانية . بل تتابعت المآسي ، فوباء «التيفوس» وحده قتل المئات من المواطنين من كل الأعمار . فالناس لا يتوفرون على أدوية ولا حتى على مواد تنظيف صحية . هذه الفواجع المتلاحقة جعلت الكثير من الجزائريين يفكرون ويشيرون بأصابع الاتهام إلى النظام . وبذلك لم يعد مجال للاستغراب من تطلع الجماهير والتفافها حول الثورة متى اندلعت ، وسيشكل هذا الالتفاف البؤرة الوطنية الأشد ضد السلطة الفرنسية .

وفي يوم أول نوفمبر ، خرج البراح العمومي عمي شنيتي إلى الناس وهو يطبل في أحياء «السطا» «Stand» و«المعسكر» و«لافردير» والقرية الزنجية «الزمالة» ، وبعد الانتهاء من دق الطبل ، قرأ البلاغ التالي : «بلاغ إلى السكان : ينهي رئيس بلدية باتنة إلى علم السكان بأن التجول يحظر ابتداءا من اليوم ، من الساعة التاسعة ليلا إلى غاية الخامسة صباحا» . وسأله أحد المارين قائلا : «ماذا

جرى ؟» ، فرد عمي سعيد قائلا : «القيرة ، الثورة» . عرفت باتنة يومها حظر تجول دام سبع سنوات ولم يرفع إلى غاية يوم 19 مارس ، سبع سنوات ونصف بعد ذلك . نعم ، أخبر عمي شنيتي بقيام الثورة ، وكل الناس في باتنة هللوا للفاتح من نوفمبر .

احتل الجيش مدرستنا وحوّل التلاميذ إلى بناية تنعدم فيها أدنى المرافق الضرورية ، لا تشبه مدرسة و لكن داراً للحضانة . في نفس البناية يوجد مقر الإسعاف الشعبي ، فتصوروا الضجيج والإزعاج الذي تحدثه حركة الذهاب والإياب غير المنقطعة .

ومع ذلك كنت تلميذاً نجيباً في هذه المدرسة ، واجتهدت للنجاح في دراستي ، لأن الدخول إلى المدرسة الابتدائية الثانوية يفرض على التلاميذ الجزائريين النجاح في امتحانات الشهادة الخاصة بالأهالي وبالأوروبيين معا . ووالدتي التي تدللني ، أحبت أن تراني أدخل هذه المدرسة ، وكذلك والدي الذي ألحقني بإحدى المدارس الإسلامية وضحى كثيراً من أجل أن يخصني بدروس إضافية على يد مدرسين مدفوعي الأجرة .

كانت وسيلة تسليتي الوحيدة في مرحلة صباي لعبتي الكريات وكرة القدم مع أترابي في الحي . أحياناً ، و في فصل الصيف أذهب معهم إلى الوادي ونسبح في المكان المسمى «بون مورا» حيث نجد فتياناً آخرين من الأحياء الأخرى . كنا نغطس بالتناوب وفي شكل مجموعات على مساحة لا تتعدى ثلاثين متراً مربعا ، وكان أكثرنا تهورا يغامر بنفسه ويصل إلى مكان بعيد أخطر نسميه «لنترا» تقع فيه حفرة أطلقنا عليها اسم «المهراس» (أي الدوامة) . وبعد الانتهاء من السباحة ، يلقي كل واحد منا ، بالطريقة الطقوسية المعمول بها ، بكلمته السحرية حول «جائزة الماء» .

عندما كنا أطفالا ، كانت لدينا شفراتنا وطقوسنا ولغتنا . كنا نلعب لعبة «السو» : هي باقة من الحشيش نرميها بضربة قدم إلى ارتفاع حوالي خمسة عشر مترا و نحاول منعها من السقوط ، والذي تحسب له أكبر عدد من اللمسات يكون هو الفائز . وكنا نلعب أيضا لعبة «الكيني» بين فريقين : قطعتان من

الخشب مقطوعتان من قضيب مكنسة ، طول إحداهما من أربعين إلى خمسين سنتمترا والأخرى عشرة سنتمترات . تستغرق هذه المباريات عدة ساعات . هي طفولة تشبه طفولة غيري من الأطفال ، ديكور تسليتها الوحيد يتمثل في البيت والشارع ، أي تقريباً في لا شيء .

شرعت في البحث عن هواية حقيقية تشغلني ، فبدأت أتعلم حرفة الخياطة . وفي عام 1942 ، انخرطت في حركة الكشافة الإسلامية الجزائرية بتوجيه من أخي الأكبر ، وانضممت إلى فرقة «الرجاء» التي كان يرأسها رودسلي مصطفى الذي يشغل منصبي محافظ محلي ومحافظ جهوي للإقليم القسنطيني في نفس الوقت ، وفي الفرقة أدمجت في دورية «النسور» ضمن المجموعة التي يشرف عليها الجامعي الشاب مصطفاي محمد الصغير الذي يسكن في باتنة ، وسيتولى إدارة البنك الجزائري في الاستقلال .

فتحت لي ممارسة الكشافة عيني وساعدني اطلاعي على أحداث تلك الأيام على فهم مأساة والدي والباتنيين وباقي الجزائريين بصفة عامة . لم تكن هذه المأساة وهذا الشقاء من فعل القدر ، بل هي نتاج نظام قائم مستبد .

في فرقة الكشافة عرفت بأن أسلافي ليسوا «غولوا» «Gaulois» (نسبة إلى بلاد الغال فرنسا) ، وعرفت أيضاً بأن بلادي الجزائر محتلة من قبل الأجانب منذ سنة 1830 ، وصودرت ممتلكات سكانها الأصليين ونهبت ثرواتهم الأرضية والباطنية ، وعرفت أيضاً بأن سبب كل آلامنا شيء اسمه فرنسا ، وعرفت أخيراً بأنه لا يجب الاستسلام أبداً .

وفي سنة 1944 ، كلف الحزب ماضوي الطيب ، وهو مناضل شاب ونشيط في حزب الشعب وموظف لدى مكتب محام ، بالاقتراب من الشباب . فأدى دوره على أحسن ما يرام ، فوجّه الفتيان نحو نشاطات كشفية ورياضية وثقافية وسياسية وتمكن من جمع عدد كبير من الشباب حوله وينشئ فريق أواسط لكرة القدم داخل النادي الرياضي الجزائري ، النادي الرياضي الباتني (CAB) الذي كان لمسيريه ميول وطنية معروفة لدى العام والخاص . وكان يضم في صفوفه

الجزائريين فقط ، وصار خصما عنيدا للنادي الثاني في المدينة «الجمعية الرياضية» (ASB) وهو فريق متكون من الفرنسيين ويشرف عليه رئيس البلدية . ومعروف عن رياضة كرة القدم أنها تعتبر عاملاً من عوامل التماسك الاجتماعي ، إلا أنه في باتنة ، لكل واحد معسكره : العرب من جهة مع «الكاب» والفرنسيون من جهة أخرى مع «الآ أس بي» . يتعايش الصفان مع بعضهم ، ويتعارفان ويتحدثان ، لكن لا أحد يلمس الآخر ، لا يوجد حقد بيننا لكن مسافة مئات الأميال تفصل بيننا ، ففي البيوت ، تنتظر النساء والأمهات كل يوم أحد نتائج المباريات ويسألن دوماً نفس السؤال : «هل العرب هم الذين فازوا؟» .

وحان وقت ، أوقف النادي الرياضي الباتني فيه نشاطه ليعطي العديد والعديد من اللاعبين والمسيرين لجيش التحرير ، من أمثال قليل وبوعبسة وخلافنة وسفوحي وشنوف وبوعبد الله وعبد الكريم فتح الله والقائمة طويلة . ولم يعد العديد منهم فقد سقطوا في ميدان الشرف .

كانت سنة 1944 في باتنة حافلة بالأحداث ، أعادت خلالها المدينة نسج روابط التكافل والأخوة .

و كان هناك سبب لهذا الحماس الفياض : لأول مرة ، توصلت الأحزاب السياسية الجزائرية ، التي كان يغني كل واحد منها على ليلاه ، إلى أن تلتقي وتتحاور وتتحد في حركة واسعة ستعرف باسم «أحباب البيان والحرية» تضم ، فضلاً عن فرحات عباس ، كلاً من حزب الشعب ومنتخبي المؤتمر وجمعية العلماء ، وستسمح لمواطنين بعيدين عن السياسة من الانخراط في الفصائل المشكّلة لهذه الفسيفساء . وقد وجد كل واحد ضالته .

في زحمة هذه الانطلاقة الواعية والمسؤولة ، استطاع حزب الشعب أن يحصد الرقم القياسي في طلبات الانخراط بفضل نشاط مناضليه الذين عرفوا كيف يستقطبون المناصرين ، بمخاطبة الناس في المقاهي الشعبية وتوجيه الدعوات للأصدقاء لحضور جلسات في دار الكشافة تخصص للحديث في القضايا السياسية وليس عن الكشافة ، وفي الأسواق ، ترى بعض العناصر الشجاعة ،

وفي مراسلة للحكومة العامة مؤرخة في 14 جوان 1945 ، ورد أن «الإدارة تتهم الكشافة الإسلامية الجزائرية التي نظمت استعراضاً لفرق باتنة ومالك ماهون (عين التوتة) والقنطرة رددت خلالها نشيد حزب الشعب ، وقد أوقف رئيسها زاوية عبد القادر» . ويتعلق الأمر في الحقيقة بزاوية لخضر .

وفي عام 1946 ، دعي الشباب بصفتهم مناضلين مهيكلين ، لحضور اجتماع هام في محل كائن بساحة «آربيون» كان ملكاً للعبيدي محمد الطاهر المدعو الحاج لخضر (الذي سيتولى قيادة الولاية الأولى) ، وقد ترأس هذا الاجتماع محمد بلوزداد المدعو سي مسعود الذي جاء من العاصمة مرفوقاً بعمر بوجريدة ، أحد مسؤولي منطقة قسنطينة .

قام سي مسعود بعرض الوضع السياسي عبر الوطن وأبلغ الحضور بالمستجدات وأعطى توصيات بناء على ذلك .

لقد أتاح لي هذا اللقاء بتكوين فكرة عما يجري من أحداث في البلاد ، وأدركت بأن الجزائريين أينما كانوا في الهمّ سواء ، فالبؤس في العاصمة هو نفسه البؤس في باتنة .

رحلت إلى تونس و استقررت فيها لتعميق معارفي في الخياطة ، و اندمجت بسهولة في أوساط الجالية الجزائرية المشكلة جزئياً من طلبة الجامعة الإسلامية «الزيتونة» ونشطت رفقة مناضلين والتقيت في إطار تنظيمي بعبد الحميد مهري ومُساعديه أحمد مرازقة ومولود قاسم وتركي شباطة واسمه الحقيقي مبارك ماضي من بلكور .

وفي تونس ، التحق بي حميد بوضياف وعبيدي محمد الطاهر المدعو الحاج لخضر وبلقاضي محمد ، وكانت رغبة هذا الأخير الالتحاق بالمتطوعين المتوجهين إلى فلسطين ، فاندمج في مجموعة من التونسيين والمغاربة وذهب إلى المشرق .

في علم الطبوغرافيا ومنهجية قراءة الخرائط التي تعدها هيئة الأركان . بالإضافة إلى أننا نقوم بالتدرب على الاشتباكات وعلى السير في الأراضي الجرداء والغابية وذات التضاريس الوعرة .

وعبر هذه الدروس المتمحورة حول الكفاح المسلح ، يتلقى مناضلو المنظمة تعليماً خاصاً بمعرفة الحيل البوليسية وكيفية التصدي لها . ويتم التركيز على طرق درء كل أشكال الضغوط البدنية والنفسية . ويهتم المؤطرون بهذه النقطة الأخيرة لتفادي انقلاب العناصر غير المتمرسة أو غير المدربة التدريب الكافي .

طبيب . . حكيم . . خالي ...

كان بوضياف شغوفاً بالمطالعة ، ويردد في عدة مناسبات : «طردونا من المدارس ، لكنهم لا يستطيعون منعنا من التعلم» . وكان يحمل معه دائماً كتاب جيب ، ولم تكن الآداب العالمية غريبة عنه ، وكلما انتهى من قراءة كتاب أعجبه ، يعلق عليه أو يحث أصدقاءه على قراءته ، وإذا لم تتوفر لديه نقود للشراء ، استعار من مكتبة البلدية مستعملا «بطاقة قارئ» لصديق له يعمل بها ، وكان بوضياف كثير النقد للمكتبة إذ يعتبر محتوياتها موجهة وعفا عنها الزمن ويقول أن إصداراتها الجديدة نادرة .

وصحبته تعلمت كثيراً فخلال جولاتنا الليلية المتكررة يروي حكايات بأسلوب مشوق ممتع يجعلني أستزيد الإصغاء إليه إذ يتميز بخصب الذاكرة بدليل تذكره لعناوين الكتب ومؤلفيها وأبطال الروايات كما يتذكر تفاصيل المغامرات ويضع نقداً لكل نص ، وإذا حدث أن كرر نفس السرد في يوم من الأيام فيورده كاملا غير منقوص .

وكانت المناقشات التي تجري في دكاني الخلفي لا تنتهي ، أذكر مناقشة تناولت قضية المنظمة الخاصة ، أبدى فيها بوضياف أسفه لأن الحزب لم يثر نقاشاً حول المسألة ، أما بن مهيدي فلم يقبل مواقف الحزب الرافض لإحيائها ، وذكّره بوضياف بأن تأسيسها تقرر أثناء المؤتمر . صحيح أنه ليس من السهل مناقشة فكرة بهذه الأهمية داخل الهياكل في الظروف العادية ، إلا أنه بالنظر إلى

السخط و حالة الاستياء السائدة لم يبق لقادة الحزب سوى أن يعيدوا المنظمة إلى النشاط ، وإذا بقوا مكتوفي الأيدي فعلى حساب مجموع الحركة الوطنية . وقد أبى المناضلون الذين انخرطوا على أساس برنامج خاص محوَ إطارٍ سبق إن انسجموا فيه وكافحوا من أجله .

ويستمع بن مهيدي بإمعان للتحاليل التي يعرضها بوضياف حول المشاكل العويصة المطروحة ، مقتنعا بها ، وهو المفتون بفصاحته وبلاغته وكان يناديه احتراماً باسم «طبيب» ، ويبادله بوضياف الشعور مناديا إياه «حكيم» . وأما بن بولعيد ، فكان بن مهيدي يناديه «خالي» .

تبين هذه الألقاب مدى العلاقة الحميمية التي تربط الرجال الثلاثة . وكانوا جميعهم يحبون الشاب المتحمس ديدوش مراد الذي كان دائماً متطوعاً ويأتي مراراً ليبلغهم بكل ما يفعل . نادراً ما كان ديدوش يقيم عندي وهو يتحرك دوماً وعلى علاقة بالمناضلين إذ كان شغوفاً بالاتصالات ومصرا على التعبير عن رأيه وإقناع محدثيه .

ذات يوم ، وفي حدود الساعة الرابعة صباحاً ، جاء يدق على الباب ، فخرج ابن أخي عبد الله يفتح له لكنه لم يتعرف عليه إلا بصعوبة ، لأنه كان بزي الفلاحين . كان القلق بادياً على مراد الذي كنا نناديه عبد القادر .

بعدما تناول قليلاً من الطعام ، روى لنا المغامرة التي عاشها في المدية فقد أوقفه دركيان ، وفي الطريق نحو مقر الدرك تمكن ديدوش من خلع قشابيته والإطاحة بهما ، ولاذ بالفرار بعدما نزع عمامته متجها نحو العاصمة التي قدم إليها راجلاً ، وأصيب بإسهال أطرحه الفراش ، وحكى مغامرته بعد ذلك لبوضياف الذي طلب منه عدم التحرك لمدة يومين أو ثلاثة أيام ، أتى له عبد الله بالدواء وصاحبه بن مهيدي إلى الحمام . اعترف لي بعد ذلك بأن الخوف لم يساوره لحظة العملية وإنما خاف لما سيأتي بعدها .

في نفس اليوم ، زارني سويداني بوجمعة المعروف باسم سي جيلالي ، يتفقد الأحوال وسألني أين يمكنه أن يلتقي بوضياف ، فخرج هذا الأخير من خلف الدكان مبتسماً بعد أن تعرف على صوته ، فعانق سويداني الذي كان يرتدي

عمامة و قشابية و قال : «اليوم أهل الريف كلهم نازلون عند سي عيسى» . أخبرناه بما وقع لديدوش وعن قصة اللباس الذي قدم به ، وأثناء الحديث ، علمنا بأن سويداني جاء بسيارة «بانهارد» «Panhard» من غير أوراق فنبهه بوضياف بكل مودة إلى قلة يقظته وذكّره بكونه محكوماً عليه بالإعدام غيابياً وبالخطر الذي يحدق به وهو يمشي دون أوراق السيارة ، ومعروف عند بوضياف صرامته عندما يتعلق الأمر باليقظة ، ورد بوجمعة قائلاً : « لن يوقفوني ، أنا كشاف وأعرف كيف أموّههم» ، تركتهما لوحدهما وانصرفت إلى عملي .

الوضع المتأزم الناجم عن تفكيك المنظمة الخاصة دفع الحزب إلى تكثيف نشاطه السياسي فضاعف من تنظيم التجمعات التحسيسية ونظم حملة دعاية في الأماكن المغلقة : المقاهي والمتاجر ونوادي الجمعيات ، وزاد من توزيع المناشير ونشر عناوينه الصحفية : «ألجيري ليبر» بالفرنسية و«المنار» بالعربية ، لكن هذا لم يكف لتهدئة حيرة بعض المناضلين و استيائهم ، فموجة السخط بدأت تتصاعد ، وأدت بعض مؤشرات سوء التفاهم بين بعض تيارات الحزب إلى بروز ملامح أزمة ستهز إطارات الحزب وستنعكس بشكل أكيد على القاعدة النضالية .

فوسط هذا الجو المتعفن تم تحويل محمد بوضياف إلى فرنسا في أواخر 1952 ، وفهمنا قرار قيادة الحزب كإجراء عقابي غير معلن ، إذ لم يعد بوضياف على نفس الخط مع المسؤولين في القمة ولم يهدف من وراء إبعاده عن الوطن سوى عزله وتحييده عن رفاقه الذين كان في اتصال دائم معهم . وبعد مرور أسابيع ، التحق به تباعاً ديدوش مراد ثم غراس عبد الرحمان وبعده حباشي عبد السلام الذي تم استدعاؤه من الأوراس حيث كان لاجئاً لدى عرش الشرفه .

أما باقي من كانوا محل بحث من قبل السلطات فحُوّلوا إلى مناطق شتى عبر الوطن و لاسيما إلى الإقليم الوهراني .

ثـوار الأوراس

أعتقد أن العلاقات الحميمية التي ربطت بوضياف بمصطفى بن بولعيد بدت مشبوهة لمسؤولي القيادة ، مما أدى إلى قرار إبعاد سي الطيب . صحيح أن بن بولعيد كان يزور كثيراً بوضياف في الفترة الأخيرة رفقة مُساعده سي مسعود بلعقون وهو مسؤول في منطقة الأوراس وشخصية محترمة ، وكان هؤلاء يناقشون الوضع السياسي لساعات طويلة ويتطرقون لمشكل هياكل المنظمة الخاصة في الأوراس التي لم يمسها قرار الحل بخلاف المناطق الأخرى ، لقد احتفظ بها لأن الشرطة لم تعتقل أياً من أعضائها بسبب صعوبة التوغل في الغابات الكثيفة ، فمرافق الاتصالات وطرق مرور السيارات تكاد تكون منعدمة والدروب قليلة جداً والتضاريس الصعبة محبطة لعزيمة الشرطة والدرك ، مما يفسر سهولة تحرك المجاهدين الأوراسيين دون أدنى خوف . ومع ذلك كانوا لا يستهينون أبداً بالقواعد الأساسية للنشاط السري ، أضف إلى ذلك تنامي روح الأخوة بينهم في كل الظروف ، السارة منها والضارة ، يؤمنون بغاية واحدة هي الكفاح في سبيل التحرير ويقتسمون الرغيف الواحد وينامون في الكوخ الواحد ويحاربون العدو الواحد ، فهم إخوة متعاضدون مثل البنيان المرصوص ، إذ لم يعد من اللائق فك روابط التضامن والتعاضد هذه ، ولهذا لم يُقدم بن بولعيد على حل المنظمة الخاصة في جبال الأوراس وباتنة ، إذ لم ينصع لأوامر القيادة الوطنية للحزب وأبقى على نشاط الشبكة باتفاق مع بوضياف ، والجدير بالذكر أن سي مصطفى لم يدخر جهداً من أجل رعاية هؤلاء المجاهدين الرواد وهذا بفضل كرم وسخاء سكان الأوراس .

أكثر من ذلك ، تدعمت هياكل المنظمة ببعض مجاهدي جرجرة الذين لم يطيقوا البقاء ببلاد القبائل بعد اشتداد حملة القمع على الوطنيين ، بحيث أعطى بن بولعيد موافقته ، باتفاق مع الحزب ومع كريم بلقاسم ، لاستقبال الإخوة القبائل والتكفل بهم ، واستطاع أن يقوم بذلك بعد عودة السلم بين الأعراش الشاوية . مما يُحسب لبن بولعيد ، ولا أحد ينكر ذلك ، كونه استطاع أن ينشر جواً من الهدوء والسكينة بين سكان الأوراس ووسط أعراش تسودها تقاليد

الثأر على الطريقة «الكورسيكية» وتعيش في تناحر دائم ولقد دفعتها المناوشات المتكررة إلى التسلح ، وعرفت المنطقة حالات «دفع دية» كثيرة . فوحدها بن بولعيد ضد عدو واحد هو الاستعمار ، مصدر آلام المجتمع الشاوي بوجه خاص .

« إذا كانت قبائلنا تتناحر فيما بينها . فمن المتسبب في ذلك؟ إنه الاستعمار الذي أنتج الفقر والبؤس والتخلف . فلنتحرر من هذا الوحش عوض أن نتقاتل من أجل أشياء تافهة ، ولنبن لأولادنا وللأجيال القادمة مستقبلاً من الحرية لا نتخاصم فيه من أجل عين ماء أو قطعة أرض صغيرة» .

لم يكف سي مصطفى عن التنقل بين الدواوير وبين المداشر ليلتقي بالعقلاء والشيوخ والمتشددين ليشرح لهم ويهدئهم ثم يقنعهم . وقد أثمر تفانيه الذي بفضله توصلت الأعراش كلها إلى طي صفحة العداوة القديمة وتعاهدت على تبادل «الأمان» ، وصار بإمكان الأسلحة التي بحوزتها أن تصلح لاستعمال آخر غير الثأر . وفعلاً ، تمكن بن بولعيد من استرجاع كمية هائلة منها يوم أن طلبها.

صحيح أن القبائل في إبائها وتمسكها بشرف الثأر ترد على كل ضربة بضربة . لكن كلما هدد خطر خارجي قبيلة ما ، أسرعت القبائل الأخرى لنجدتها متناسية خلافاتها متحدة في جبهة واحدة ضد العدو الخصم . هذه الحساسية الشاوية عرف بن بولعيد كيف يستغلها ويوجه اهتمام الأعراش كلها إلى الكفاح ضد النظام الكولونيالي .

لقد احتضنت الأوراس الفارين من السجن المدني بعنابة . من هؤلاء زيغود يوسف وبن عودة مصطفى وبركات سليمان وعبد الباقي بكوش . وتلاهم رابح بيطاط وخضر بن طوبال وعبد السلام حباشي الذين استقبلهم يونس بوشكيوة مسؤول قسمة آنذاك . وعبيدي محمد الطاهر المدعو الحاج لخضر وحميد بوضياف الذين كانوا إطارات في منطقة الأوراس ومساعدين لبن بولعيد.

اتخذ بن طوبال ملجأ له في دوار زلاطو ، عند عرش بني بوسليمان من 1950 إلى 1952 . ثم التحق بكوندي سمندو ومكث هناك من 1952

إلى 1954، أما بيطاط فأوكل لعرش التوابة في تكوت، وحباشي آواه عرش الشرفة، وأقام بن عودة في ضيافة عرش السراحنة .

قطاع طرق شرفاء وثوار

بالإضافة إلى هذه الأرمادة التي كونها و نظمها بن بولعيد تدريجياً، محولاً الأوراس إلى احتياطي هائل من الثوار، أقحم مسؤولو المنظمة الخاصة في صفوفهم مجموعة أخرى من العناصر غير المسيسة، من عصابات الشرف التي ثارت و تمردت على السلطة الاستعمارية وكانت الإدارة المحلية تسميهم «قطاع الطرق» والأهالي يسمونهم «عصابات الشرف»، فكلمة «عصابة» لا ينبغي أن تعني هنا «الأشرار» أو «اللصوص» أو أي مرادف سافل آخر من هذا القبيل، بل من الأنسب أن يعطى له مدلول مضاد لمدلولها اللغوي المعروف .

هذه العصابات (غير المنظمة) من المتمردين الذين لم يكونوا ثوريين، كانت محل مطاردة من قبل السلطات الفرنسية، لكنها تتمتع بمكانة محترمة لدى الأهالي في الأوراس بحيث يحتضنونها ويطعمونها، ورغم كونهم خارجين عن القانون، إلا أنهم يتمتعون بحماية الأعراش التي ينتمون إليها . وكان هؤلاء الرجال الأحرار الذين تحدوا فرنسا بفرض الفدية على «البني وي وي» ويعطونها للمعدمين من أهل الريف . وكان الناس يتغنون بمآثرهم كما أن الأشعار التي تمجدهم شائعة جداً إلى اليوم في كامل ربوع الأوراس .

رفقة بعض من رفقائه (ومنهم مسعود بلعقون وعبيدي محمد الطاهر المدعو الحاج لخضر وبحضور رابح بيطاط وبن طوبال وحباشي)، قرر بن بولعيد الاجتماع برؤساء الأعراش وأبلغهم أمنيته بأن يسيّس ويجمع «هؤلاء الإخوان الذين عانوا من ويلات الاستعمار الذي تطاردهم مصالحه، يقيمون في الجبال وراحوا يبتزون أموال الكولون وقباضي الضرائب و«البني وي وي» والعملاء من أعوان الإدارة» .

خلال ساعات، راح بن بولعيد يصف أمام العقلاء أحوال المواطنين الذين همشوا وشردوا من قبل النظام الاستعماري . لم تكن لديهم أية ثقة في العدالة

الفرنسية، ففضلوا الصعود إلى الجبل . إلا أن حياة التيه هذه لن تفيدهم دوما، سيما وأن البعض منهم يعيش مع أزواجهم، ومن ناحية أخرى، نجد أن كل مجموعة تتصرف حسب رغبتها دون تنسيق مع غيرها، مما سبب مشاكل للعائلات التي احتضنتها والتي تعجز أحيانا عن تأمين العيش لها . صحيح أن السكان في الأوراس معدمون ويعيشون حياة ضنكا، لكن هذا لم يمنعهم من أن يقتسموا مع المتمردين القليل من العيش الذي يملكون، ولهذا اقترح بن بولعيد أن يُحسن استغلال هذه الطاقة وتُوجه لخدمة قضية أكثر نبلاً وتُضم هذه الجماعات وتُعطى لها مكانة جديدة، ليتحول أفرادها من «قطاع طرق شرفاء» إلى ثوار . وبذلك ستكسب الحركة الوطنية رجالاً سبق أن برهنوا على شجاعتهم وبانضمامهم ستعرف عائلاتهم الاستقرار وينتهي ترحالهم عبر جبال الأوراس وبالمثل أولادهم الذين هم أولادنا .

لقد أفاد التعاون المتمردين وعائلاتهم وكذا جميع الدواوير التي احتضنتهم.

أربعـــة ثـــوار

بعد موافقة «الجماعة» اتصل بن بولعيد بقادة «الخارجين عن القانون» :

- زلماط مسعود من عرش بني بوسليمان الكبير .
- قرين بلقاسم من عرش السراحنة (سراحني) .
- برحايل حسين من عرش بني بوسليمان (وهو منخرط) .
- شبشوب الصادق من عرش بني بوسليمان، نقابي سابق في منجم إشمول، متشبع بالأفكار الشيوعية وسبق له أن تمرد على السلطة الفرنسية بعدما قتل أحد المسيرين إثر إضراب وصعد إلى الجبل مع زوجته التي برزت كمحاربة مغوارة.

نظم بن بولعيد اللقاء وحضره بعض مسؤولي «المنظمة الخاصة»، وخلال جلسة حول طبق من الكسكس، كشف لهم عن مبادرته وعن مدى جديتها وبشرهم بأنه حصل على رضى كافة القبائل ووصف لهم الوضع السوداوي المتميز بالفقر والشقاء، ولما رآهم يهزون رؤوسهم حين كان يتهجم على فرنسا وأتباعها، راح يتحدث مطولاً عن الحركة الوطنية مركزاً حديثه على الأعمال

التي شرعت فيها مجموعة من المناضلين الوطنيين الذين عقدوا العزم على فك نير الاستعمار ، وحاول أن يقنعهم بأن للجميع خصما واحدا ، وواصل حديثه قائلا : «فلم لا تنضمون إلينا لنخوض معا نفس الكفاح» ، وذكّرهم سي مصطفى بتاريخ الأوراس وثوراته ضد الفرنسيين في عام 1859 وفي عام 1879 ثم في عام 1916 ، وأكد لهم أن الأوراس لن يكون هذه المرة وحده ، فستنتفض مناطق البلاد كلها : «إذن كونوا معنا» ، وتوصل القائد الفذ سي مصطفى لأن يقنع القادة الثائرين الأربعة باعتناق القضية الوطنية والانضمام إلى صفوف المجاهدين في الجبل بسلاحهم وعدتهم .

تلقى هؤلاء الخارجون عن القانون تدريبهم على يد عناصر «المنظمة الخاصة» ، ثم استقطبهم تيار اللجنة الثورية للوحدة والعمل فدمجهم في هياكل الحزب دعما لمواقع الجهاد في الأوراس (وسرعان ما صار سلوكهم مثالياً ، وسقط العديد منهم في ميدان الشرف ومن بينهم الأربعة المذكورون أعلاه : اغتيل زلماط على يد أحد اللاجئين ، واستشهد قرين وبرحايل وشبشوب في معارك ضد العدو) .

بفضل كل هذه الأرمادة المكونة من عدة أقطاب ، وضع بن بولعيد أسس تنظيم قوي في المنطقة استعداداً لتشييد حصن منيع في محيط جبال شيليا . وكانت «المنظمة الخاصة» في جبال الأوراس تشحذ سلاحها وتهيئ رجالها الذين سيؤطرهم فيما بعد كل من شيحاني بشير وعاجل عجول وبشير حجاج ولغرور عباس وعثماني المدعو تيجاني وعبيدي محمد الطاهر المدعو الحاج لخضر...

وظل سي مصطفى يسعى جاهداً لجمع واستقطاب أكبر عدد ممكن من العناصر وفي نفس الوقت للحصول على السلاح ، كان يستغل مرور القوافل الآتية من ليبيا لشراء البنادق التي يجلبها البدو من فزان وطرابلس ، سواء هو شخصيا أو عن طريق رجاله . وكان عمار معاش الملقب «عمار مارشي نوار» مفاوضا ماهرا يعرف دائما كيف يحصل على أنسب الأسعار ، و كان يبرم صفقات مع أصحاب القوافل ممن يعرفهم و يثق فيهم . لقد ازداد عدد

المنخرطين الجدد و تدعمت الصفوف أكثر ، لكن اكتساب الأسلحة لم يواكب هذا التطور .

قنـــابـل في بـــاتنة

أودع سي مصطفي قنابل عند صديقه التاجر مشلق سعيد المدعو فرحي ، وهو يملك محلاً لبيع الألبسة يقع في «نهج فرنسا» (شارع الجمهورية حاليا) ، أحد أكبر شوارع مدينة باتنة ، ويقابل مطعم الضباط ويبعد بحوالي خمسين مترا فقط عن دار البلدية . عند زوال يوم الأحد 19 جويلية 1953 اهتزت المدينة على وقع سلسلة من انفجارات مرعبة سُمع دويها على بعد كيلومترات لكنها لم تخلف ضحايا أما الخسائر فكانت معتبرة ، لقد نُسف دكان الألبسة نسفاً ودُمر نصف مكتبة «سالفير» المجاورة وشب فيها حريق . أثار هذا الحادث ضجة كبيرة لدى سلطات المدينة التي حضرت على الفور إلى المكان مثل رئيس الدائرة دوبلانك ورئيس البلدية مالبيل ، وراح الجمهور المكتض والمحتشد تحت مراقبة الشرطة والدرك يتساءل دون أن يملك جوابا ، وفي تلك الأثناء أوقف الأخوان مشلق سعيد ومسعود .

توجه سي مصطفى إلى العاصمة واستأجر غرفة في نزل موغادور «Hotel Mogador» الذي كانت تسيّره امرأة عرفته كزبون وتعاطفت معه ، وسدد مبلغ المبيت لمدة أسبوع مسبقاً لكنه لم ينم في الفندق ليلة واحدة إذ لجأ إلى دكاني وبدأ يأخذ كل احتياطاته اتقاء لشر البوليس . كان جد متأثراً ، ليس لحاله و لكن لحال صديقه فرحي و شقيقه الصغير مسعود .

كان يكلم أخاه عمر في باتنة كل مساء هاتفيا من المحل ليخبره بمجريات الأحداث وبمساعيه لدى بعض الأشراف الباتنيين ، وقال له بأن الجيش قام بتفجير كامل المخزون المحتجز لدى مشلق في ساحة الرماية ، الكائن خلف مقبرة المسلمين .

ذهب بن بولعيد إلى مقر الحزب وطلب من المسؤولين ، ومن بينهم بن يوسف بن خدة وسيد علي عبد الحميد ، مبلغ 250 ألف فرنك . وللحصول على هذا المبلغ المالي ، زيف الحقيقة قائلاً لمحدثيه بأن هذا المخزون كان موجوداً في أيام

«المنظمة الخاصة» ، وبما أن قادة الحزب لا يعلمون أن بن بولعيد احتفظ بالمنظمة ،
منحوه المبلغ المطلوب. وقد أخفى على أعضاء اللجنة المركزية إنشاءه ورشة
لصنع القنابل في دوار حجاج في جبال الأوراس ، معقل صديقه بلعقون .

كان واثقاً من أن قاضي عبد القادر المدعو قدور ، نائب ومندوب الاتحاد
الفرنسي ، و الباشاغا تاوتي سيعرفان كيف يناوران لستر القضية وتجنيب
متابعات قاسية على الأخوين مشلق وعلى الحزب . كما استنجد سي مصطفى
بمحام من باتنة ، هو الأستاذ عياش معلم لإيجاد حل سريع وناجع لهذه الحادثة
التي هو في غنى عنها . الأستاذ معلم الذي زاول دراسته في نفس الثانوية التي
درس بها صديقه لحول حسين ، كان قد كلفه هذا الأخير بالوقوف إلى جانب
المناضلين يوم مثولهم أمام العدالة رفقة عميد المحامين العيد العمراني المدعو
حسين .

وفعلاً نجحت خطة بن بولعيد ولم تعرف القضية عواقب وخيمة ، ولقد
اعترف بن بولعيد فيما بعد عند ذكره لهذه الأحداث غير المنتظرة ، بأنه كان
يعيش على أعصابه . وأشرف وحده على تسيير ورشة صناعية وعلى مخزون
من المتفجرات ، دون أن يبوح بكلمة للحزب ولا لأحد في الهياكل ، ثم جاء
انفجار باتنة ، فلم يتنفس الصعداء إلا بعد أن قيل له «القضية فصل فيها» .
اعترف بأن مغامرات «المنظمة الخاصة» في تبسة جعلته أكثر حذراً وأكثر حيطة
من الشرطة و«للأسف من بعض أعضاء الحزب أيضاً» . كان قد فكر في
هذه الورشة طويلاً وبحث عن حرّاقين (أخصائيي متفجرات) في كل مكان ،
وأسس الفرقة الصغيرة وقام بتجارب كانت نتيجتها إيجابية فشرع في عملية
الإنتاج . قام بعدة رحلات مع بلعقون بحثاً عن موردين لكامل المواد التي تصنع
منها القنابل ، وعندما سئل : «لماذا هذه المبادرة؟» ، رد قائلاً : «باعتبار ما كان
يحدث ، لاحظت أن ما وقع بتبسة عطل القوة الوحيدة التي بإمكانها أن تقود
الكفاح التحريري ، كما أن إعادة تشكيل المنظمة الخاصة لم تدرج ضمن جدول
أعمال الحزب رغم احتجاج بعض المناضلين . لقد فكرت طويلاً في إنشاء مخبر
لصنع المتفجرات ، وبما أنني أملك قليلاً من الخبرة في المجال ، كلمت بعض

الأصدقاء الذين وافقوا» . وما لم يقله أنه هو الذي موّل الورشة من أملاكه الخاصة .

ظل بن بولعيد يخبر بوضياف بما كان يجري باستمرار ، وكانت تربطه به علاقة صداقة متينة نسجت منذ آن كان بوضياف ينشط في الإقليم القسنطيني . لهما نفس النظرة لمسيرة الحزب ومستقبل البلاد ، ويطبع علاقتهما تفاهم كبير ونوع من التعاون الذي قوّى من أواصر هذه العلاقة . حفظا السر لأنهما لا يريدان تكرار ما حدث في تبسة ، سيما وأن الأوراس كانت القوة المنظمة الوحيدة و النواة الصلبة المتبقية ، بالإضافة إلى مجموعة مناضلي القبائل الذين يعانون من أهوال القمع والبطش .

بوادر الأزمة

طالت حالة الإحباط الناجمة عن تفكيك وحل «المنظمة الخاصة» العديد من المناضلين . وشيئاً فشيئاً انتقلت عدواها فتصاعدت موجة السخط . سيما وأنه في أعلى هرم الحزب بدأت العلاقات بين أعضاء اللجنة المركزية تتسمم . فأبدى بعض العناصر ، وكانوا مدفوعين من مصالي ، معارضتهم لمسيرة الحزب ، بينما اتخذ جناح آخر مرجعيته من نصوص و لوائح المؤتمر و تمسك بها .

انتقلت الأزمة إلى المستويات القاعدية ، بعدما فشل المسؤولون في احتوائها في القمة . وغرق الحزب في حالة خمول غير مقبولة وفي سبات ما انفك يدفع إلى التعفن . واتسعت رقعة الاحتجاج على مستوى خلايا المناضلين وأدى إلى إضعاف التعبئة وإلى التصدع ، بل وإلى انسحاب بعض المناضلين النشيطين من العمل السياسي .

في ظل هذه الظروف المتسمة بالسخط العام ، انعقد مؤتمر أفريل 1953 . وتأكد بموجبه غرق الحزب في الوحل لأن القادة لم يريدوا معالجة المشكلة في العمق وتجاهلوا تماما أسباب الأزمة . فعوض إصدار لوائح تصحيحية تذهب في الاتجاه الثوري أصرت القيادة على المضي في نهج الشرعية بينما إخواننا التونسيين والمغاربة على أبوابنا بدؤوا في قرع الأجراس وباشروا الكفاح المسلح .

كل ما استجد في جلسات هذا المؤتمر ، أنه تم تعديل القانون الأساسي للحزب ، بالشكل الذي يحدّ من صلاحيات مصالي الذي كان في تلك الأيام موجودا تحت الإقامة الجبرية في «نيور» وأنه تم إزاحة أحمد مزغنة الذي يعتبر أحد مساعديه الأكثر ولاء له ، من المكتب السياسي . ولقد أثارت هذه القرارات ثورة مصالي الذي أعلنها حرباً على أعضاء اللجنة المركزية .

الأزمـــة

خرجت الأزمة عن الإطار التنظيمي لتنتقل إلى قارعة الطريق وتنشر للعلن ، وفتح بعض الانهزاميين والمناورين الباب للعناصر المصالية المفصولة من الحزب التي انتهزت الفرصة لتطلق العنان لأضغانها غير المهضومة ، مما أسفر عن تحطم وحدة الحزب وتعطل شبه تام للتنظيم . وقد وضع هذا الشقاق حداً لوحدة الحزب فلم تعد سوى مجرد وحدة واجهة .

كانت لهذه الأزمة الأخيرة في حياة الحزب الوطني العتيد ، انعكاسات خطيرة على سيرة المناضلين ذاتها . فقد وجد إخوان ، عانوا محناً قاسية تحت راية حزب الشعب/ (ح إ ح د) ، أنفسهم متخندقين في معسكرات متعارضة وتصرفوا تصرفاً غير مشرف البتة . كان كل واحد يرى الشرعية والحق من جهته ، فيلجأ إلى استعمال كل وسائل الاستمالة والإخضاع بما فيها العنف .

يعود ظهور هذه الأزمة إلى تاريخ إصدار قرار حل المنظمة الخاصة . ونذكّر أنه تم إنشاء هذا التنظيم خلال مؤتمر الحزب عام 1947 وحدد مغزاه و طبيعته بكونه منظمة شبه عسكرية ، وأهدافه في إعداد المناضلين المتمرسين للكفاح المسلح . وكانت المنظمة ترشح المناضلين بعد إجراء امتحان يحدد مدى عزيمتهم وقدرتهم على خوض الكفاح بكافة الوسائل الكفيلة بنيل الاستقلال.

لم يرض جميع من كانوا منصهرين في «المنظمة الخاصة» بقرار قيادة الحزب القاضي بحلها دون مناقشة ودون أي شكل آخر من المحاكمة . اندمج أعضاء المنظمة الخاصة في المنظمة السياسية ، و لم يفعلوا ذلك إلا تمسكاً بروح

الانضباط ، لكنهم ظلوا يشعرون في قرارة أنفسهم بأنهم حرموا من هذه الحركة التي ضحوا من أجلها كثيرا .

وعابوا على القيادة استمرارها في العمل وكأن شيئاً لم يحدث ، وإذا كان بعض أفراد المنظمة الخاصة خضعوا رغماً عنهم لأمر الالتحاق بالمنظمة السياسية ، فلكم جرحت قلوبهم وزاد غيظهم عند اكتشافهم فيما بعد جمود القيادة الوطنية ، هم الذين شحذوا هممهم وبدأو يمهدون الطريق للثورة بالشكل الذي يهدد استقرار سلطة الاحتلال ، وهم الذين شرعوا في التدرب على طرق حرب العصابات . لم يغفروا لقيادة الحزب تماطلها في الوقت الذي كانوا مستعدين لخوض غمار الحرب ، ولم يجدوا أمامهم سوى من يتخفى وراء حجج يلطف بها من جذوتهم . لم يطيقوا الصبر أكثر مما صبروا فكشفوا عن رأيهم ، معلنين هكذا معارضتهم لقيادة الحزب الذي ينتمون إليه .

إن القطرة التي أفاضت الكأس جاءت من مبادرة لمصالي الحاج الذي لم يكتف بعدم الاعتراف باللجنة المركزية ، بل أراد أن يخول لنفسه كل الحقوق على الحزب .

هكذا تم الانتقال من أزمة داخلية إلى صراع معلن ، وبدأت أركان الحزب تتصدع ، وأصيب المناضلون في البداية بحالة يأس وإحباط ، ولكن شيئاً فشيئاً ، عندما أصبح كل شيء مطروحا على الطاولة وبلغ إلى مسامع العام والخاص ، صار كل واحد مجبرا على اختيار معسكره . وخلق هذا الوضع صدمة على مستوى القاعدة لأن بعض المناضلين لم يكونوا على علم بهذه المناورات . وبات كل معسكر يشحذ سلاحه ويخطط لهجماته للقضاء على الآخر . وسيكشف هذا الشقاق في الحزب عن تشكيلة القوى الرئيسية والتي يمكن أن نصنفها على النحو التالي :

- جماعة المصاليين ، المنضوية تحت لواء مصالي الحاج وأحمد مزغنة ومولاي مرباح وعبد الله فيلالي وعيسى عبدلّي . . .

- جماعة المركزيين ، التي يقودها لحول حسين وكيوان عبد الرحمان وسيد علي عبد الحميد وبن يوسف بن خدة وأحمد بودة . . .

. جماعة المحايدين : التي يؤطرها بوضياف وبن بولعيد وبن مهيدي وديدوش وبيطاط . . .

عودة بوضياف من فرنسا

في 11 مارس 1954 ، عاد بوضياف من فرنسا ، وكان حاملاً لرسالة بعنوان «نداء للحكمة» ، وهي وثيقة أعدتها مجموعة من مسؤولي الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية في فرنسا ، وتضم أسماء راجف بلقاسم ، أحد رفاق مصالي الحاج القدامى ورجل محترم بين ذويه ، وبن حبيلس عبد المالك الملقب بسوقراط وأحمد محساس . وتدعو هذه الوثيقة إلى «الحياد الإيجابي» .

واجتمع بوضياف في العاصمة بعدد من الأوفياء لتدارس مضمون النص والغاية منه .

يختلف تصور بوضياف قليلاً عن جوهر هذا النداء ، ففي نظره لا ينبغي علينا تبني أطروحات المصاليين ولا أطروحات المركزيين .

كما لا ينبغي الدخول في الجدل القائم بين التيارين والسقوط في مطب تبادل الشتائم والتنابز بالألقاب ، فالافتراء كان سبب انفجار الحزب .

تبنينا «الحياد الفعال» ، أي العمل على وقف عملية دفع الاشتراكات وتجميد النشاطات السياسية لإحباط العمل التدميري الذي يقوم به المتصارعون . ومن خلال هذا الموقف ، كنا نريد أن نرغم المسؤولين على إيجاد حل للأزمة بعقد مؤتمر استثنائي ، الوسيلة الوحيدة للمحافظة على وحدة الحزب وإعادة هيكلته والاستعداد للانتفاضة والالتحاق بإخواننا المغاربة في الكفاح التحريري.

لابد لنا أن نستغل الوضع السائد لإعلان الثورة . فالتونسيون ثاروا ، والشعب المغربي انتفض و الفيتناميون حققوا النصر في ديان بيان فو «Dien Bien phu».

اللجنة الثورية للوحدة والعمل

شرع بوضياف بصفته مسؤولاً في اتصالات مع إطارات الحزب الممثلين في مسؤولي الولايات ومسؤولي الدوائر ، وحاول إقناعهم بمشروعية مسعاه

وأفكاره ليحثهم على الانضمام إلى مجموعة النشطين . وتوصل ، بدعم من مصطفى بن بولعيد وتأييد من ديدوش مراد والعربي بن مهيدي ورابح بيطاط ، إلى أن يتفق مع اثنين من المسؤولين الرئيسيين للجنة المركزية للحزب وهما بشير دخلي مسؤول التنظيم ورمضان بوشبوبة المراقب العام للحزب . وهكذا ظهرت إلى الوجود اللجنة الثورية للوحدة والعمل يوم 23 مارس 1954 .

ويرمي هذا التنظيم المتشكل من بوضياف وبن بولعيد ودخلي وبوشبوبة «إلى إعلان حركة رأي كفيلة بتوحيد القاعدة النضالية لمنعها من الانسياق وراء أي من الطرفين بالشكل الذي يزيد الضغط لفرض مؤتمر وحدوي ينقذ الحزب من الانقسام» .

كثير من المناضلين فهموا من تسمية «اللجنة الثورية» بأنها جناح منشق عن الحزب ، وقد أكد جميع الذين اختاروا التيار المحايد انتماءهم فيما بعد إلى هذه الحركة . وكما بينه بوضياف ، فهذه اللجنة ليست منظمة ولا هي حزب ، بل تجمع أربعة أشخاص يسعون إلى جبر الكسور التي لحقت بحزبهم .

والجدير بالملاحظة أنه على هذا الصعيد يعاب عليهم ضعف في التبليغ ونقص في الشرح ، مما رسخ في أذهان مناضلي القاعدة فكرة وجود قوة فعلية مضادة للمركزيين والمصاليين ، تمثل طريقاً ثالثاً تحت راية اللجنة الثورية للوحدة والعمل بما أن كلاً من الحياديين واللجنة الثورية انصهروا في بوتقة واحدة كما كانت ترغب القاعدة . بحيث أنه عندما قرر دخلي و بوشبوبة ، بإيعاز من اللجنة المركزية ، الانسحاب من اللجنة الثورية ، معلنين انطفاءها مباشرة ، لا أحد أبدى امتعاضاً .

صحيح أنه في تلك الفترة ، لم يعد هناك مبرر لوجود اللجنة الثورية ، وأن الرجال الأربعة الذين يشكلونها لم يحققوا الغاية الرئيسية التي رسموها والمتمثلة في المحافظة على وحدة الحزب . ولم يوفقوا في ترقيع التشققات رغم كل الجهود والمحاولات التي بادروا بها . وكانت آخر محاولة قام بها بن بولعيد تنقله إلى فرنسا لإقناع مصالي الحاج بضرورة عقد مؤتمر للوحدة إلا أنها قوبلت بالرفض من قبل الزعيم الذي نظم في «هورنو» «Hornu» مؤتمر الانشقاق .

وبمجرد الإخفاق في تحقيق الهدف الذي أسست من أجله اللجنة الثورية ، انفكت الروابط التي كانت تجمع الأصدقاء الأربعة . ويمكن القول بأن هذا الكيان السري المسمى اللجنة الثورية للوحدة والعمل عاش رسميا إلى غاية انعقاد مؤتمر المصاليين .

بيد أنه في واقع الحياة النضالية ، نشط السواد الأعظم من القاعدة تحت راية اللجنة الثورية التي كانت بالنسبة لهم بمثابة القوة الثالثة التي صنعت الأداة التي تشق الطريق أمام الكفاح المسلح ، ولم يقرر حلها سوى يوم 23 أكتوبر 1954 حين سلّم المشعل لجبهة التحرير الوطني .

في البداية ، نظم أعضاء اللجنة حملة توعية لتوضيح موقفهم الداعي إلى الآتي :

أ.تكريس وحدة الحزب .

ب.تنظيم مؤتمر ديمقراطي لضمان التماسك الداخلي .

ج.تزويد الحزب بقيادة ثورية .

وكان يساند اللجنة الثورية ، فضلاً عن المسؤولين الأربعة سالفي الذكر ، كل من ديدوش مراد وبن مهيدي العربي وبيطاط رابح ، علما وأن اللجنة المذكورة أصدرت أول جريدة تعبر عن لسان حالها في شكل نشرية إخبارية سرية تحمل عنوان «الوباتريوت» ، وهي تدافع عن فكرة الحياد عبر نداء يقول : « إن الموقف الذي ينبغي عليكم أن تتبنوه معنا يتمثل في عقد مؤتمر ذي سيادة يجعل من حزبنا أداة ثورية حقيقية تعجل بتحطيم الاستعمار الفرنسي الغاشم ، بالتنسيق مع أشقائنا في تونس و المغرب الأقصى» .

التحالـف

تلقت الجماعة التي ساندتنا ، والمكونة من عشرة مناضلين يحسبون من المقربين لبوضياف ، بنوع من الاندهاش خبر هذا التحالف غير المنتظر مع المسؤولين الاثنين اللذين يمثلان قيادة الحزب . وهي تعرف أن بوضياف ورفقاءه كانوا يرتابون من سلوك هؤلاء الأشخاص بالذات...



السيد عيسى كشيدة يتسلم شهادة في تعليم الخياطة ويظهر في الصورة على يسار سيدة.



مكتب لجنة مدرسة الصباح . القصبة.



أعضاء الكشافة الإسلامية الجزائرية يستقبلون من طرف جمال عبد الناصر. في الصف الأول. من اليمين إلى اليسار : آيت أحمد. حمدان عبد الوهاب. عبد الناصر. عمر لاغا.



المؤلف (الثاني من اليمين) رفقة مسبلين ومجاهدين في قصر زنينة.



في الجبل بمنطقة القديد. من اليسار إلى اليمين : شريف من الأوراس. مسؤول اللجنة الشعبية. دهينة محمد. عضو اللجنة الشعبية.
الجالسون : أحمد من الأغواط وعيسى كشيدة.



المؤتمر الثاني للكشافة الإسلامية الجزائرية من 10 إلى 12 سبتمبر 1965 بالرياث. من اليمين إلى اليسار : الواقفون : بوشكيوة يونس. رشيد طوبيشي. صادق الفول. شنوف لحسن. شاوي حمودي. القرفصاء : اعمر رشيد. دحمان رشيد. خميسة عمار.



من اليمين إلى اليسار ، بوقشورة مراد. الهجيم قدور. عيسى كشيدة. رابح بيطاط. عبد الرحمان ديدوش. علي مجقان. قاسي عبد الله عبد الرحمان. قاسي عبد الله مختار.



زرداني عبد العزيز. عينوز مولود في الوسط (كاتب كريم بلقاسم) وبوضياف حميد.

أما جماعتنا ، فقد اعتبرت هذا التحالف غير طبيعي ، فبعدما كانوا يتناحرون ويتهجمون عليهم أمامنا ويهتفون : «لا تحالف مع المركزيين» ، هاهم يشكلون لجنة تدعو إلى الوحدة والعمل . اعتبرنا المبادرة في غير محلها وانقلابا على المواقف السابقة لبوضياف ورفقائه الأربعة (بن بولعيد وبن مهيدي وديدوش وبيطاط) .

ظل ولاؤنا لهم إلى ذلك اليوم كاملاً ومخلصاً ومن دون تحفظ . وقفنا إلى جانبهم في أحلك الظروف ، وكم عانينا من الشتائم التي يقذفنا بها كلا المعسكرين من جراء انحيازنا . طلبنا منهم شروحاً . وكان بن مهيدي هو الذي كلّف من قبل المجموعة بمهمة توضيح نوايا رفاقه الأربعة ورفع كل لبس . جاء إليّ وطلب مني أن أتصل ببوقشورة مراد لحضور المقابلة .

طوال كل الأمسية وداخل الحجرة الخلفية لدكاني ، راح بن مهيدي يروي كل المغامرات منذ واقعة تبسة ويذكر المخاطر التي انجرت عنها . وأثناء حديثه أشار إلى بعض الوقائع ، فتارة يستشهد بنا وتارة أخرى يقسم بأغلظ الأيمان بأنها الحقيقة .

إلاأن التبريرات التي غاص فيها جاءت منطقية ومقنعة ، وأعاد علينا بالتفصيل كل الخطوات والمساعي التي قام بها والمفاوضات التي أجراها مع كافة الشركاء.

وكان التقييم الذي خرج به فيما يتعلق بالحياديين يتمثل في ضعف الوسائل والعدد المحدود للمناضلين الموثوق بهم ، ووضح ذلك قائلا : «هذا المكسب المحقق لا يعطي ثماره خارج هياكل الحزب ، لهذا السبب علينا أن نتغلغل داخل الهياكل لشرح وتحليل موقفنا كحياديين ، فنحن نفتقد للوسائل المادية والمالية ، ولا نتوفر على تجهيزات ولا على مقرات ، ومن الضروري التغلغل في عمق المنظمة من أجل تجذير أفكارنا في أوساط القاعدة . وهناك أيضاً عمل تحسيسي وتحريضي يجب القيام به» . واستطرد قائلا : «فالحزب حزبنا ويجب علينا القيام بإصلاحه ، فالبعض من المركزيين لا يقاسموننا تماماً أفكارنا ويحسبونها طلائعية ولا نملك الوسائل الكافية لتجسيدها في الميدان ، لكن هذا لا يعني أنهم خصومنا . فلا بد لنا أن نتكيف مع المعطيات الجديدة وأن نأخذها في

الحسبان لفرض وجهات نظرنا والعمل على كسب أكبر عدد ممكن من إطارات الحزب» .

ختم عرضه راجياً منا أن نتسلح بالصبر وأن نتفهم انشغالات الرفقاء الخمسة . والتمس منا أن نكون وسطاء المجموعة لشرح الموقف لزملائنا ممن هم في حالة انتظار وترقب وإقناعهم بأهمية الخيار المعروض عليهم حالياً .

كان بن مهيدي جد متأثر بموقفنا الرافض . لكنه تفهمه واعتبره مشروعا .

تأسف لأنه لم يعلمنا في وقت مبكر بنواياهم التي لم تحمل ، حسب قوله ، أي طابع سري فيما يعنينا . «لكن الوقت هو الذي لم يسمح لنا بأن نجتمع بجماعتكم لنبلغكم بالأمر» . لهذا كان عندما استعرض أمامنا حججه ، وهي كلها في الحقيقة مدعاة للتشفي ، يذكّرنا في كل مرة بانتسابنا إلى نواة اللوجيستيك التي لم تتخل في أي لحظة عن مهمتها وسندها الكامل طيلة السنوات الأربع الأخيرة .

في حديثه عن المستقبل القريب ، رسم لنا بن مهيدي الخطوط العريضة للبرنامج الذي سطره بوضياف وبن بولعيد .

بعدما اقتنعنا بكل الشروح التي قدمها لنا بن مهيدي شرعنا ، أنا وبوقشورة ، في الاتصال بباقي مجموعتنا ونقلنا لهم كلام بوضياف ورفاقه . اطمأن الجميع ، وبعدما اقتنعوا واصلوا نشاطهم النضالي ضمن مجموعة العتاد والاتصالات .

و أكدت الأحداث فيما بعد سداد المبادرات التي أتى بها بوضياف ورفاقه ، بدليل أن دخلي و بوشبوبة ، وبفضل موقعهما داخل النظام وتوفرهما على إمكانات وعلى سلطة قرار ، لبّيا بعضاً من الطلبات التي تقدم بها بوضياف . ومن بين النقاط الإيجابية ، إصدار جريدة اللجنة الثورية «لوباتريوت» التي تسحب على آلات الحزب و تنشر إيديولوجية الحياديين . في كل مرة يسحب عدد ، يحمل لي بوشبوبة حزمة و يطلب مني توزيعها ، وكان الهادي باجراح يأتي ليأخذ معه نسخاً ليوزعها على مناضلي القبة ، وعثمان بلوزداد يحمل

نسخاً لمناضلي بلكور . كنا ننظم حملات للتعريف بهذه المطبوعة ونحث المناضلين على قراءتها والتعليق على محتوياتها .

خلق هذا المعطى الجديد ديناميكية جديدة إذ لم يكف بوضياف ورفقاؤه عن الحركة ، ويساعدهم في ذلك المسؤولون المذكورون من اللجنة المركزية . فهم بحاجة لأن يتشاوروا فيما بينهم وبحاجة لأن يتحركوا حسب رغبتهم ، في النهار كما في الليل .

زارني بوضياف ، وبعدما أخبرني عن كل المساعي والأعمال المنجزة ، طلب مني أن أتنازل له عن محلي ليحوّله إلى مقر ، وشرح لي دوافع ذلك : فالمكان منعزل ونظيف ، والدخول سهل من الجهتين ، والضرورات الصحية متوفرة . وقال لي : « سيدفع لك الحزب ثمنه بمجرد أن يتحصّل على أموال» . لم يكن لي أن أرفض ، سيما وأني كنت واعياً بأهمية هذا المحل الذي مر منه كثير من اللاجئين والمطاردين من قبل السلطات . وكان بمثابة بحيرة سلام لكثير من القادة ، فلبّيت له طلبه وأفهمته بأني أتنازل عنه مجاناً للحزب . فاستعمل بوضياف هذا المحل و اتّخذه مقراً لهيئة أركان الثورة .

غادرت إذن شارع بربروس واستقررت في 5 شارع مر مالاكوف ، طريق باب الوادي ، خلف قصر بربروس وعلى مرمى حجر من ساحة الشهداء . ولقد سجّلت هذه الورشة الجديدة الواقعة في وسط المدينة الاتصالات بممثلي التيارين القادمين من المناطق الداخلية للوطن الذين سعوا معاً لإيجاد حل للأزمة . وعندما زاره بوضياف قال لي بأن للمحل موقعاً جغرافياً جد ملائم للقاءات . وتمت هناك فعلاً عدة لقاءات...

تحليـــل بوضيـــاف

اجتمع بوضياف بالأعضاء الموالين له . الآن وقد تيقن من وجود خلية يمكنها أن تشرع في عمل تحسيسي . وذكّر بأنه ينبغي على المسيرة الثورية التي صاغها الحزب منذ 1947 أن تتحرك على جبهتين :

ـ على جبهة سياسية ، تتكفل بالعمل السلمي عبر الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية ، من توعية وتربية وتنظيم جماهيري . لأنه يجب تربية هذه الجماهير على فكرة أساسية هي الاعتماد على النفس إذ يجب تكوين هذا المجتمع على التكفل بنفسه من خلال إنشاء هياكل اجتماعية وغيرها موازية لهياكل الإدارة الفرنسية .

ـ وعلى جبهة عسكرية ، التحضير لحركة ثورية مسلحة ، يتكفل بها الحزب ، على أن تكون تحت إشراف قيادة منبثقة عن المنظمة الخاصة ، التي أنشئت لهذا الغرض خلال المؤتمر .

كل النظريات التي صاغها الحزب الثوري كانت مفهومة ومستوعبة من قبل جميع المناضلين وهذا منذ عدة سنين ، ومع مرور الزمن ترسخت هذه النظريات وأصبحت قناعات متجذرة في عقول المناضلين الذين لم يكونوا ينتظرون سوى الضوء الأخضر من أصحاب القرار للمرور إلى الفعل .

وترمي الاقتراحات التي تقدم بها بوضياف لعقد مؤتمر استثنائي ، بمبادرة من اللجنة الثورية ، إلى التوقف عند مختلف المحطات وتناول عوامل الأزمة بالتحليل الموضوعي وإلى البحث عن أنسب الحلول في جو من الهدوء .

وقام بعملية تشخيص شامل ، بإحصاء كل الانحرافات والشوائب والنقائص والاقتباسات نقطة بنقطة . وركز على تماطل ونقص فهم المسؤولين الذين تركوا الوضع يتعفن . وكان لهذا الوضع انعكاسات على جميع الأصعدة :

أ ـ وقع انشقاق في القمة ، ونتج عنه خلاف بين من يتبعون مجموعة متشبعة لمصالي ولا يقدرون على اتخاذ أي قرار دون الرجوع إلى الزعيم (وهم المصاليون) ، وبين أعضاء من اللجنة المركزية ، لأنهم متمسكون بالشرعية ظلوا مترددين ولم يقوموا بأي مبادرة (وهم المركزيون) .

أعاد بوضياف إلى الأذهان الفتنة التي زرعها مصالي بعدما أثار زوبعة في شهر ديسمبر 1953 خلال ندوة للإطارات ، لما تليت على المجلس عند افتتاح الدورة ، رسالة تتضمن :

ـ أنه لا يعترف بالقيادة المنبثقة عن المؤتمر ،

ـ أنه يرفض اللجنة المركزية ،

ـ أنه يطالب بكامل الصلاحيات والسلطة .

أما بالنسبة للمركزيين ، فالانتقال إلى العمل المسلح سابق لأوانه ، إذ ينبغي قبل ذلك :

ـ استتباب الوحدة السياسية للحزب ،

ـ التزود بالسلاح تدريجياً ،

ـ تحديد العلاقة مع الحركات الوطنية التونسية والمغربية.

إن العمل المسلح ، في نظر هذين التيارين ، سابق لأوانه . «نحن غير مستعدين... ليست لدينا الإمكانات... علينا أولاً بالتنظيم والاجتماع والتباحث... .»

وهناك مجموعة ثالثة تمثل الخط المتصلب تنادي بالعمل المسلح ، على غرار جيراننا التونسيين والمغاربة ، ويعتبرون بأن الظرف موات . وستضطر فرنسا لتشتيت قواتها على ثلاث جبهات (الحياديون) .

ب ـ والانشقاق الذي حدث على مستوى القاعدة تسبب في تصرفات غير لائقة ، فتحوّل إخوان البارحة إلى خصوم اليوم ، وخرج الصراع إلى الشارع ، فصار المواطنون يتتبعون المنازعات بين المناضلين بنوع من الاحتقار والازدراء ، وصاروا يلعنون قادتهم الذين لم يستطيعوا حتى التحكم في جماعاتهم التي تتمزق في الساحة العمومية ويسخر عليها الأعداء .

والتف جزء من الإطارات والمناضلين حول الحياديين الذين يمثلون الطريق الثالث الذي يستجيب أكثر لطموحاتهم . غير أن هناك واقع من غير الممكن تجاوزه هو أن عددهم لم يرتفع ، فالجزء الأكبر من المناضلين بقي تحت سيطرة مصالي . لهذا السبب ، وتحت ضغط الأحداث ، اقترح بوضياف قلب المسار الثوري ، أي مباشرة العمل موازاة مع تنظيم وتوجيه كافة القوى الحية . وسيغير

انطلاق الشرارة الأولى رأي المترددين وسيلتحقون تدريجيا بصفوف دعاة الكفاح .

اتبعت المجموعة التحليل الذي جاء به بوضياف وتبنته ، فحصل الإجماع حول برنامج العمل الذي نظم الحاضرون أنفسهم وِفقه وبدأوا بالتحضير لحملة توعية يقودها كل واحد على مستواه .

في هذا الصدد ، صرح بوضياف لجريدة «لوموند» في عددها الصادر بتاريخ 2 نوفمبر 1962 ، قائلاً : «قررنا ثلاث مراحل ، المرحلة الأولى عسكرية بحتة ، ستسمح بتكوين مجموعات صغيرة تتحاشى المواجهات و يقتصر دورها على تنفيذ عمليات تخريبية وتحرشية ، واستغلت هذه المرحلة لتكوين أكبر عدد ممكن من مواطنينا عسكرياً . والمرحلة الثانية ستكون مرحلة اللا أمن المعمم بالهجوم على المنشآت القاعدية وإنشاء إدارة سرية - ما سنسميه فيما بعد «المنظمة السياسية الإدارية» ودورها الرئيسي يكمن في إشراك الجماهير في تسيير الثورة . والمرحلة الثالثة تشهد إقامة مشروع حكومة في منطقة محررة . وأنتم تعلمون أن هذه الخطة لم تنفذ ، ونحن أنفسنا لم نكن نتخيل ذلك ، ولإعطاء صورة عن منظمة قادرة على التدخل في أي مكان و في أي لحظة ، قررنا طبع عدد كبير من المناشير على أن يتم توزيعها على مدى أيام متباعدة ، منشور يدعو إلى الثورة ، وآخر يدعو لتأسيس جبهة التحرير الوطني . وتم توزيع المنشورين معاً في يوم أول نوفمبر» .

اجتماع الاثنين والعشرين

فكّر بوضياف في جمع عناصر موثوق فيها ممن برهنوا على قدراتهم ، بغية تدارس الوضعية وإقرار ما ينبغي عمله ، وإن كان هو نفسه وبعض من مقربيه أتموا رسم المحاور الرئيسية لإستراتيجية التعبئة والنضال . لذلك عمل بوضياف على تقاسم هذا الموقف مع مجموعة تكون أشد نفوذاً وصلابة . وكان من المنطقي جداً أن يلجأ إلى العناصر الأكثر التزاماً بمبدأ العمل الثوري والذين سيُخرجون الحركة الوطنية من سباتها ومن الجمود الذي أغرقها فيه المسؤولون في قيادة الحزب .

وكانت إمكانية الاختيار بالنسبة لبوضياف محدودة ، كون أن كثيراً من الرفقاء موجودون رهن الحبس أو مكلفون بمهمة محددة ، وكان الحل إذن في اللجوء إلى من نشطوا تحت قيادته وبرهنوا على قدراتهم في الميدان . وعلى هذا الأساس ، كان بمستطاع جزء كبير من الذين تمت دعوتهم للاجتماع أن يشكلوا مجموعة متجانسة ، وكانت التشكيلة مفصلة على النحو التالي :

- ديدوش مراد ، أحد المساعدين الأوفياء ، اختار مجموعة من العاصميين متكونة من بوعجاج زبير ومرزوقي محمد وبلوزداد عثمان ودريش إلياس ؛
- العمودي عبد القادر ، الذي كان ضمن هيئة أركانه في الجنوب القسنطيني ؛
- سويداني بوجمعة ، الذي قتل المفتش «كولي» من شرطة الاستخبارات العامة عام 1952 ببودواو وشارك في الهجوم على مكتب بريد وهران عام 1949 ضمن كومندو بلحاج بوشعيب المدعو سي أحمد الذي شارك أيضا في الاجتماع ؛
- زيغود يوسف وبن عودة مصطفى ، اللذان فرّا من سجن عنابة عام 1952 وانضم إليهما بن طوبال في الأوراس ، ثم عادوا إلى منطقة «كوندي سمندو» واختبأوا هناك إلى غاية 1954 ؛
- رابح بيطاط وحباشي عبد السلام ، أقاما هما أيضاً من 1950 إلى غاية 1952 في الأوراس ، وبعد إقامتهما لبضعة أشهر في العاصمة عينهما الحزب مداومين في منصبي رئيس دائرة في غرب البلاد ؛
- بن مهيدي العربي وبن عبد المالك رمضان وبوصوف عبد الحفيظ ، كانوا قد عملوا كرؤساء دوائر في الغرب ؛
- مشاطي محمد ، الذي كان ينشط في الإقليم القسنطيني ثم استقر بالعاصمة ؛
- بوعلي أسعيد وملاح سليمان المدعو رشيد ، اللذان لم يكونا محل بحث ، نشطا واستقرا في قسنطينة ؛

- باجي مختار، بعد خروجه من السجن عام 1952 بقي ينشط في سوق أهراس؛

- بوضياف محمد وبن بولعيد مصطفى، عميدا هذا الهيكل، وكل أولئك يمثلون مجموعة الاثنين والعشرين.

تناول بوضياف هذه النقطة المتعلقة بالتشكيلة عند افتتاح أشغال اجتماع الاثنين والعشرين في منزل إلياس دريش بحي كلو سالمبيي (المدنية)، وتأسف لغياب «إخواننا من منطقة القبائل الذين لا يزالون تحت سيطرة المصاليين، وبعض من رفقائنا الذين يقبعون الآن في السجون».

وتحت رئاسة مصطفى بن بولعيد واصلت المجموعة، التي ينتمي معظم أعضائها إلى «المنظمة الخاصة»، نقاشها الذي استغرق ساعات طويلة حول وضعية الحزب ومستقبل القضية الوطنية. واستعرض الأعضاء كل النقاط التي أثارت النقاش وهي: مسيرة «المنظمة الخاصة» وأزمة الحزب والوضعية السياسية والرأي العام المتعلق بالأحداث الجارية على حدودنا ومعنويات الشعب وآفاق الثورة المسلحة.

وحول كل هذه النقاط، كان الاثنان والعشرون متفقين تمام الاتفاق، مثلما حصل إجماع خلال نفس الاجتماع على مبدأ تعيين قيادة من أجل تنسيق أفضل و حركة أكثر سيولة للأخبار. وطالما أنهم تعودوا العمل في السرية واتقاء لأية مخاطر محتملة، قرروا تعيين مسؤول يختار مساعديه المقربين ليشكلوا هيئة الأركان، دون الرجوع إلى الآخرين. فهكذا أقاموا صمام أمان لحماية المساعدين، وعليه لا يعرف الاثنان والعشرون إلا قائداً واحداً دون البقية.

وخلال مناقشة هذا الموضوع، أُقرّ باقتراح واحد يتمثل في انتخاب المسؤول وليس تعيينه بطريقة عشوائية، وأعرب كل الحضور عن ثقتهم في مصطفى بن بولعيد ليقوم بفرز الأصوات ويبلغ من سيقع عليه الاختيار.

تسارعت الأحداث عقب هذا الاجتماع التاريخي إذ لم تعرف الاحتياطات المتخذة أية متابعة، حيث أن القادة ظلوا يعملون في العلن، والملاحَظ أن

المشاركين ظلوا يطبقون التوصيات والأوامر المعمول بها في هياكل «المنظمة الخاصة».

صوتت الجمعية مرتين ثم انسحبت، وعقب انتهاء الاجتماع قام بن بولعيد بفرز القصاصات الاثنتين والعشرين وأشار إلى الحصول على نتيجة عقب الدور الثاني.

بلغ سي مصطفى نتيجة الاقتراع إلى بوضياف وقال له: «أنت الذي انتخبوك»، ورد بوضياف قائلاً: «مع رفقائنا الثلاثة العربي ومراد ورابح الذين ساعدونا في تحضير هذا اللقاء، سنكون خمسة في انتظار قرار نهائي بخصوص عدد العناصر التي تشكل هيئة الأركان»، وكان ميلاد مجموعة الخمسة.

وفي يوم الاثنين 28 جوان 1954، يومان بعد هذا الاجتماع التاريخي، دعا بوضياف وبن بولعيد مساعديهما لاجتماع في 06 شارع بربروس لتقييم الوضع ودراسة التوصيات المنبثقة عن جمعية الاثنين والعشرين و التفكير في سبل تنفيذها.

أرادت الجماعة الاحتفال بالحدث، فكلفوني أنا ومراد بوقشورة بتحضير المراسيم، فذهبنا إلى صاحب مطعم معروف في شارع «ماريتغو» عبد الرحمان عرباجي حاليا وهو المناضل موح الطويل الذي حضّر لنا سبعة أطباق تقاسمناها معاً في ورشتي حول إحدى طاولات الخياطة، وكان ذلك في جو من البهجة والسرور، فلقد ساد الوئام بين الجميع في ذلك المساء.

انسحبنا، أنا وبوقشورة بمجرد الانتهاء من تناول العشاء تاركين المخططين الخمسة يشرعون في أشغالهم.

غضب القسنطينيين

بعد مرور بضعة أيام على هذه الجلسة التاريخية، ظهر سوء تفاهم. فقد تشاور عناصر من قسنطينة، وعلى رأسهم غراس عبد الرحمان، عقب الاجتماع واعتبروا بأنه كان ينبغي دراسة بعض القضايا التي تبدو في رأيهم ذات أهمية دون أن يتم التطرق إليها بما فيه الكفاية في بيت دريش.

وطالبت هذه الجماعة ، من خلال بيطاط ، بعقد اجتماع مصغر في منزل بوقشورة مراد أو في منزلي لوضع استراتيجية كفيلة بتحليل أفضل للواقع بما يكفل إنجاح إندلاع الثورة .

و لقد أصر الأعضاء القسنطينيون على مناقشة ما يلي :

أ- اختيار القادة بالشكل الذي يضمن تمثيلا جيّدا من خلال شخصيات معروفة في الساحة السياسية قادرة على نشر برنامج الثورة داخل الوطن وخارجه بالخصوص ؛

ب- ضمان التغطية السياسية وتحديد الدور العسكري في بنية المنظمة ، سواء كان موازياً أو مندمجاً ؛

ج- إحصاء كافة الوسائل البشرية والمادية (أموال وأسلحة وتجهيزات) .

وبالنسبة لهذه الإشكالية ، كلّف بوضياف بيطاط ليعرض عليهم بعض المقترحات واستثنى مسبقاً عقد أي اجتماع لمناقشة الإستراتيجية المسطرة ، حتى وإن تم التغافل عن بعض التفاصيل . فمن المستحيل التّراجع عن قرارات تم اتخاذها سوياً . فلقد اقترح عليهم بوضياف بأن يدرج اسم عبد الرحمان غراس في القائمة ليصبح السادس في هيئة الأركان ، قبل أن يُتخذ القرار النهائي وترفض تلبية طلبهم . فما كان على عبد الرحمان سوى العمل وفق الاتجاه المسطر والتباحث مع جماعة الخمسة عن أفضل الصيغ لضمان نجاح الثورة .

رفض غراس العرض وفهم الدعوة كمحاولة لشراء ذمته وتفادي مناقشة الإستراتيجية المؤسسة للكفاح المسلح .

كان هناك نوع من التشنج لدى القسنطينيين ، لكن سرعان ما عادت المياه إلى مجاريها لأن التحضيرات كانت جارية على أحسن وجه ، ثم تسارعت الأحداث .

في البداية كلف بيطاط بتولي قيادة الناحية الثانية (الإقليم القسنطيني) في بداية الكفاح المسلح لكنه وجد نفسه منقوصاً من خدمات جميع عناصر هذه

المجموعة التي تشتتت ، فقام بعملية تبادل مع ديدوش مراد ليتولى قيادة الناحية الرابعة (العاصمة) .

وبعد اندلاع الثورة ، عرفت جماعة قسنطينة متاعب شتى ، فثلاثة منهم تولوا مسؤولية فدرالية فرنسا وهم غراس عبد الرحمان ومشاطي محمد وحداد يوسف (تعامل هذا الأخير مع شبكة «جونسون» وحاملي الحقائب) ، وألقي القبض على حباشي عبد السلام ، وسقط بوعلي سعيد وسليمان ملاح في ميدان الشرف .

والحقيقة أنه في الوقت الذي صار فيه الخمسة ستة ، نوقشت وأُقرّت فكرة تعيين رجال سياسة معروفين ويحظون بتقدير هيئة الأركان ، إذ كان لابد من تدعيم أعضاء الوفد الخارجي بمناضلين عاشوا الأزمات المتوالية للحركة الوطنية في المدة الأخيرة ، قادرين على إعطاء دفع لمسيرة الكفاح التحريري .

وعلى رأس القائمة ، لم يكن في وسعهم أن يجدوا أفضل من الدكتور لمين دباغين الذي كان على هامش كل الصراعات الداخلية وله رصيد من الوجاهة والنزاهة بالإضافة إلى أنه لا يُكنّ أدنى مودة لمصالي .

فانتقل كل من بوضياف وبن بولعيد وكريم إلى سانت آرنو (العلمة – ولاية سطيف) حيث يقيم و يعمل الدكتور دباغين ، وخلال هذا اللقاء عُرض عليه الأمر فطلب مهلة للتفكير ، وبعد أيام قليلة توجه إلى العاصمة والتقى بن بولعيد وكريم في غياب بوضياف ، فحياهما شاكراً وخاطبهما بالقول :« ثقتي فيكم كاملة لكنني لا أستطيع أن أقول مثل ذلك عن الآخرين» (هل كان يقصد من كانوا أزاحوه من القيادة عام 1949؟) وذلك يعني اعتذاره عن العرض . والتحق فيما بعد بجبهة التحرير الوطني تحت اسم " الدكتور موتو" .

وقُدم العرض إلى مهري عبد الحميد ومولود قاسم لكن المحاولات لم تثمر .

أدت هذه المواقف السلبية إلى وضع حد لعملية البحث عن مجموعة أخرى ودفعت بالستة إلى تبني نظام القيادة الجماعية المبنية على العمل المنسجم والروح البراغماتية ، يُعيّن فيها منسق يكلف بمهام محددة من بينها ضمان الاتصال بين

الجميع . وأجمعوا على تفاؤلهم في إيجاد المناضلين القادرين على ضمان تمثيل جيد في الخارج «يوم سيلعلع البارود في السماء .»

وبشأن اجتماع الاثنين والعشرين ، تعالت بعض الأصوات في سنوات ما بعد الاستقلال وقالت أنهم كانوا واحدا وعشرين ، مقصيةً دريش الياس صاحب الدار التي احتضنت اللقاء . وفنّد بوضياف هذه الأقاويل وأعاد الحقيقة إلى نصابها بقوله : «كيف يتسنى لنا ألا نرحب بمناضل وضع منزله تحت تصرفنا وأكثر من ذلك شارك في عملية الاقتراع؟» وللتذكير فقد جاء في اللائحة المصادق عليها ما يلي : «يكلف الاثنان والعشرون المسؤول الوطني الذي سيبرز بعد الاقتراع بتنصيب قيادة تكمن مهمتها في تطبيق القرارات العريضة المطروحة» ، نجد هذا التعقيب ضمن الرسالة التي بعث بها إلي بوضياف والتي أنشرها في الملحق .

غضب المصاليين

بدأ موقف المصاليين تجاه مجموعة بوضياف يتغير شيئاً فشيئاً ، من محاولات للتصالح إلى الشتائم والاستفزازات والمضايقات إلى قرع بالعصي .

في بداية الأزمة ، ورغم تفطنهم للعمل الحثيث الذي يقوم به بوضياف ، حاول المصاليون التصدي للمركزيين وتجندوا لهذا الغرض ، لكنهم فهموا فيما بعد بأن مساعي بوضياف سيكون لها صدى إيجابي على القاعدة وستنتشر بسرعة .

وما يوم يمر إلا ويرى المصاليون بأن نفوذهم يتقلص ، ومن جهتهم أعد المركزيون العدة لوضع حد لعدوانية أنصار مصالي الذين تطاولوا عليهم فالزعيم يريد العرش كله .

واستعمل المصاليون كل الوسائل تصدياً لمبادرات الحياديين بعدما أدركوا بأن خصومهم أشداء وأهل عزم ، وأوفدوا مناضلين موالين لهم ، ممن يحتفظون بصداقة بعضنا نحن الحياديين ، لمحاولة إقناع جماعة بوضياف بالانضواء تحت

راية مصالي . وكان الرد سلبيا ولم تُجد التهديدات والاستفزازات التي حملها هؤلاء المبعوثون نفعا .

اعتداء في كتشاوة

قام المصاليون بمهاجمة مجموعة بوضياف بطريقة مباشرة ، فهم يستهينون بالمركزيين ويرونهم فريسة سهلة .

فذات ليلة ولدى عودة بوضياف ورابح بيطاط ومراد بوقشوره وكنت معهم من سهرة رمضانية قضيناها رفقة عبد الحميد مهري ، تعرضنا لاعتداء شنته علينا عصابة مصالية في قلب المدينة في شارع «الديوان» «Rue du Divant» عبد القادر عودة حاليا المحاذي لجامع كتشاوة . وانهالت علينا فرقة فدائيين مصالية ، يقودها باسطا أرزقي أمام مقهى بلحفاف ، ضربا بالعصي تسبب في جروح خفيفة لبوضياف الذي نجا مما هو أسوأ باحتمائه خلف كرسي داخل المقهى وتحطم سوار ساعته كلية . وتلقى بيطاط سلسلة من الضربات في صدره العليل . أما أنا ، فأشبعني المصاليون الضرب إذ أصابوني بلكمات عنيفة في رقبتي وفي رأسي أفقدتني توازني وسقطت خائراً في دروج المسجد . ولو لم يتدخل بوقشورة الذي حماني وكنت لحظتها في حالة إغماء لهلكت .

وفي رسالة مؤرخة في 10 ماي 1954 ، كتب مولاي مرباح لمصالي : «البارحة فقط ، قام مناضلون من القصبة في حركة عفوية بمهاجمة بعض أنصار القياديين الذين يشتبه في أنهم أصحاب الجريدة التي تكلمنا عنها ، ولقد تلقوا على ما يبدو درساً لن ينسوه... فقد أخذ إسماعيل ما يستحق (إسماعيل هو أحد الأسماء المستعارة التي اتخذها بوضياف في نشاطه السري) . . . لكن المعركة لم تنته بعد حسبما بلغني والمهم أنها صنعت الحدث هنا... »

والحجة التي اختفى وراءها المصاليون لتسويغ «حملتهم العدوانية» هي أن الحياديين سرقوا ، حسب قولهم ، آلة راقنة وأجهزة طباعة تابعة للحزب ، وكأن كل ميراث حزب الشعب/ح . إ . ح . د هي ملك للجناح المصالي وحده .

وفي المساء ذاته أعلنت الطوارئ ، وصعب احتواء غضب وسخط بعض المناضلين الذين تنقلوا ليلاً إلى المكان وأرادوا أن يثأروا في الحين و يلقنوا الدرس لأنصار «بوحلية» .

وفي ساعة متأخرة جداً من الليل ، ربضت مجموعة صغيرة تنتظر ساعة الحسم ، وفي الغد وقع الرد وكانت حصيلته جرحى من الجانبين ، ويوجد ضمن المشوهين جسدياً رأس حربة الهجوم الذي وقع بالأمس وهو عيسى عبد اللي دركي سابق وصاحب الأوامر .

والهجوم المعاكس الذي شنه الحياديون ، قاده بوشبوبة رمضان ، مراقب الحزب ، مع فرقة من فدائيي القبة واستهدف مقر الحزب في «ساحة شارتر» عمار القامة حاليا الذي كان يحتضن في تلك الأثناء المسؤولين المصاليين ، وكان الكومندو متكوناً من كل من سيد أحمد حصام وهو قائد ولاية ونذير قصاب وهو مسؤول المنظمة الخاصة في القبة والطاهر قديوي ورشيد عبد السلامي وبدر الدين رجيمي ومحمد بدراني ومحمود بوجعطيط ومحمد ضاب (مازال على قيد الحياة) .

طوارئ على الحدود التونسية

أبلغ باجي مختار خلال شهر أوت 1954 بوضياف محمد بوجود محاربين تونسيين عبروا الحدود لطلب المساعدة وجمع الأموال والأدوية واقتناء الأسلحة ، وأشار باجي أيضاً إلى شخص اسمه حاج علي يسطو على أموال و أسلحة الناس في منطقة سوق أهراس . وبدأت الجرائد تسرب أخباراً عن دخول « فلاقة» للأراضي الجزائرية . وصرح عدة مسافرين بأنهم رأوا عند غروب الشمس حركة للوحدات الفرنسية على الحدود الشرقية ، الشيء الذي خلط أوراق باجي ورفقائه الذين خططوا لإقامة هياكل في دائرته .

كانت هذه التسللات تقلق بوضياف ، ليس لأنه لا يود مساعدة الأشقاء التونسيين وإنما لأنه من شأن ذلك أن يثير انتباه الإدارة الفرنسية ويرغمها على اليقظة الدائمة . ويصبح مناضلونا من جراء ذلك تحت المراقبة ويتعرضون

للاعتقال أو على الأقل تعطل تحضيراتهم . ومن جهة أخرى لم يتصل المقاتلون التونسيون بالوطنيين الجزائريين رغم أن بعضهم التقوا سابقا في لقاءات لم تُقطع فيها وعود ولم يُتفق فيها على استراتيجية عمل ولم تكن سوى لقاءات تعارف بين مناضلين .

أُبلغ مصطفى بن بولعيد من قبل عباس لغرور ، أحد مساعديه والمسؤول على قطاع تبسة ، بوجود حركة مشبوهة للقوات الفرنسية على الحدود ، فقد أصدرت السلطات الفرنسية منذ أيام أمراً بحظر قطع الأخشاب في الغابة ، وكانت طلقات رشاش تسمع ليلا ، كما قتل راع شاب على يد عساكر فرنسيين في مدخل الغابة ، وزادت دوريات المراقبة من حركتها ، لكن أهالي الريف لم يتعرضوا لأي إزعاج .

أقلقت المعطيات الجديدة بوضياف فهي لا تبشر بالخير في نظره ، وبدا على غير عادته متخوفا ، ربما لأن ذكرى انفجار المنظمة الخاصة عام 1950 لازالت حية في الأذهان ، فلابد من تجنب كابوس آخر ، لا يود بوضياف أن ينهار كل ما تم تشييده في ظروف قاسية ويرفض التراجع عن المخططات المرسومة التي كلفت تضحيات جسام ، وهذا يستدعي تقوية الإرادة والإسراع بالتنفيذ ، إذ يجب تحريك الجامدين وإقناع المترددين والعمل بالتالي في شكل منظم ، وما على الذين يقفون في المدرجات إلا أن ينزلوا إلى الميدان فالوقت يسير ضدنا وإذا حدث أن أخطأنا الرمية مرة أخرى سيلفظنا المناضلون والشعب إلى الأبد .

وسرد بوضياف الوقائع أمام بعض من رفقائه وأثار نقاشاً واسعاً فجاءت التعاليق كلها منصبة حول نقطة أساسية : «يجب شحذ الهمم واستباق الأحداث» .

اللقاء مع كريم

كان هاشمي حمود ، مناضلا قديما وقائد ولاية وأصله من برج منايل ، يُضرب به المثل في حسن الخلق وحب الفضيلة وكان إنسانا محبوباً يناديه المناضلون باسم «المرابط» لوقاره وسعة حكمته .

كُلّف حمود بمهمة شاقة تتمثل في القيام بوساطة بين كريم بلقاسم وأوعمران من جهة وبين جماعة بوضياف من جهة أخرى ، وشرع في مساعيه منذ شهر ماي 1954 بلقاء مع بوضياف الذي تربطه به صداقة متينة تعود لسنوات عديدة وكانت آخر مقابلة له مع سي الطيب الوطني عام 1952 ، قبيل التحاق هذا الأخير بمهمته الجديدة في فرنسا .

قام هاشمي حمود بتنقلات عديدة ذهاباً وإياباً بين مخابئ هؤلاء وأولئك وأثمرت جهوده في الأخير بفضل حسه الديبلوماسي العالي وتفانيه ، حيث قبلت الجماعتان بالالتقاء ، سيما وأن محاولات أخرى سبقته لكنها لم تنجح . وقام نايت مرزوق عبد الرحمان بتحضير هذا الاجتماع الحاسم في شارع «شان» «Rue du Chêne» بن محمد حمادة حاليا ، وهو مناضل يقدّره أوعمران كثيراً لروحه التطوعية العالية وكذا للعلاقات الممتازة التي تربطه بمناضلي جرجرة .

مكان الاجتماع الذي اختاره عبد الرحمان ملكٌ لمناضل موثوق فيه وسياسي متمرس هو ولد محمد الهادي (الذي استشهد بعد فراره من مركز اعتقال عين وسارة إبان الثورة) .

وقبيل انعقاد هذا الاجتماع في شهر أوت ، كان الجو متوترا وكانت الجماعة في حالة قلق وعصبية .

فاجأت بوضياف وهو ينظف مسدسه في حجرة دكاني الخلفية ، لم يعرني أدنى اهتمام وألقى علي نظرة خاطفة قبل أن يواصل عمله ، وكان بن بولعيد منزوياً يقرأ الجريدة دون أن ينبس ببنت شفة ولم يرتشف من كأس الشاي الذي أحضرته له منذ نصف ساعة ، ثم جاء ديدوش وبيطاط وأخيراً بن مهيدي ، لقد انتابتني الحيرة وأدهشني صمتهم لأنني عهدتهم كثيري الكلام وخفيفي الظل .

انفردت بن مهيدي وسألته عما كان يجري فأخبرني بأنهم يستعدون للذهاب إلى لقاء مهّم مع جماعة كريم وأوعمران لمحاولة عقد اتفاق .

وعندما سألته عن دواعي عصبيتهم غير المعهودة ، وهم المتعودون على مثل هذه اللقاءات ، ردّ بأن لقاء كريم وجماعته لا يثير قلقهم ، وأضاف : «نحن نعرف أنهم مصاليون وسنقنعهم بالطريق الثالث ، فهم قد عانوا وتعذبوا أكثر من الذين يسيّرونهم ، ثم إنهم سيتفهموننا لأننا نعاني نفس الجحيم إذ هم مطاردون من قِبل البوليس مثلنا ، وثبت أن الذين يعيشون في السرية يتفاهمون فيما بينهم أكثر من الذين يقيمون في المكاتب أو في الخارج ، فنحن حددنا استراتيجيتنا . .» ، فقلت : «وماذا بعد؟ » فبين لي أخيراً سبب إحساسهم بالخطر الذي يتهددهم ، وأن المصاليين تلقوا أمراً من مولاي مرباح بتصفية «الخارجين عن الشرعية» ونحن المستهدفين ، فلزم اتخاذ كل الاحتياطات ، من منطلق أن جماعة كريم انحازوا للتيار المصالي بدليل أنهم أوفدوا زعموم ليمثلهم في مؤتمر «هورنو» «Hornu » ببلجيكا .

وانعقد هذا اللقاء التاريخي الذي حدد مصير الداعين إليه وخُتم بالأخذ برأيهم وهم الخمسة وفي مقدمتهم بن بولعيد الذي تدخل في بدء اللقاء تنفيذا للخطة المتفق عليها ، إذ اختير لبعث روح التفاؤل وحمل النفوس على الانشراح واستبعاد التوتر لكون سي مصطفى يحظى بتقدير القبائل ولصداقته العميقة مع كريم وأوعمران ، فرغم تصدع الحزب عرف الثلاثة كيف يتجاوزون الخلافات ويتبادلون الاحترام والتقدير .

واستطاع المتحدث الذي كان يتمتع بحكمة وحنكة أن يحرك مشاعر المخاطَبين الوطنية ، فذكّرهم بالأحداث الأخيرة التي هزت الحركة وأدت إلى تفرق إخوان يؤمنون بنفس القضية وأعرب عن حسرته لذلك وأشار إلى أن مجموعة الخمسة جاءت بالاقتراح الذي يبدو لها الأمثل لإخراج البلاد من عنق الزجاجة .

وتلاه بوضياف بكلمة تميزت بأسلوب مباشر خال من الصنعة اللفظية ، فعرض الوضعية بوضوح تام وصراحة مطلقة ، وبين ثغرات كل طرف ، ونبّه كريم ورجاله إلى التطورات الأخيرة مُلحّاً على الشروع في العمل الميداني إذ هو الحل الوحيد الكفيل بتوحيد جميع الذين تحدوهم رغبة التحرر من

نير الاستعمار . وكان واثقاً من أن المناضلين الحقيقيين سيتجدون مع الذين سيفجرون الثورة لأن هذا ما كانوا ينتظرون وناضلوا من أجله في السرية في المدن وفي الجبال على السواء . وإذا ضيعنا الفرصة الآن ، فستتطلب عملية التصليح كثيراً من الوقت ، وسيتعقد مصير الذين يعيشون الآن في البؤس .

حضر كريم على رأس وفد من إطارات منطقة القبائل يتكون من عمر أوعمران ومحمد أمعوش المدعو موح الطويل والسعيد بعبوش ومحمد زعموم المدعو سي صالح ، وأراد كريم أن يكون على بينة من أمره فيما يتعلق بكل النقاط فطرح أسئلة كثيرة ، مشدداً على بوضياف الذي كانت لديه أجوبة على كل استفسارات محدثيه ، وفي الختام قال بوضياف : «لا نملك ثروة قارون ، ليس عندنا إلا إيماننا ، فالمناضلون معنا مستعدون للكفاح ، البعض باع عرباته وباع آخرون كل ما يملكون من متاع وأدوات . قلنا لكم كل شيء ، لا نملك إمكانات وسنحاول أن نسترجع القليل من الأسلحة التي كانت بحوزتنا في زمن المنظمة الخاصة . وبهذا اللاشيء محتوم علينا أن نعلن الثورة» .

و بنفس الأسلوب المباشر قال كريم : «هذا هو الكلام الذي كنت دائماً أحب أن أسمع ، أعتقد أن رفاقي الحاضرين هنا مقتنعون ، إذ لم تبق لهم أية أسئلة يطرحونها . كنتم صرحاء وموضوعيين ، وما نريده هو الوفاء والإخلاص والخطاب الواضح... نحنُ معكم» .

ابتداء من ذلك اليوم ، انضمّ إلى الخمسة سادسهم . وبداية من شهر أوت ، و مع دخول كريم بلقاسم ، انضم جزء من القبائل في مرحلة أولى إلى هذه النواة التي ستحرر عقد ميلاد الثورة الجزائرية .

بعد مرور أيام قليلة على الاجتماع الهام ، أخذ بن بولعيد مائة بندقية إيطالية من نوع «ستاتي» من الشحنة التي اشتراها من ليبيا عن طريق أحد رجالاته الموثوق بهم ، وهوعمار معاش المدعو«عمار مارشي نوار» «Marché Noir» وقام باتفاق مع محمد بوضياف بتسليمها لكريم بلقاسم .

وبمجرد الانتهاء من الاجتماع ، عاد الخمسة إلى محلّي وكانوا منشرحي الصدور . وكانت لكل واحد منهم كلمة يقولها ، قال ديدوش بأن دور القبائل

سيكون حاسماً ، وأردف بوضياف قائلاً : «كان الله في عون كريم ، لأنه سيلقى مشاكل مع بعض المصاليين القبائل» . وكان الجو مع ذلك مفعماً بالآمال . قام الرفقاء الخمسة بتقييم للاجتماع وأجمعوا على أن هذا التحالف الهام سيحفز المناضلين من غير شك ، وذكر ديدوش أصحابه مقهقهاً بما جرى في ماي 1954 : «حيث كان عيسى خائفاً حينما التقيت بأوعمران ، ، وسيدعونا اليوم لتناول أفضل كسكس» . وفي نفس المساء ، جلس الخمسة إلى المائدة في داري في 17 شارع لاكارير بسانت أوجين ، لتناول الكسكس . وفي الحقيقة وخلال المغامرة التي ذكّرنا بها مراد ، لم أخف من الشرطة و لكن من كوني صرت مشبوهاً لدى أصدقائي .

حدث ذلك في بداية ظهيرة أحد أيام شهر ماي من عام 1954 ، حيث اتفق ديدوش مراد وأوعمران اعمر المدعو «بوقرو» على موعد في مقهى مالاكوف ، الذي كان يملكه الحاج مريزق المطرب الشعبي المشهور . ودخل ديدوش مراد الذي وصل أولاً إلى محلي ثم وقف خلف الباب الزجاجي ، وهي وضعية تسمح له برؤية كل ما يحيط بالمحل ، إذ أنه يمكن مراقبة ثلاثة مداخل من الورشة . ولحظة بعدها ، رأى ديدوش أوعمران قادماً من مدخل ممر مالكوف «Passage Malakoff» ، فخرج إليه من الجهة اليسرى للبناية .

وبعد مرور نصف ساعة على لقاء المناضلين ، الجاري عنهما البحث من قبل الشرطة ، أثارت انتباهي حركات مشبوهة أبقتني على يقظتي ، إذ راحت ظلال خاطفة تتسلل داخل الرواق ، وكانوا فعلاً من رجال البوليس ، فقد تعرفت على مفتشي شرطة المباحث الذين أوقفوني في ديسمبر 1949 مع المحافظ فورسيولي ، وكان من بينهم المفتشان العرباوي وحميدي .

طوقت الشرطة الحيّ ، ومن خلف الباب الزجاجي المفتوح قليلاً ، كنت أراقب حركة المفتشين ورجال البوليس . وعلى ما يبدو ، فهم يعرفون جيداً طبوغرافيا المكان . لقد رأيت مفتشاً رابضاً أمام مدخل البناية التي يقطن فيها عبد الرحمان الأغواطي (الذي سيصبح فيما بعد مسؤولاً في الاتصالات) ، وهذا على مدخل ممر شارع باب الوادي . وكُلّف شرطي ثان كان مقابلاً للأول بمراقبة

المخرج الثاني الذي يطل على شارع جنينة ، وأعتقد أن هناك رجال بوليس كانوا مترصدين وراء المخرج الثالث للممر المؤدي إلى شارع قصر «بروس» القديم «Palais de Bruce» الحاج عمر حاليا ، استعداداً للتدخل .

انتابني الفزع لأنه لم يحدث شيء ، وقمت بجولة سريعة في ورشتي لكي أتحقق من أنه لا يوجد شيء بداخلها قد يورطني ، سيما وأن المحل كان منذ أسابيع مكتظاً بالزوار ، إذ كانت الاتصالات مكثفة وعرف المسؤولون نشاطاً حثيثاً بتحفيز من سي الطيب ، وكثف كل من بوضياف و بن بولعيد و بيطاط و ديدوش من الاتصالات مع الفصيلتين المصالية والمركزية وخاصة مع مناضلي جرجرة لإقناعهم بضرورة اللحاق بهم .

كنت أرقب دون انقطاع حركة رجال البوليس ، وبعد ساعة من الزمن ، رأيتهم يغادرون المكان فتنفست الصعداء . . .

وسارعت بعدها إلى 28 شارع ميلوز «Mulhouse» وأبلغت بوقشورة مراد بما جرى ، واتفقنا على أن يتصل كل واحد منا في أسرع وقت ببوضياف وبيطاط وديدوش وبن مهيدي لتحذيرهم من الاقتراب من الحي لبضعة أيام . وكنت مذعوراً لفكرة احتمال تسرب الخبر ، فقد نكون السبب في إيقاف أحد الأعضاء وفي نسف عملية التحضير للثورة المسلحة . وسيكون ذلك بمثابة الكارثة التي لا أريد أن تقع داخل محلي .

بعد هذا الإنذار الكاذب ، راودت الشكوك بوضيافَ الذي كلف بيطاط بجس نبضي ، وزال الشك بعد حديث صريح مع بيطاط . وحاول ديدوش أن يقنع بوضياف بأنه من المحتمل أن يكون أحد المخبرين الموجودين في الضواحي قد تعرف على أوعمران وتابعه خلال موعدهِ . وقدم لي بوضياف اعتذاراته قائلا : «كنت تحت الضغط» ، وقد روى لي الطرفة بقهقهات عالية حول كأس شاي .

محاولات للتجمع

كان بوضياف مصمماً على تكثيف مساعيه من أجل انتقاء العناصر ذات التكوين الجيد ليعرض عليها الالتحاق بصفوفه ، وأراد أن يجمع أكبر عدد ممكن حتى يتوفر لديه التأطير اللازم للقوة الثالثة .

اتصالات في كل الجهات

شرع بوضياف في مساع لدى بعض العناصر القادرة على تمثيل قاطرة الحركة ، وفي هذا الإطار كلفني بإجراء اتصال مع بن مقدم محمد الذي احتفظت بعلاقتي معه منذ زمن إقامته في مخبئي حيث آويته في مطلع عام 1951 إثر انكشاف المنظمة الخاصة ، ويعتبر من المناضلين المتمرسين ومن ذوي التجربة الطويلة وشارك عام 1944 في التمرد الذي وقع بثكنة الحراش وفي الهجوم على مخزن بارود بمدينة شرشال ، ثم ألقي عليه القبض وحُكم عليه بعشرين سنة حبسا قبل أن يستفيد من العفو .

ولم يتوصل بوضياف إلى إقناعه بالانضمام إلى صفوف الحياديين لكونه اتخذ موقفاً مع المصاليين ، غير راغب في الانضواء تحت راية اللجنة الثورية للوحدة والعمل ، وكل ذلك هراء في نظره إذ كان يقول : «أنا مع العمل المباشر ، ويوم تبرهنون على ذلك ، ستجدونني إلى جانبكم» ، وهذا ما فعل حقاً فور اندلاع الثورة ، إذ عمل مع رابح بيطاط ثم مع عبان رمضان .

بعد بن مقدم ، استدعيت محفوظي محمد ، المشهور في الحزب ببلاغته في الخطابة ، ويعتبر من أكبر الخطباء في الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية . وبعد ساعة من الحديث ، لم يحصل تفاهم ، وبقي محفوظي وفياً لمصالي .

وفي مقهى «ألكسندري» ، على امتداد الجبهة البحرية باتجاه بولوغين ، ضرب بوضياف موعداً مع صالح لوانشي الذي جاء رفقة محمد دراني النقابي والقائد الكشفي ، وطلب من بوضياف توضيحات حول موقف بعض إطارات فدرالية

فرنسا ولم ينس بنفس المناسبة أن يعاتبه على مواقفه الصارمة تجاه المركزيين الذين كان الوانشي واحداً منهم .

حاول بوضياف مطولاً أن يقنع صالح بصحة وجهة نظره نحو المركزيين والمصاليين . والآن وقد انفجر الخلاف ، أطلق العنان للسانه وراح يكشف عن تناقضات هؤلاء وأولئك ، جماعات وأفراداً ، وعن وجود انحرافات وأخطاء . واستطاع في الأخير أن يقنع الوانشي صالح بالانضمام إلى استراتيجية الخروج من الأزمة التي صورها ، وإن كان فشل في ضمه إلى صفوف الحياديين .

أثناء الحفل الذي أقامته جريدة «ليبرتي» الشيوعية ، كنت بمعية مصطفى بن بولعيد ومراد ديدوش ومراد بوقشورة نتنزه على مقربة من ملعب «مارسيل سردان» حيث كانت تجري منازلة في الملاكمة ، وعندما رأى ديدوش عمر أوصديق وسط مجموعة صغيرة ، اقترب منه وحاول أن يستدرجه . وكان عمر يتمتع بتعاطفهم ، كونه ناضل معهم في زمن حزب الشعب ، قبل أن يرتقي درجات المسؤولية ليحتل منصباً في أعلى هرم الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية . وتحدث مراد أكثر من نصف ساعة مع أوصديق ثم عاد إلينا أمام الحلبة حيث كنا ننتظر ، فقال له بن بولعيد : «ماذا هناك؟» ورد ديدوش : «لقد قال لي : تركت قلبي لحزب الشعب ، لكني اخترت الانخراط في الحزب الشيوعي» .

استقبل سي الطيّب مبعوثاً من باريس هو عبد الله فيلالي المدعو «الخفيف» الذي يعتبر الذراع اليمنى والناطق باسم مصالي ، وقد جاء ساعياً لاستمالة بوضياف ورفاقه إلى صفه ، وأبلغه بأن جماعته عازمة على تطهير صفوف الحزب ، ووعده بأن يضع تحت تصرفه كل الإمكانات ، ورد عليه بوضياف قائلاً : «عندما يفقد المرء إيمانه ، تسقط روحه بين يدي الشيطان . القطار سينطلق ، لا تبقوا على الرصيف أو لا تعطلوا الإقلاع» .

طلب مني بوضياف أن أنظم له لقاء مع الحاج العربي الهاشمي المدعو «سليمان لاجودان» (والبعض يناديه «جودان») عرف بهذا اللقب نسبة إلى رتبة المساعد التي تقلدها في الجيش الفرنسي ، وكان في السابق مسؤول دائرة .

استغل الأزمة الداخلية للحزب ليعتزل النشاط السياسي ويتولى مسؤولية التسيير التجاري لمطبعة الحزب ، الكائنة بشارع محمد صغير سعداوي ، «بوريلي لاسابي» سابقاً . « ex « Borely la sapie

وبما أن مهنة الانتداب التجاري تستلزم الهندام والهيئة اللائقة ، كان بحاجة لخدماتي كخياط لأفصل له اللباس اللائق به ، وأصبح واحداً من زبائني ، كما طلب مني مساعدة لأجد له مسكناً فقد غُرم بفتاة كانت تعجله في الوفاء بعهده بالزواج وهو المتقدم في السن . لقد كان يحب هذه المرأة حباً جماً فصارت هاجسه الوحيد وكان يبدو لي مستعداً لأن يفعل كل شيء من أجل تحقيق حلمه . وعندما سألني بوضياف عن رأيي في «لاجودان» ، وصفت له وضعيته الاجتماعية والأخلاقية ، وكان حكمي سلبياً ، فقد كنت أرى فيه إنسانا عاشقاً لا يستطيع أن يتفرغ لعمل سياسي يفرض في تلك الظروف العزوف عن الحياة العائلية الهادئة . وقال لي بوضياف بأنه لا يسعنا أن نعثر على النماذج التي نريدها أينما نريد ، ففي إطار نشاطاته الحزبية ، برهن «لاجودان» على قدرته في تأطير المناضلين وإنجاز عمل بناء ، وقد سمحت له هذه الصفات ، فضلاً عن تجربته في الجندية ، بالارتقاء إلى منصب مسؤول دائرة . وطلب مني بوضياف أن أنظم له مقابلة مع المعني ، وتم اللقاء في محلي فأقنع بوضياف «لاجودان» بالانضمام إلى حركة النهج الثالث ، ووُضع تحت تصرف بن بولعيد الذي قام وباتفاق مع بوضياف ، بإرساله في مهمة إلى منطقة بسكرة بغية تحضير هياكل الولاية السادسة القادمة ، رفقة مناضلين آخرين من بينهم برحايل وعبد القادر العمودي .

قررت الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية ، بصفتها حركة معترفاً بها تمارس نشاطها السياسي في وضح النهار ، اقتناء مطبعة لأغراضها الخاصة بأشغال الطبع وخاصة لنشر لسان حالها «لالجيري ليبر» وهي صحيفة إخبارية تعتني أيضاً بتكوين المناضلين ، وأعطيت توصيات لمتابعتها وتوزيعها على القراء .

بالتعاون مع الهيئة المسؤولة عن الدعاية والإعلام التي تمثل أحد فروع الحزب ومهمتها تتلخص في تزويد المنظمة وصحافتها بالأخبار بمساعدة صحفيين ، قامت القيادة بإحصاء أسماء عدد من المناضلين والتجار والحرفيين لتسجيلها في قائمة المساهمين (المشاركين بالأسهم) . وبهذه الصفة أصبحت عضواً في مؤسسة الطباعة التابعة للحزب وكنت أزورها من حين لآخر . كان لي اسم مستعار . وقيل لي بأنه لا داعي لانتظار فوائد ، وقدّمنا نسخاً من السجل التجاري لهذا الغرض .

مسير هذه المطبعة الواقعة بحي باب الوادي هو الحاج شرشالي ومديرها الفني حداد مجيد ، وكانت توظف عددا لا بأس به من المناضلين من ذوي التكوين الابتدائي أو الثانوي ، وبعضهم تم تكوينهم في مجالي التنضيد والطباعة .

وفي يوم 24 نوفمبر 1954 ، تم غلقها بقرار ولائي .

حمادي الريفي في العاصمة

دائماً في إطار التحضيرات الخاصة بالبحث عن مسؤولي التأطير ، قرر بوضياف إرسال ثلاثة مناضلين بارزين للتكوين العسكري في مصر . الأول ، حميد بوضياف ، وهو عنصر برهن على قدراته في الأوراس وله مستوى دراسيا معتبرا ، وكان من اقتراح بن بولعيد الذي عاش معه لمدة طويلة . كان حميد إنسانا مقتدراً ونشيطاً ، ففضلاً عن نشاطاته السياسية مع مختلف الخلايا ، كان يؤطر في باتنة الفرقة الكشفية «الرجاء» رفقة بوشكيوة يونس وهو مسؤول قسمة وبوشيط الهاشمي وحسين جراح ، وخرّجت هذه الفرقة فيما بعد كوكبة من مناضلي القضية الوطنية ومن المجاهدين البواسل الذين سقط بعضهم في ميدان الشرف . وكان حميد نابغا في مجال الطوبوغرافيا واستفاد كل أفراد الكشافة من معارفه .

جاء حميد بوضياف مرفوقاً بمناضل ثان هو صباغ عبد القادر ، يعمل كمركّب آلات بالعاصمة ، وكان اقترحه رابح بيطاط على أساس أخلاقه العالية وإخلاصه .

سافر الرفيقان إلى القاهرة وكان من المفروض أن يتصلا ببن بلة ، حسب التعليمات الدقيقة التي تلقياها من رابح بيطاط الذي شرح لهما المهمة في أدق تفاصيلها وأعطاهما تعليمات على أساسها ، وأوضح لهما بأنه يتعين عليهما إجراء تربص في التكوين شبه العسكري في أول دفعة ثم يلتحق بهما ستون مناضلاً . واتفق الستة على إرسال عشرين عنصراً من كل إقليم . وأبلغهما بيطاط بمساراتهما ومحطاتهما والأشخاص الواجب الاتصال بهم وكذا كلمات السر . وقاما بالسفر... راجلين . وتمت الرحلة من دون عراقيل إلى غاية الوصول إلى الحدود الجزائرية التونسية . وكان في استقبالهما رجل من القائمين بالاتصال ، وبمجرد أن اكتُشفا وعُلم بأنهما غريبين ، جاءهما لينبههما إلى الخطر ويوصيهما بالرحيل في المساء .

وأرفقهما بدليل أخرجهما من البلدة وصاحبهما لردح من الزمن ، وأراهما نقاط العبور وتركهما في الخلاء وسط الليل .

عندما لمح صاحبانا أفراداً من الدرك على التراب التونسي وخوفاً من المراقبة ، بالنظر للأوضاع السائدة في تونس آنذاك ، قاما بإتلاف الوثيقة التي أعطيت لهما في العاصمة والتي تحوي كل المعلومات الخاصة برحلتهما .

وتاه الرجلان في الطريق ولقيا صعوبات جمة فيما بعد . لم يكن معهما مال فباتا ليلتهما في العراء جائعين ، وعانيا كثيراً في الطريق الرابط بين بن قردان وتاطاوين . واصلا رحلتهما حتى طرابلس ، تارة راجلين و تارة أخرى على ظهور الجمال . ووصلا بعد مشقة وشرعا في البحث عن أعضاء مكتب المغرب العربي . أبلغهما مناضل من معسكر اسمه بدوي مدني بأن قاضي بشير وهو همزة وصلهما تعرض لعملية جراحية في فزان وبأنه سيعود في بضعة أيام . وفي انتظار ذلك ، وجد لهما مدني مأوى عند ثلاثة تونسيين من قابس يسكنون شقة في طرابلس ، والتقى بهما بعد ثلاثة أيام وأبلغهما بوصول بن بلة الوشيك ، وكان قد مر أكثر من شهر على مغادرتهما الجزائر .

صبرا أسبوعاً آخر وتمكنا في النهاية من الالتقاء بسي أحمد بن بلة الذي فرح كثيراً بلقائهما . لقد كان يسعى للدّخول في اتصال مع جزائريين مجندين لأنه

كان يريد أن يوصل إلى العاصمة الجزائرية منخرطاً جديداً أتى به من القاهرة يدعى حمادي عبد العزيز المدعو «الريفي» وهو من المغرب الأقصى ، فأوكله إياهما . انخرط الريفي الذي تخرج من مدرسة حربية في بغداد برتبة ملازم أول ، في جيش تحرير المغرب العربي تحت قيادة عبد الكريم الخطابي ، فبمقدوره أن يساهم بشكل معتبر بحكم خبرته الواسعة في مجال المتفجرات والاتصالات ونزع الألغام و العمليات التخريبية... فطلب بن بلة من بوضياف حميد وصباغ عبد القادر العودة إلى الجزائر ومرافقة هذا العنصر الجديد .

انصاعا للأمر رغماً عنهما لا لشيء إلا لأنهما مناضلان منضبطان . وأمنيتهما أن يستفيدا هما أيضاً من تكوين مثل الريفي الذي صار مستعداً لدخول غمار الحرب ، وهو متمرس ومتمكن من المناورات العسكرية .

سلك المناضلان ، وهما مصحوبان برفيقهما الجديد ، الطريق المعاكس . وبعد رحلة طويلة ، كانت أقل مشقة من الأولى لأنهما لم ينل منهما الجوع ، وصلهما خبر اندلاع الثورة وهما في منتصف الطريق .

وعند وصولهما إلى الجزائر العاصمة يوم 11 نوفمبر 1954 ، حاول حميد مع الريفي الاتصال بواحد منا ، أنا ومراد بوقشورة ، المكلفيْن بالاتصالات ، وتفاجأ عندما تلقيا خبر اعتقالنا وإيداعنا الحبس .

راح حميد ، المناضل المتمرس والمتعود على حياة السرية ، يبحث عن مناضلين تتوفر فيهم بعض المواصفات ، وقال : «في حالة ما إذا لم أعثر ، سآخذ معي الريفي إلى الأوراس» .

لكن في الأخير توصل إلى ربط صلة مع ابن أخي كشيدة عبد الله المدعو مراد ، الذي آواهم في مخبزة ياسف سعدي ، وتم عقد صلة مع مجاهدين من القبائل تكفلوا بعبد العزيز حمادي الريفي الذي أصيب فيما بعد بجروح في إحدى المعارك ووقع أسيراً لدى جيش العدو في 15 جانفي 1955 ، وقالت السلطات الفرنسية بأنها اكتشفت وجود ضابط عراقي في صفوف «الخارجين عن القانون» .

أبلغ حميد بوضياف ، الذي كان واثقاً من أن صاحبه موجود بين أيادي آمنة ، أبلغ بيطاط الذي التقاه بفضل عبد الله بمغامرته مع صباغ ، وكلفه بوضياف من جديد بمهمة في القاهرة . وبالنسبة لحميد ، لا مجال لأن يعيد نفس المشوار راجلاً لأنه كان متعباً جداً ، فاقترح عليه بوضياف المرور عبز فرنسا ، ليتكفل ياسف سعدي بدفع ثمن التذكرة ، فانطلق حميد نحو مغامرات جديدة . وسنراه فيما بعد في الجبل ضابطاً في جيش التحرير أنهى مسيرته في الدرك الوطني برتبة مقدم .

كشاف عند عبد الناصر

المناضل الثالث الذي كان عليه أن يلتحق بالقاهرة من أجل التكوين العسكري يدعى الطيب خراز وهو مناضل من بسكرة ، اختاره بن مهيدي الذي عرفه في البداية كقائد كشافة ثم كمناضل في نفس الحزب . واغتنم الطيب ، الذي كان لازال ينشط في الكشافة ، فرصة مرور قافلة الكشافة الإسلامية الجزائرية على القاهرة لحضور المؤتمر الدولي للكشافة العربية المنعقد بدمشق الشام في أوت 1954 . وقد سجل اسمه في قائمة المشاركين ، المسؤول الوطني للكشافة ، عمر لاغا ، بطلب من رابح بيطاط .

عند وصوله إلى طرابلس ، استُقبل الوفد الجزائري للكشافة من قبل بن بلة الذي كان في مهمة بالعاصمة الليبية ، وطلب من خراز الاتصال بخيضر وآيت أحمد بمجرد وصوله إلى القاهرة . كما استُقبل الوفد الجزائري من قبل الممثلين الجزائريين لمكتب المغرب العربي وقدّمه هذان المسؤولان للرئيس عبد الناصر والفريق محمد نجيب . وبعد ذلك ، طلب بن بلة من الطيب خراز الذي التقى به في القاهرة العودة إلى الجزائر لأن التحضيرات جارية على قدم وساق ولأن الثورة بحاجة لمناضلين من طرازه .

عاد خراز إلى الوطن و كلفه بن مهيدي بالتوجه إلى بسكرة لتقديم مساعدة في استقبال العناصر الجديدة وتنظيم هياكل اللجنة الثورية للوحدة والعمل

بمساعدة حسين برحايل ، مسؤول في الأوراس وممثل عن بن بولعيد لتنظيم المنطقة .

كان هناك أيضاً في بسكرة الحاج العربي الهاشمي المدعو سليمان «لاجودان» الذي ساهم بالمنطقة في وضع هياكل مهيأة لتكون قاعدة للناحية السادسة (الجنوب) ، ونظراً لنقص الإطارات ، ألحقت بالناحية الأولى (الأوراس) .

حباشي في بلاد القبائل

دائماً في سياق تجنيد كافة القوى الكفيلة بالتحالف مع الحياديين ، أسند بوضياف ، باتفاق مع كريم بلقاسم ، مهمة إلى حباشي عبد السلام ، وكلفه بالتوجه إلى منطقة القبائل قصد تنظيم حملة شرح وتوضيح .

وكان بوضياف يولي أهمية خاصة لمنطقة القبائل ، لذلك ترك حباشي حرا في اختيار الوسائل المسخرة المدة التي تستغرقها المهمة ، وكان لابد من رفع كل الالتباسات المتعلقة بالتيار الحيادي والعناصر التي تبنت الخط الثوري . وكان لابد من استعمال سلاح الديبلوماسية والإقناع وتفادي خدش المشاعر لكسر «الطابو» المصالي الذي لازال يؤثر على أغلبية المناضلين القبائل إلى حد عبادة الشخصية .

التحق حباشي ببلاد القبائل واتصل بزعموم صالح الذي دعاه كريم لأن يسهل له الدخول إلى الهياكل ويساعده في تنقلاته عبر سائر المنطقة . ولم تستغرق مهمة حباشي وقتاً طويلاً فقد عرفت نهاية مبكرة . هل كان ذلك بسبب خطأ تكتيكي أم سوء حظ أم بسبب وشاية؟ المهم أن حباشي أوقف في ناحية يسّر من قبل الدرك الذين لاحظوا بأنه غريب عن القرية ، غير أنه تمكن من الفرار بمساعدة مناضل وضعه زعموم دليلا في خدمته .

وأعلم حباشي في تقريره إلى بوضياف بمغامراته وخيبته ، وفي ختام التقرير كان عبد السلام واثقا من أن القبائل ليسوا جامدين بالدرجة التي يظنها البعض فيما يتعلق بموقفهم من الحياديين ، فالمنطق السليم هو الذي تغلب في النهاية ، وإذا كانوا لايزالون تحت سيطرة مصالي وموالين له فلأنهم لم يسمعوا صوتاً

غيره . وبحكم طبيعتهم الثورية ، ظل حباشي مؤمناً كل الإيمان بأنهم سوف يلتحقون بالتيار الحيادي إن وجدوا من يحررهم من هذا العبء ، وهذا يستدعي التحاور مع الجميع إطارات كانوا أو قاعدة نضالية .

ارتاح بوضياف لهذه النتائج ، فقرر إرسال مبعوث آخر متمثلاً في شخص عبد الله فاضل استدعاه من عنابة . وذهب العنابي إلى القبائل لأداء مهمته ، فمكث هناك إلى غاية انطلاق الثورة وخاض معارك معهم ، وفي إحداها ، جرح ووقع أسيراً في نفس الفترة التي أسر فيها حمادي الريفي . وبعد أسر هذا الأخير شن الفرنسيون حملة إعلامية واسعة حول جنسيته «العراقية» (المزعومة) وتدربه في «مصر» .

الوفد الجزائري للجنة المغرب العربي بالقاهرة

أخبرنا بوضياف بأنه تم الاتصال بالوفد الجزائري للجنة المغرب العربي بالقاهرة ، ممثلاً بأحمد بن بلة ومحمد خيضر وحسين آيت أحمد ، وذكر بأن المناضلين الثلاثة لا يدخرون جهداً في سبيل تقديم مساعدة معتبرة لقضيتنا .

كان بن بلة الذي التقى ببوضياف في باريس بعد فراره من سجن البليدة مع محساس ، قد انضم نهائيا إلى طروحات بوضياف وإلى فكرة تأسيس اللجنة الثورية ، وبرهن على استعداده للعمل مع جماعة الحياديين ولإقناع رفيقيه في القاهرة ، سيما وأن هذين الأخيرين من أنصار النهج الثوري .

واستغل بن بلة علاقاته مع السلطات المصرية ، وخاصة مع فتحي الذيب مسؤول المخابرات المصرية ، للدخول عند الرئيس عبد الناصر والحصول على وعد منه لمساعدة الحركة الوطنية بشكل ملموس تقدّم فقط في حالة الشروع في تنفيذ عمليات مسلحة على التراب الوطني ، وحصل اتفاق مبدئي على تكوين مجاهدين جزائريين بمصر في مجالات التسليح والصيانة والألغام والتخريب .

لقــاء مع مغــاربة

اتصل بن بلة ببوضياف ودعاه للالتحاق به في مدينة «برن» السويسرية ، من أجل التحدث مع لحول حسين ويزيد محمد ، عضوي اللجنة المركزية . وخلال هذا الإجتماع ، الذي حضره أيضاً بن بولعيد وديدوش وبن مهيدي ، أعطى العضوان المركزيان موافقتهما المبدئية على منح مساعدة مالية ، لكن ذلك لم يتحقق ، لأن اللجنة المركزية لم تأخذ برأي ممثليها . وما إن وصل بوضياف إلى الجزائر العاصمة ، أبلغه بن بلة مجدداً باجتماع وشيك في «برن» مع زعيمين مغاربيين وألح عليه بالحضور ، وشدّد كثيراً على أهمية هذه الفرصة .

أخبرني بوضياف بالأمر وطلب مني أن أخيط له بدلة ، فقد أراد أن يظهر بهندام لائق . ولما قرر أن يصحب معه ديدوش ، أبدى هذا الأخير رغبته في أن يظهر بهيئة جيدة فخطت له بدلة هو الآخر .

في سويسرا ، التقى بوضياف وديدوش وبن بلة بعز الدين عزوز ، مناضل تونسي مقيم في ليبيا ، وعبد الكبير الفاسي ، مسؤول مغربي . وأثناء هذه الاجتماع ، أدرجت نقطتان في جدول الأعمال هما : وضع أسس تعاون بين الحركات الثلاث ، وتعهد المغاربة بإمداد الجزائريين بالسلاح .

وسمح هذا اللقاء ، حسب بوضياف ، بتمتين الأواصر بين حركات التحرر المغاربية ، سيما وأن مهري عبد الحميد ظل من جهته في اتصال دائم منذ 1952 مع مناضلين بارزين من أمثال الطود الهاشمي وحمادي عبد العزيز من المغرب الأقصى والطاهر قيقة من تونس ، وصحيح أن مهمة مهري الصحفية كرئيس تحرير لمجلة «المنار» كانت تسمح له بالتنقلات والاتصالات .

وفور عودة بوضياف إلى الجزائر ، أبلغ بن مهيدي وبيطاط اللذين وجدهما في محلي بمعية مراد بوقشورة ، بما حصل . ورغم أنه كان مرهقاً فقد كان فرحاً لفكرة استلام أسلحة . وقال لبن مهيدي : «مشكلة تسليح الإقليم الوهراني محلولة جزئياً ياحكيم . . . نذهب غداً إلى وهران» تمنينا لو استراح على الأقل يومين معنا فقد كان عيد الأضحى على الأبواب ، لكن ذلك لم يحصل لأنه

كان متعجلاً في أمره ، ورغم التعب الشديد ، سافر في الغد رفقة صديقه العربي إلى وهران لتنظيم منطقة الغرب ، واجتمع بالمناضلين ووعدهم بإمدادهم بالمؤونة والسلاح عبر الحدود المغربية ، كما اتصل بوطنيي المغرب الأقصى وحدد معهم نقاط العبور (في حديث لجريدة «لوموند» بتاريخ 2 نوفمبر 1962 ، كشف بوضياف بأن الأسلحة التي دفع ثمنها للمغربي لم يتم تسليمها على الإطلاق) .

من جهة أخرى ، تمكن بن بلة من عقد صلة مع تاجر أسلحة لإرسال سفينة يونانية بحمولة من الأسلحة بقيمة 5 ملايين فرنك . وسعينا للحصول على هذا المبلغ دون جدوى ، وكنا في سباق ضد الساعة لأن التاجر حدد أجلاً ، كما التمس بوضياف وبن بولعيد مساعدة من اللجنة المركزية ، فمنحته مبلغاً متواضعاً .

ومن جانبي ، سلمت لبيطاط كل ما اقتصدته لاقتناء محلي الجديد في شارع مالاكوف ، لأنه هو المكلف بعقد الصفقة والذهاب إلى فندق «سيمبلون» بمدينة «برن» السوسرية .

كان كل البريد المتعلق بهذه العملية يصل إلى مكتب بريد «البورصة» وكان ابن أخي عبد الله يذهب لتسلمه . لم نتمكن من جمع الخمسة ملايين في أجلها فضيعنا الفرصة الذهبية المتاحة لنا ، وباءت أول محاولة لشراء أسلحة للثورة بالفشل .

اللمســات الأخيــرة

تحفزت مجموعة الخمسة التي أصبحت مجموعة الستة بالتبعات التي ترتبت عن اجتماع الاثنين والعشرين وبالدور الذي أسهم به كريم بلقاسم ، فقامت تنشط في الميدان وتكثف من تخطيطاتها وضبط حساباتها .

نُظم تربص تكويني مكثف لتقني المتفجرات تحت إشراف بن بولعيد داخلِ مزرعة المناضل قدور الهجيم في خرايسية في ضواحي العاصمة ، وجمع فريقاً من خمسة عشر عنصراً هم : محمد العربي بن مهيدي ، مراد ديدوش ، رابح

بيطاط ، عبد الحفيظ بوصوف ، بوجمعة سويداني ، بن عبد المالك رمضان ، الحاج بن عله ، بوعجاج الزبير ، حميده زبانة ، محمد مرزوقي ، ناصر كويني ، عثمان بلوزداد ، مختار قاسي عبد الله ، عبد الرحمان قاسي عبد الله .

لقد جاءوا من الأقاليم الثلاثة للمشاركة في تكوين أولي على حمل السلاح وصناعة المتفجرات ، ولم يكن هذا التربص إلا رمزيا ، فالصدى الذي أحدثه هذا اللقاء قوى قناعة الحاضرين بأن تنظيما وطنيا كان موجوداً فعلاً .

خليتــان عمليتــان

أسندت التحضيرات على مستوى العاصمة إلى بيطاط الذي أنشأ خليتين ، تخص الأولى فرق الصدام وتعنى الثانية باللوجيستيك . واحتفظ بعناصر الخلية الثانية على أساس أنها دخلت النشاط من قبل ، أما الخلية الأولى فعيّن كمسؤول عنها بوعجاج زبير ، وهدفها إحداث صدمة نفسية في وسط الرأي العام .

المجموعات موزعة حسب المرافق المستهدفة ، وتتمثل في :

1 – راديو الجزائر : قائد المجموعة الأولى مرزوقي محمد ، ويساعده شعال عبد القادر و أديم محمد و توجين عبد الرحمان .

2 – راديو الجزائر : قائد المجموعة الثانية عباسي مدني ، ويساعده جفافلة عبد الله و بوطوش عمر و ليمان عبد الرحمان .

3 – مؤسسة موري : قائد المجموعة بلوزداد عثمان ، ويساعده كل من قاسمية مولود و بن سليمان يوسف و حرثي محمد و لعراب امحمد .

4 – مؤسسة الجزائر الكبرى : قائد المجموعة الأولى قاسي عبد الله مختار .

5 – مؤسسة الجزائر الكبرى : قائد المجموعة الثانية قاسي عبد الله عبد الرحمان ، ويساعده كل من الحجيم قدور و سكات عبد القادر و سكات براهيم و قاسمية عبد القادر و جعلال عمر .

6 – محول المركزية الهاتفية : قائد المجموعة بيسكر أحمد ، ويساعده كل من براقة مجيد و قرماط شريف و مصباح محمد .

7 – مؤسسة الفلين بالخروبة : قائد المجموعة نابتي صادق ، ويساعده كل من بورابة عيسى و سمينة أحمد عيبي و جلولي بوعلام .

. ويضاف إلى المجموعات السبع هذه أسماء مناضلين آخرين : بوستة عبد القادر ، وحدانو محمد المدعو موحيسن ، وحالس سعيد ، والعيشاوي محمد و دريش إلياس المكلفون بمهمات أخرى .

في إطار تحضير هياكل الكفاح ، اقترح بوضياف إنشاء لجنة مكلفة باللوجستيك في العاصمة ، ويتعين على هذه المجموعة أن تهتم أساساً ببعض النشاطات لتسهيل السير الحسن للشبكة :

- استقبال المسؤولين الوافدين من داخل الوطن وخارجه ؛
- ترتيب المخابئ لإيواء المطاردين من قبل السلطات ؛
ضمان الاتصالات و التناوب وصناديق البريد ؛
- ضمان توزيع الجريدة والمناشير .

وللقيام بهذه المهام ، تقرر انتقاء عدد من القدامى المتمرسين ، المتفرغين للعمل السري والمنضوين في صفوف الحياديين .

فُرض هذا الخيار الانتقائي والمحدود على قدر أهمية ودوام الدور المسند إلى المجموعة . ففي هذه المرحلة الجديدة ، تلزم اليقظة في كل لحظة لتفادي وقوع أي تسرب ، وعلى هذا الأساس تم تعيين كل من بوقشورة مراد ونايت مرزوق عبد الرحمان ومسعودي عبد الواحد وزرقاوي مصطفى وأنا .

نفس هذه العناصر سبق لها أن عملت سوياً وقامت بنفس المهام المذكورة آنفاً ، فإنه موثوق فيهم وسيشكلون الخلية اللوجستيكية تحت مسؤولية رابح بيطاط .

الأيــام الأخيــرة

في يوم الجمعة 22 أكتوبر 1954 وبعد خروجي مع بوقشورة من العمل حدود العصر ، توجه أحدنا إلى بولوغين والآخر إلى رايس حميدو ، وأراد

بيطاط أن يروّض عضلات ساقيه ، فانضم إلينا مسافة من المشوار قبل أن يلتحق برفاقه الخمسة . وفي الطريق ، عند وصولنا إلى 6 نهج بوبلة في باب الوادي ، أريت لرابح مصوراً فوتوغرافيا ورحت أمدح له جودة منتوجه في حالة ما إذا رغب في التقاط صورة تذكارية .

يقع محل هذا المصور بعيداً عن الأماكن التي كنا معروفين فيها من الجيران ومن رواد مقهى مالاكوف الذين صنّفونا .

وصحيح أنه في تلك الفترة كان المناضلون ينصحون بعدم التقاط صور لدى المصورين المتجولين المعروفين بعلاقاتهم مع مصالح الشرطة . أما بداخل الاستوديوهات ، فليس بوسع البوليس أن يكتشف المشتبه فيهم ممن هم محل البحث ، سيما وأننا لا نكشف عن هويتنا الحقيقية للمصورين .

سجل بيطاط العنوان وفي الغد ، يوم 23 أكتوبر ، وقبل انعقاد الاجتماع التاريخي والأخير للمجموعة ، ذهب مهندسو الثورة إلى المصور المذكور والتقطوا عنده الصورة التذكارية المعروفة .

وذات يوم ، وبينما كنا معاً في سجن سركاجي ، ذكّرني بيطاط بتلك اللحظات واعترف بمدى صحة اختيار ذلك المكان ، بدليل أن الشرطة الفرنسية لم تضع يدها أبداً على الصورة .

آخر اجتماع للستة

اصطحبت بوقشورة مراد كالعادة بعد نهاية العمل لشرب قهوة والحديث قليلاً . وعند وصولنا إلى منزله في 42 شارع «كونت غيو» في «بوانت بيسكاد» (شارع بشير بديدي - رايس حميدو حاليا) ، ودُعيت للدخول لإتمام موضوع حديث ممتع . فوجدت نفسي صدفةً في ظهيرة ذلك الثالث والعشرين أكتوبر 1954 حاضراً للاجتماع التاريخي الأخير الذي سيقرر فيه كل من بوضياف وبن بولعيد وبن مهيدي و بيطاط و ديدوش و كريم مصير شعب بأكمله .

وقبل افتتاح الجلسة التاريخية ، تبادل الستة بعض الحديث ، وتكلم سي مصطفى عن القصة المشؤومة لـ«أعراب» (أنظر الفقرة الموالية) وعن المتاعب التي

لقيها من أجله . وقال أنه لا يريد أن يخلق سابقة مع الإخوان القبائل ، لأنه يعرف جيداً وزن التقاليد لدى أهل الريف ، فتصفية الحسابات عن طريق الثأر ممارسة منتشرة في الأوراس وفي القبائل أيضاً ، فعندما يتهم شخص غريب بقتل فرد واحد من قبيلة ما ، تأتي هذه القبيلة لتثأر له بتصفية فرد من القبيلة الأخرى... النفس بالنفس .

ولم يرد بن بولعيد الثأر : «أوكل لنا أعراب لكي نحميه ، ولا يحق لنا أن نخون الثقة التي وضعها فينا إخواننا القبائل... لقد ارتكب خطيئة ، وعلى دشرته أن تتخذ الإجراءات اللازمة» .

تكلم بن بولعيد بكثير من التأثر والرزانة ، والتزمنا كلنا الصمت : أنا وبوضياف وديدوش وبن مهيدي وبيطاط والشقيقان بوقشورة . ولشدة التأثر نهض كريم وعانق بن بولعيد بحرارة وقبله بقوة على الخدين ، مشهد ستبقى ذكراه خالدة وكان لي الشرف أن أحضره وألمس فيه ألفة رجلين شهمين وبطلين .

بعد التحيات ولحظات من تبادل الكلام ، انسحبت رفقة مراد وشقيقه إلى غرفة مجاورة تاركين الستة يبدأون أشغالهم .

طلب بوضياف مني ومن مراد عدم الانصراف ، كان يريد أن يرانا بعد الاجتماع . وكلّمنا عقب هذا الاجتماع مطولاً على انفراد ، ليعطينا آخر تعليماته ، وألح كثيراً على طريقة العمل فيما يخص اللوجستيك وأوصانا باليقظة التامة والدائمة في هذا الظرف العصيب . وبطلب منه سلمناه عناويننا مع أرقام الهاتف التي ستبلغ لسي مصطفى :

افترق الستة بالعناق وضربوا موعداً لأواخر جانفي 1955 لتقييم الوضع وتقرير خطة للمستقبل .

على إثر اعتقال بن بولعيد على الحدود التونسية الليبية ، اكتشفت عناويننا على دفتر كان يحمله . وقد كلفنا ذلك أن أخرجنا من زنزاناتنا في سجن

سركاجي ليتم استنطاقنا من قبل عميد القضاة «أنداريلي» «Le doyen des juges Andarelli» .

لقد سمح اجتماع الثالث والعشرين أكتوبر بدراسة «النداء إلى الشعب» و«بيان أول نوفمبر 54» على التوالي وبالمصادقة عليهما كأرضية، وكذا باختيار تسمية : جبهة التحرير الوطني/ جيش التحرير الوطني .

وتم ضبط التقسيم الإقليمي، ويتكون من ستة نواح (ستتحول فيما بعد إلى ولايات) موزعة كما يلي، مع توزيع المسؤوليات :

-الناحية الأولى : مصطفى بن بولعيد، المساعدان : شيحاني بشير وعجول عاجل .

-الناحية الثانية : ديدوش مراد، المساعدان : زيغوت يوسف و بن طوبال لخضر ؛

-الناحية الثالثة : كريم بلقاسم، المساعدان : أوعمران اعمر و زعموم محمد المدعو صالح ؛

-الناحية الرابعة : رابح بيطاط، المساعدان : سويداني بوجمعة و بلحاج بوشعيب المدعو سي أحمد ؛

-الناحية الخامسة : العربي بن مهيدي، المساعدان : بن عبد المالك رمضان وبوصوف عبد الحفيظ ؛

-الناحية السادسة : في طور التكوين، ملحقة إلى الناحية الأولى، وتُرك لبن بولعيد مهمة تشكيلها .

وعُيّن محمد بوضياف منسقاً وطنياً في اتصال مع الداخل والخارج .

في هذا اليوم الأغر، ستة رجال من الشعب يمثلون تياراً له جذوره الراسخة في المنظمة الخاصة شكل الطريق الثالث بعد نشوب خلاف في حزبهم حزب الشعب/ (ح .إ .ح .د)، ستة رجال طالما ذاقوا من اللعنات والقذف وسموم الهجاء، ستة رجال تحذوهم نفس العزيمة، وفي وثبة واحدة حرروا عقد ميلاد حركة تجديد تدعى «جبهة التحرير الوطني»، وشقها الآخر «جيش التحرير

الوطني». ستة رجال أوضحوا في ندائهم إلى الشعب الجزائري بأنهم «مستقلون عن الجماعتين اللتين تتصارعان من أجل السلطة» وبأن الكفاح المسلح الذي أعلنوه «موجه ضد الاستعمار» .

في ذلك اليوم، ستة رجال مؤمنون بمبادئهم، خططوا لأعمالهم. فرغم ضعف إمكاناتهم كانوا واثقين من التفاف الشعب حول مثلهم العليا بالقدر الذي كانوا واثقين من أنهم يحققون للجزائر النصر والاستقلال .

قضية أعراب اعمر المدعو «عنتر»

أعراب اعمر مجاهد من القبائل يلقب باسم «عنتر». عاش مشاكل كثيرة مع رفاقه لأنه مضطرب ومشاغب، وبات إبعاده من المنطقة أمراً ضرورياً حسب مسؤوليه. وارتأى الحزب أن يحوّله إلى الأوراس ويوكل أمره لمصطفى بن بولعيد .

جاء أعراب إلى العاصمة رفقة اثنين من زملائه، ومرّ بمقر فرقة «الشهاب» للكشافة الواقعة في قبب «السماكة» بساحة الشهداء. فأتى به إلى محلي القائد الكشفي والمناضل باسطا علي، الذي كان في اتصال مع مجاهدي القبائل. وبينما كان في انتظار موعد التحاقه بباتنة، كاد أعراب، بطبعه المتشكك والعصبي، أن يتسبب في حادثة داخل محلي، عندما أشهر سلاحه في وجه شخص حسبه شرطياً يعرفه .

قام بن بولعيد بوضع عنتر في إقامة عند سمايحي، وهو مناضل في المنظمة الخاصة بباتنة يعمل حرفياً في صناعة الحلي التقليدية، واستصدر له بطاقة تعريف مزورة باسم سمايحي .

وظل عنتر على سلوكه، فأثناء شجار مع مجاهد أوراسي مشهور هو مسعود زلماط، أطلق الرصاص عليه بسلاحه الناري فأرداه قتيلاً، وخوفاً من رد فعل رجال زلماط وهو الذي كان على رأس مجموعة من قدماء «الخارجين عن القانون»، فرّ أعراب اعمر والتجأ لدى القائم بالإدارة «فابي» «Fabet» وأظهر أمامه سبابة ضحيته التي قطعها بعد موته .

أثارت هذه الجريمة سخطاً عارماً وفضيحة كبيرة لدى العروش التي يتمتع زلماط في أوساطها بمكانة كبيرة ، لقد كان «رئيس عصابة شرف» وتحدى مع زوجته الإدارة ، وأهان رجال الدرك واستطاع أن يسلب منهم أسلحة . وكان يسطو على المعمرين وعملاء الإدارة وقابضي الضرائب والقياد والباشاغوات ليوزع على الفقراء والمساكين من الناس . كان حقاً رمزاً للبطولة عند أهل الأرياف وسكان منطقة باتنة التي كان فيها ذائع الصيت . وكان ابن بولعيد هو الذي أقنع زلماط بالانضمام إلى الحركة الوطنية .

بوشكيوة يونس الذي كان مسؤول قسمة في الحزب ، أبلغ القيادة بما حدث . وعلى الفور أوفدت هذه الأخيرة من الجزائر سي أحمد بودة ، عضو القيادة الوطنية و رجل محترم ، قصد إيجاد حل للمعضلة .

وبمساعدة عقلاء «جماعة» المنطقة ، المؤلفة من العروش الكبرى (الشرفه و السراحنة و التوابة وبني بوسليمان) ، تمكن بودة من تهدئة النفوس . وما كان لمهمته أن يكتب لها النجاح لولا حضور سي مصطفى ، لأن بعض رجالات زلماط كانوا جد مشحونين على أعراب واغتاضوا من أن رجلاً أتى طالباً اللجوء في ديارهم واحتضنوه كأخ لهم ، يرتكب جريمة شنعاء مثل هذه ، وطالبوا كلهم برأسه .

لم يرد بن بولعيد أن يحاكَم أعراب اعمر المدعو «عنتر» في الأوراس أو يُعدم على أراضيها ، رغم تردد بعض رؤساء العروش . وآثر ترك أمر محاكمة المتهم ومعاقبته لمسؤولي منطقة القبائل ، كما ذكّر الحضور بقواعد الضيافة العريقة التي يعتمدها أهل الريف ، سيما وأن عنتر أوكل له من طرف أصدقاء . وطلب برجاء من رفقاء زلماط أن يحترموا «الأمان» . فعاد بودة أخيراً إلى العاصمة مطمئن البال و واثقاً من أن الأوراسيين لن يقتلوا عنتر .

وتجدر الإشارة إلى أن سي مصطفى لم يكن مرتاحاً البتة خصوصاً وأن الضحية (زلماط) ينتمي إلى عرش بني بوسليمان بينما هو توبي أي من عرش التوابة . ومن يعرف طبيعة الناس آنذاك ، يتحقق لديه اليوم بأن لا أحد كان بإمكانه إنقاذ رأس أعراب .

عندما أُبلغ كريم بلقاسم بما جرى ، كلّف أوعمران بإعدام أعراب ، بمساعدة مناضلين : بوستة عبد القادر و حدانو محمد المدعو موحيس . واستغلت مصالح الاستخبارات الفرنسية الفريسة الثمينة التي يمثلها الجاني فخططت لمكيدة هدفها القضاء على بن بولعيد وكريم وأوعمران ، فقامت باستقدام أعراب من باتنة إلى العاصمة .

مجرد صدفة؟ مناورة؟ أم خطة جهنمية وضعها أعوان «فوجور» «Vaujour» ؟ لا أحد يدري . وجد أعراب هكذا نفسه أمام بن بولعيد في محطة قطار الجزائر ، وكان يبدو كأنه يريد أن يقول أشياء ، كان عصبياً ومتباكياً . عامله بن بولعيد بلطف وزاعماً بأنه على موعد عاجل مع الطبيب ، فطلب من عنتر أن يلقاه على الثانية زوالاً داخل مقهى قريب من ساحة «شارتر» (عمر القامة حاليا) .

جاء إليّ بن بولعيد و كلفني بمراقبة عنتر ، فأرسلت ابن أخي عبد الله في الساعة المحددة إلى مكان الموعد بالتوصيات المعمول بها ، ولقد سبق لعبد الله أن رأى عنتر عندي قبل سفره إلى باتنة . وأدى غياب بن بولعيد في مكان الموعد إلى إحباط الخطة ، بدليل أن رجال البوليس الذين كلفوا بالعملية كانت تبدو على محياهم علامات ضيق و كبت واضحة .

نفس السيناريو تم تركيبه ضد كريم و أوعمران . لكن هذا الأخير ، وبمجرد أن شعر بالفخ أطلق النار على أعراب معتقدا أنه أرداه قتيلاً ، في منحدر السيدة المتوحشة ، بالقرب من المدنية .

وأوردت الجريدة المسائية «درنيار أور» «Dernière Heure» (الساعة الأخيرة) ، الخبر في ركن الحوادث ، وكتبت تقول أن الأمر يتعلق « برجل وُجد جثة هامدة في منحدر السيدة المتوحشة برصاصة مسدس في الظهر ، ومن غير المستبعد إطلاقا أنه راح ضحية تصفية حسابات» .

عشية انطلاق الثورة

في صباح يوم السبت 30 أكتوبر 1954 ، قدم إلى محلي بوعجاج زبير ، وهو مسؤول فرق الصاعقة ، ولما رآني مشغولاً مع أحد الزبائن ، دخل إلى قاعة تجريب الملابس ووضع بداخلها طردا .

وعندما فككت الرزمة اكتشفت كومات من المناشير خاصة بالنداء إلى الشعب وبيان أول نوفمبر . وكان الحجم الأكبر من هذا السحب موجه لخلية اللوجستيك المكلفة بتوزيعه على أوسع نطاق ممكن ، مع التعليمات التالية :

. مس أكبر عدد ممكن من الشخصيات الجزائرية والأوروبية باعتماد الإرسال عن طريق البريد . ولهذا الغرض ، لابد من مراجعة العناوين في الدليل الهاتفي ؛

. يوم الاثنين الموافق لعيد «الاتوسان» (القديسين) «Fête de la toussaint» ، استغلال يوم العطلة لتوزيع الوثائق على المناضلين والمتعاطفين من يد إلى يد ؛

. وكان ينبغي أيضاً نشر الخبر شفوياً ، والترويج له وتضخيمه إذا ما اقتضت الحاجة . والغاية المنشودة هي تحسيس المواطنين على أوسع نطاق لكسبهم إلى القضية .

اتصلت بأعضاء خلية اللوجستيك بوقشورة و نايت مرزوق و زرقاوي . وكان مسعودي طريح الفراش . وبمجرد اطلاعنا على محتوى الوثائق ، أخذنا من الدليل الهاتفي أسماء الشخصيات الجزائرية والأوروبية واليهودية وأرسلنا لها الوثائق الأولى الصادرة عن جبهة التحرير الوطني / جيش التحرير الوطني .

قسمنا قطاعات التوزيع الخاص بصبيحة يوم الاثنين واتفقنا على موعد مع شركاء آخرين نتصل بهم من أجل التعليق على الحدث واتخاذ إجراءات تبعا للأثر الذي يتركه حدث الاندلاع و مختلف ردود الأفعال .

وفكرنا في خطة لدعم الهياكل و إنشاء منظمة أقوى ، طبقاً لآخر التعليمات التي أصدرها محمد بوضياف في الثالث والعشرين أكتوبر .

تحرير البيان

تمت كتابة النصين اللذين نشرناهما و وزعناهما على المناضلين والشخصيات العاصمية من مختلف الأديان بقلم مناضل يدعى العيشاوي محمد وكان قد انخرط في صفوف حزب الشعب في حدود عام 1946 . عمل صحفياً في باريس لحساب مجلة «موند أراب» (العالم العربي) ، وتعرف عليه بوضياف عندما كان مسؤولاً في فرنسا . وعند عودته إلى الجزائر ، تحصل العيشاوي على منصب مداوم في مقر الحزب في «ساحة شارتر» عودة عبد القادر حاليا و تعاون مع لحول . كما عمل محرراً في جريدة «الاجيري ليبر» (الجزائر الحرة) . «Journal l'Algerie Libre»

تعرف عليه بوضياف والتمس منه خدماته لتحرير وثائق دعائية سرية ، ولم يكن لأحد أيا كان أن يعلم بذلك ، وأعطى العيشاوي موافقته المبدئية . لم يكن يظن أن قيادة الحزب ستعارض على تحرير وثائق ، هو الذي تعود على رؤية بوضياف يتجول بين قاعات المقر . والتقى فيما بعد لعدة مرات ببوضياف و ديدوش عندي في 5 ممر مالاكوف على طريق باب الوادي . كان سي الطيب يصوغ أفكاراً مستوحاة من برنامج «الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية» الذي أعد أثناء مؤتمر 1953 ، وكان العيشاوي يحاول أن يركبها في جمل مفيدة . وعندما تمت كتابة الوثيقتين ، اجتمع بوضياف بمجموعة الستة مرتين وتلاهما على مسامعهم ، ووافق عليها الستة فأخذ كل واحد نسختين قصد سحبها كل في ناحيته .

مرة أخرى استُدعي العيشاوي من طرف ديدوش مراد الذي سلمه مبلغاً مالياً لشراء عشر رزمات ورق وعلبة «ستنسيل» و قارورتين من حبر «رونيو كوريس» ، ومساكة أوراق وزجاجة من ممحاة التصحيح .

أدخل ديدوش العيشاوي في اتصال مع كريم بلقاسم الذي أخذه إلى منطقة القبائل . و تحديداً إلى قرية إغيل إيمولا يوم 27 أكتوبر . وهناك وجد المحرر آلة راقنة وجهاز استنساخ . وقام بسحب 2300 نسخة من النداء إلى الشعب و 1100 نسخة من بيان أول نوفمبر . وقام كريم بنقل الوثائق إلى العاصمة .

غداة إطلاق الشرارة في الفاتح نوفمبر، زارني حباشي عبد السلام وأخبرني بأنه يقيم حاليا عند مراد، وأنه يود الالتقاء بيطاط ليضع نفسه في خدمته وأنه متطوع لتنفيذ عمليات مسلحة في المدن.

عاد حباشي الذي تلقى موافقة بن بولعيد للذهاب إلى قسنطينة لرؤية ابنه الصغير وتوديع عائلته، وراح يبحث عن السبيل للتقرب من رابح.

في يوم الثلاثاء، زارني زبير بوعجاج الذي جاء يسأل عن الأخبار لأننا تلقينا تعليمة للبقاء على اتصال دائم. وسألته إن كان يعرف أين يمكن أن يوجد رابح، لكنه لم يكن يعرف. وأثناء الحديث، أخبرته بأن عبد السلام المقيم حاليا عند مراد، اقترح خدماته ليطاط وأنه مستعد لتنفيذ عمليات مسلحة في المدن.

أعرب بوعجاج عن سعادته لسماع الخبر وقال: «هذا ممتاز». وأوصاني بتبليغ رغبته لعبد السلام في أن يعرض عليه منصب نيابة في العاصمة، تقديرا لطول تجربته في السرية وروح الإقدام التي تحلى بها. وأردف قائلا: «سيكون لي عونا كبيرا».

أبلغت بوشنورة مراد بمقابلتي مع زبير وبرغبته في أن يكون عبد السلام معه لتأطير العاصمة، واتفقنا على لقاء يجمعنا كلنا يوم الخميس على الساعة العاشرة.

وعندما لم يظهر أحد من الثلاثة في صبيحة ذلك الخميس، فهمت بأن مراد وعبد السلام وزبير التقوا برابح، وبأن كل واحد بات مشغولا بمهام آخر لحظة بحكم خصوصية النشاط في الأيام الأخيرة. وأنا كذلك تحتم علي أن أقوم ببعض المهام غير المبرمجة وهي توجيه بعض المناضلين الذين يبحثون عن الاندماج في الهياكل. وهذا يذكرني بنظرية بوضياف حول «انعكاس وجهة المسيرة الثورية... لنبدأ العمل ثم لننظم أنفسنا بمرور الوقت». ويحتمل أن رابح والآخرين يكونون في مواجهة بعض مشاكل تنصيب الشبكات، وهذا ما قد يفسر صمتهم.

الاعتقالات

لم أكن أتصور إطلاقاً بأن فرق الصاعقة، الموجودة تحت إمرة الزبير والتي كان من المقرر أن تنفذ عمليات أخرى بعد عمليات أول نوفمبر، ستتوقف في طريقها يوماً ويُقضى عليها نهائيا. وكنت لا أشك بأن مجموعتنا المكلفة بالإسناد التي كانت تنشط بالموازاة مع مجموعة الزبير، ستلقى هي أيضاً نفس المصير. لقد تم توقيف نشطاء الخليتين الواحد تلو الآخر، وتم اكتشاف حباشي وبوشنورة مع بوعجاج، وكذلك نايت مرزوق عبد الرحمان.

في يوم الجمعة، وبينما كنت دائماً في انتظار الرفقاء الثلاثة، قمت بتنقية كل ما قد يبدو مشبوهاً في منزلي وفي محلي احتياطاً من أي طارئ، وحسناً ما فعلت، لأنه في يوم السبت صباحا، السادس نوفمبر، احتل رجال شرطة الاستخبارات العامة التابعة للفرقة المحافظ «هافار» دكاني، وبعدما قيدوا يدي اقتادوني باتجاه فيلا محي الدين المشؤومة الذكر، أين يُمارس التعذيب بشكل عادي وعلني. وفيها التقيت بقادة سياسيين من أمثال مولاي مرباح، ذراع مصالي الحاج وبن تفتيفة، مسؤول مع المركزيين وأسماء أخرى منها المعروفة وغير المعروفة.

في يوم 11 نوفمبر، وُضعت رفقة بعض سجناء فيلا محي الدين رهن الحبس وحُولت إلى سجن بربروس حيث سيلتحق بنا فيما بعد مسعودي عبد الواحد الذي كان يتلقى علاجا في المستشفى، وفيه ألقي عليه القبض حيث وُضع تحت مراقبة مستمرة لأحد الأعوان. وعرفت مجموعتنا كيف تعفيه من تهمه بتراجعها أمام قاضي التحقيق. فأطلق سراحه في فبراير 1955 بعد انقضاء أربعة أشهر، وواصل نشاطه رفقة كشيدة عبد الله وحمزاوي اعمر وبزحمة محمد. واشتغل مع رفاقه على وضع أسس الهياكل الأولى لتجنيد المناضلين وتنظيم خلايا سياسية ومجموعات ردع. ويُعتبر أحد مؤسسي مخبري صنع القنابل في بئر خادم (مقر سكن المناضل عزوز محمد) وفي سكالة بالأبيار الذي انفجر وتسبب في مقتل رشيد كواش التقني في صنع المتفجرات. وتكفل عبد الواحد كذلك بشبكة الصناع الكيماويين المتكونة من مناضلين من أصل أوروبي

مثل الدكتور (بيسيت) . والتحق بالجبل بعد أن ألقي القبض على عدد و على عدد من الخبراء ونذكر منهم المدعوين حميدوش و منصور . وسقط رمز الحرب عند الواحد مسعودي في ميدان الشرف في ضواحي تنس في الفترة التي سقط فيها أخي كشيدة عبد الله .

في السجن

في يوم الخميس 11 نوفمبر ، وطئت قدماي عالم بربروس (السجن حالياً سركاجي) تحت رقم إيداع 9483 .

وعرفت مجموعة المعتقلين السياسيين التي أنتمي إليها عن باقي المساجين . لم يكن أي اتصال ممكنا . وحبست وحدي في زنزانة لمدة خمسة و أربعين يوماً في عزلة تامة . ولم أكن أتبع الأحداث الخارجية التي كانت تأتي و يدخل القصعة بعد أن يفتح قليلاً كوة الباب . ودامت مصالح الشرطة و العدالة تكوّن ملفات الإدانة لكل واحد منا . لم يكن يتاح لنا بعد تأسيس محامين أو الدخول في اتصال معهم ، كما أن زيارة الأهل ممنوعة .

وبانتهاء هذه الفترة الشاقة ، حيث قضيناً جزءاً منها في أروقة الحلاقين ، التحقت بالحجرة رقم 4 في الطابق الأول المزدحم بالعشرات من الجزائريين الآتين من كل صوب ، والمحرومين من حريتهم . وقضيت أيامي الأولى في معاينة الحياة اليومية في السجن و مرافقه ومستخدميه من حراس رؤساء ومراقبين وسجان وكذلك جزء من الشعب الجزائري الثائر على السلطة الفرنسية .

في الصباح الباكر ، يقوم الحارس بالمناداة وإحصاء السجناء ، إذ نطوي ونرتب أفرشتنا المصنوعة من القش ونضع الأغطية فوقها ، ونرتب جيداً القدح المعدني المخصص للقهوة ، ويصطف السجناء كل واحد وراء فراشه بالشكل الذي يسمح للمراقب بإحصاء عددهم الذي يبلغ بصوت عال للرئيس المراقب الواقف قبالة المصباح وسط الطابق . وبعدها يقوم اثنان من السجناء بدورة بين القاعات لتقديم القهوة ، ويرافقهما المراقب المكلف بالمهمة .

يخرج في شكل طابور نحو الساحة حيث نختلط مع سجناء القاعات الأخرى ، ونتجول لمدة ساعتين لترويض عضلات سيقاننا ، وهي أيضاً مناسبة لتبادل الحديث مع أصدقاء ، وكان ممنوع علينا رفع أصواتنا .

نتناول الغداء في الساحة ، فنأخذ الطعام على أبواب المطابخ (الأكشاك) حيث نسحب قصعاتنا الحديدية البيضاء . وعادة ما يكون الطعام رديئاً ، يطفو فوقه حبة جزر أو لفت وفي بعض الأحيان حبة بطاطا غير منزوعة القشور . وفي الأيام الأولى ، يتعفف السجناء من رؤية وشم ما يقدم لهم من أكل ، لكن مع مرور الوقت يتعودون على كل شيء . ولكي أتفادى هذا الطعام ، كنت في البداية أحد مساعدي الطبي . أكثرنا حظاً من يتلقون مالاً من أهاليهم ، يمكنه أن يتسوق في المقتصد حيث توجد بعض المواد الغذائية الموضوعة للبيع

في حوالي الساعة الواحدة زوالاً ، يدق الجرس لإعلان موعد العشاء ، ونتناول العشاء تارة في الساحة وتارة أخرى في القاعات ، ونعود بعدها إلى الزنزانات حيث يقوم الحارس بالمناداة مرة أخرى للمراقبة ، في حين يقوم أحد الحراس بدورة لمعاينة حالة القضبان الحديدية المحيطة بالنوافذ ، لكون النوافذ عالية وتستلزم استخدام سلّم يحمله أحد السجناء ليتم التحقق من القضبان بالواحد .

وبعد الانتهاء من هذه الأعمال الروتينية ، تغلق شبابيك جميع الزنزانات بالمفتاح ، ويمنع علينا الكلام والحركة داخل القاعات . ويكلف الناظر ورئيس الحجرة ، وينتخبان من السجناء ، بمهمة إقرار السكوت التام ومنع الحركة في الليل ، تبقى الأضواء مشتعلة .

يسمح لنا بالاستحمام مرة كل أسبوعين ، وعند خروجنا من الحمام ، يمنح علينا مادة الـ د.د.تي المضادة للقمل

يحق لنا تلقي زيارة الأهل مرة في الأسبوع ، وتخضع القفة والأغذية لتفتيش دقيق على يد المراقبين . وطبعا نقسم ما تحويه هذه القفة على رفاق الحجرة الذين لا يملكون مالاً أو لا يتلقون زيارات ، وكان عددهم كبيراً إلى درجة أن كثيراً من السجناء يطلبون دوماً من أهلهم الزيادة في الأطعمة . نجتمع في القاعة ،

[illegible] الدكتور [illegible] والشيخ [illegible] بعد أن ألقي القبض على [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

في السجن

في يوم الخميس 11 نوفمبر، وطئت قدماي عالم بربروس (المسمى حالياً سركاجي) تحت رقم إيداع 9483.

وقد كانت مجموعة المعتقلين السياسيين التي أنتمي إليها عن باقي المساجين، لم يكن أي اتصال ممكناً. وحُبست وحدي في زنزانة لمدة خمسة وأربعين يوماً في عزلة تامة. ولم أكن أرى إلا الحارس الذي كان يأتي ويدخل القصعة بعد أن يفتح قليلاً كوة الباب. وبدأت مصالح الشرطة والعدالة تكوّن ملفات الإدانة لكل واحد منا. لم يكن يتاح لنا بعد تأسيس محامين أو الدخول في اتصال معهم، كما أن زيارة الأهل ممنوعة.

وبانتهاء هذه الفترة الشاقة، حيث قضيناً جزءاً منها في أروقة الجلادين، التحقت بالحجرة رقم 4 في الطابق الأول المزدحم بالعشرات من الجزائريين الآتين من كل صوب، والمحرومين من حريتهم. وقضيت أيامي الأولى في معاينة الحياة اليومية في السجن ومرافقه ومستخدميه من مراقبين رؤساء ومراقبين ونظار وكذلك جزء من الشعب الجزائري المتمرد على السلطة الفرنسية.

في الصباح الباكر، يقوم الحراس بالمناداة وإحصاء السجناء، إذ نطوي ونرتب أفرشتنا المصنوعة من القش ونضع الأغطية فوقها، ونرتب جيداً القدح المعدني المخصص للقهوة، ويصطف السجناء كل واحد وراء فراشه بالشكل الذي يسمح للمراقب بإحصاء عددهم الذي يبلّغ بصوت عال للرئيس المراقب الواقف قبالة المصباح وسط الطابق. وبعدها يقوم اثنان من السجناء بدورة بين القاعات لتقديم القهوة، ويرافقهما المراقب المكلف بالمهمة.

نخرج في شكل طابور نحو الساحة حيث نختلط مع سجناء القاعات الأخرى، ونتحول لمدة ساعتين أو أكثر [illegible] [illegible] [illegible] الحديث مع أصدقاء، وكان ممنوع علينا رفع أصواتنا.

نتناول الغداء في الساحة، فنأخذ الطعام على أبواب المقاصف (الأكشاك) حيث نسحب قصعاتنا الحديدية البيضاء. وعادة ما يكون الطعام رديئاً، مجرد ماء يطفو فوقه حبة جزر أو لفت وفي بعض الأحيان حبة بطاطا غير منزوعة القشور. وفي الأيام الأولى، ينفر السجناء من رؤية وشم ما يقدم لهم من أكل، لكن مع مرور الوقت يتعودون على كل شيء. ولكني أشبع هذا الطعام، كنت في البداية أسد متاخير أمعي. أكثرنا حظاً من يتلقون مالاً من أهلهم، يمكنه أن يتمون في المقصف حيث توجد بعض المواد الغذائية الموضوعة للبيع.

في حوالي الساعة الواحدة زوالاً، يدق الجرس لإعلان موعد العشاء، ويتناول العشاء تارة في الساحة وتارة أخرى في القاعات، ونعود بعدها إلى الزنزانات حيث يقوم الحراس بالمناداة مرة أخرى للمراقبة، في حين يقوم أحد الحراس بدورة لمعاينة حالة القضبان الحديدية المحيطة بالنوافذ، انتقاء الفرار. النوافذ عالية وتستلزم استخدام سلّم يحمله أحد السجناء ليتم التحقق من القضبان بالواحد.

وبعد الانتهاء من هذه الأعمال الروتينية، تغلق شبابيك جميع الزنزانات بالمفتاح، ويمنع علينا الكلام والحركة داخل القاعات. يكلف الناظر ورئيس الحجرة، ويختاران من السجناء، بمهمة إلزامنا السكوت التام ومنع الحركة في الليل، تبقى الأضواء مشتعلة.

يسمح لنا بالاستحمام مرة كل أسبوعين، وعند خروجنا من الحمام، يضع علينا مادة «الدي دي تي» المضادة للقمل.

يحق لنا تلقي زيارة الأهل مرة في الأسبوع، وتخضع القفة والأغذية لفحص دقيق على يد المراقبين. وطبعاً نقسم ما تحويه هذه القفة على رفاق الحجرة ممن لا يملكون مالاً أو لا يتلقون زيارات، وكان عددهم كبيراً إلى درجة أن كثيراً من السجناء يطلبون دوماً من أهلهم الزيادة في الأطعمة. نتجمع في القاعة،

منقسمين إلى مجموعات حسب تجانس الميول والطباع و نشكل شبه ملاجئ من خمسة أو ستة أشخاص .

المرافق رثة والعلاقات مع مساجين الحق العام ممقوتة جداً ، إذ كلما مررنا بهم إلا ونسمع الكلام الفاحش والسباب واللعنات من أفواههم .

وساعد الغياب الكامل لتفتيش السجون من قبل الجهات الوصية وهيئات المراقبة ، ناهيك عن الهيئات الإنسانية ، على انتشار السلوك اللاإنساني والممارسات غير اللائقة بمن تسند إليهم مهمة حراسة السجناء وحمايتهم . وطالما أن السواد الأعظم من المعتقلين جزائريون ، فقلّما يخشى المسؤولون من توبيخات أو إنذارات أو عقوبات من طرف المفتشين الذين يغضون الطرف عن التسيير الاستبدادي لهذه المؤسسات .

ولاحظنا وجود انسجام كامل بين المسؤولين والحراس فيما يتعلق بنظام القمع المنتهج ، ولكن مقاييس التوظيف الخاصة بهذه الفئة من الموظفين غير مبنية على قواعد الكفاءة والمستوى التعليمي ، مع كل ما يقتضي ذلك من بيداغوجية وعلم نفس ، وإنما على أسس اللياقة البدنية والسلوك المنحرف ، وهذا يتناقض تناقضاً صارخاً مع القانون الأساسي الذي يحكم سير الوظيف العمومي لبلد يدّعي التحضر .

كانت لنا مشاكل مع أشخاص منعدمي الشرف والأخلاق والحس الإنساني ، مرتزقة يتصرفون على مرأى ومسمع الجميع ، لا يخافون لومة لائم في الإدارة و لا من رادع يضع حداً لتجاوزاتهم . وتعكس ذهنية وسلوك المسؤولين ، من المدير ونائب المدير والمراقب العام «أتلان» Atlan ، ذهنية وسلوك الموظفين تماماً ، مثل الرئيس المراقب «كانيزيو» "Canisio" و «لوباريش» "Loubarich" والمراقبين من أمثال الإخوة «بارتولي» "Bartoli" . في غياهب هذا العالم المغلق ، وجد التعسف السائد أعواناً متعجرفين لممارسة القهر والترهيب بكل راحة بال .

ويحدث أن تلقى إدارة السجن مساعدة ثمينة من بعض السجناء المساكين أنفسهم ، الذين يتم انتقاؤهم لأداء بعض المهام القذرة كالوشاية والتجسس على الغير .

وفي بداية شهر نوفمبر هذا ، تم توقيف عدد كبير من مناضلي الحركة الوطنية وزجّ بهم في سجن بربروس . وسمح هذا الموكب الجديد ، الذي كنت أنا ضمنه ، بتغيير بعض الأشياء من حياة السجن وبثّ نوعاً من الحيوية فيه . وبدأ مساجين الحق العام يختلطون بالمساجين السياسيين وعاملوهم في البداية بنوع من الازدراء والحيطة والغطرسة . وفهمنا بأن النظار هم الذين كانوا يدفعونهم و يحرضونهم علينا لأنهم خافوا أن يفقدوا كل المزايا التي يمنحها إياهم الحراس الذين يعطونهم بشح بعض الامتيازات بغية إخضاعهم أكثر لسلطتهم .

أما الحراس الذين يبدو أنهم تلقوا تعليمات دقيقة وصارمة ، فاستقبلونا بالتهكم والاستفزاز وبالتهديد . خطتهم أنهم يريدون أن يكيّفونا منذ الأيام الأولى للتحكم فينا وتركيعنا بسرعة وبأقل تكلفة . ولقد استعملوا كل الطرق لهذا الغرض ، لكن سرعان ما انتبهوا إلى كون أن السجناء الجدد من طينة مختلفة تماماً عن تلك التي ألفوا حراستها و ترويضها ، إذ لم نكن لصوصاً و لا قتلةً .

جنايتنا الوحيدة أننا ثرنا ضد نظام ظالم و نطالب بحق استرجاع سيادة صادرها استعمار دام أزيد من قرن . و كنا نقول لهم ذلك بالكلمة وشعرنا حينها بأننا مقبلون على مواجهات مع أعوان هذا النظام وبأنه ستعترضنا مشاكل كثيرة .

أدخلنا في زنزانات من خمسة أمتار مربعة تحتضن سجيناً و في بعض الأحيان ثلاثة أو أربعة و في قاعات تسع لستين شخصاً لكن الإدارة حشدت فيها ضعفه .

المساجين السياسيون ينظمون أنفسهم

بعدما انتهينا من الطواف حول المبنى المتكون من حجرات كئيبة وزنزانات رطبة و مرأب مظلم وساحات جرداء وكله مدعم بشبابيك سميكة تحدّ من الفضاء الداخلي ، تمكننا من أن نجتمع فيما بيننا واتفقنا على ضرورة إعادة تنظيم حياة سائر المعتقلين . كنا ندرك بأن جهاز التسيير داخل بربروس بأكمله ، بكل ما يحويه من وسائل بشرية ، سيقف مثل رجل واحد لقمعنا وإدخالنا في الصف قسراً ، إلا أننا كنا حريصين على فرض اختلافنا عن الآخرين وإجبار كافة المسيرين على الاعتراف بمكانتنا كمساجين سياسيين ، وإن كان في الواقع لم يمنح لنا هذا الحق قط . ولإعطاء وزن أكبر لتمثيلنا ، كان علينا أن نتحد مع المساجين الآخرين . قمنا بإحصاء جميع معتقلي بربروس ، سواء كانوا معتقلين سياسيين أو مساجين الحق العام ، و لاحظنا أن غاية واحدة كانت تحذو المعتقلين السياسيين هي المساهمة بشكل أو بآخر في الكفاح التحريري و فرض الفكرة على كافة السجناء .

أما فيما يتعلق بمساجين الحق العام ، فعديد منهم ريفيون ومعظمهم أميون . والتهم التي دخلوا بموجبها إلى الحبس والجنايات التي أدينوا عليها مختلفة ومتنوعة ، علما بأن بعضهم يقبع هنا منذ مدة طويلة من غير محاكمة ، وآخرون أقسموا ببراءتهم ، وآخرون لا يعرفون لماذا هم في السجن . من يسمعهم يفهم و يتحقق من أن النظام الكولونيالي لازال يضرب عرض الحائط كل المبادئ القانونية ويخترق القوانين التي سنها .

التعسف والتصرف من دون رقيب و لا حسيب هما سيد الموقف دوماً داخل دهاليز الصمت و النسيان تلك .

كان السجناء من كل الأعمار ، وأغلبهم ينحدرون من الأوساط الفقيرة ، حالتهم الصحية ما انفكت تتدهور بسبب سوء التغذية ومن شدة الضرب و التعذيب . وكان التكافل فيما بينهم يخفف قليلاً من عبء آلامهم . وفي كل الأحوال كانوا مضطرين للتكيف مع كل الأوضاع حفظًا للبقاء . بعض الدهاة

الأذكياء يدبرون أحوالهم ، بينما الإنسان الخجول يتعرض لأقسى أنواع السُّخرة في بعض الأحيان لأكثرها انحطاطاً دون أن يشكو معاناته .

بعدما جسسنا نبض بربروس ، اعتزمنا الشروع في تغيير وجه الحياة اليومية للسجناء والسهر على تحسينها تدريجياً . وبعد دراسة السبل والوسائل الممكن استعمالها ، قمنا بتقييم لجميع الكفاءات وحددنا المهام الواجب أداؤها . وأنشئت هكذا لجان قاعات تتلخص مهامها فيما يلي :

- توزيع الألبسة والسجائر وبعض المواد الغذائية المسموح بها من قبل الإدارة للسجناء المعوزين ممن لا يتلقون مالاً من أهلهم ؛
- إلقاء دروس في التعليم العام ؛
- الشروع في حملة للتكوين السياسي ؛
- تنظيم نشاطات ثقافية و ترفيهية و رياضية ؛
- البحث عن شتى السبل لتجنيد كافة المعتقلين عند الضرورة.

تتمثل مهمتي أنا في التكفل بالقاعة رقم 4 و قاسي عبد الله عبد الرحمان بالقاعة رقم 6 و مراد بوقشورة بالقاعة رقم 8 و مرزوقي محمد بالقاعة رقم 23 . وتكفل مناضلون آخرون بتأطير القاعات الأخرى.

صديقنا عبد السلام حباشي ، وبعد إقامة قصيرة بيننا في بربروس ، حوّل إلى تيزي وزو للمثول أمام العدالة في قضية هروبه من قرية ايسر أثناء مهمته في بلاد القبائل ، واتهم بتهمة ثانية في قضية المنظمة الخاصة لعام 1950 . وكان حُكم عليه غيابياً .

وعندما لاحظنا بأن الإدارة تغير لنا القاعات مراراً ، ارتأينا أن يواصل كل واحد منا العمل الذي بدأه المناضلون الذين سبقوه . وفي الساحة ، نتبادل الأخبار حول كل المشاكل التي تعترضنا وحول الأعمال المنجزة . ويسمح هذا التناوب لكل واحد منا بأن يدرس نفسية كل السجناء بعمق . كما أتاح لنا إمكانية التحقق من صحة أقوال زملائنا الذين سبقونا و غربلتها . وعندما يسمع السجناء نفس الكلام من أفواه مختلفة ، يصدقون بأننا مقتنعون بنفس الإيمان

وأننا نصبو لنفس الغاية ، ألا وهي كسر إطار النظام الكولونيالي . وبفضل التزامنا وتحدنا في السجن صاروا يؤمنون بأن الأشياء يمكن أن تتغير وبأن من مصلحتهم أن يسألوا ضميرهم و يتحملوا مسؤوليتهم والنهوض ضد الاحتلال .

للدفاع عنا ، شكلت جبهة التحرير فريقاً من المحامين يضم الأساتذة بوزيدة و حاج حمو والشاب محمد الصديق بن يحي (الوزير في زمن الاستقلال) . ومن خلالهم ، استطعنا أن نبلغ جبهة التحرير بما كان يجري داخل السجن وتلقينا في هذا الصدد تعليمات عملنا جاهدين على تطبيقها . وكان المحامون يمدوننا بأخبار عن اثنين من رفقائنا هما قديفي بن علي و بن زرقة بن نعوم ، عضوان في المنظمة الخاصة ألقي عليهما القبض في سنة 1950 ، والموجودين هنا في بربروس ، في زنزانات معزولة . نراهما من حين لآخر عند مرورهما مقيدين أمام قاعاتنا وهما يصيحان بشعارات ثورية ونشجعهما بهتافاتنا وتشجيعاتنا . أصيب قديفي بداء السل بسبب رطوبة الزنزانة التي حبس فيها و سوء التغذية والتعذيب الذي مورس عليه ، أما صاحبه بن زرقة ، فأصيب بانهيار عصبي .

تأثرنا كثيراً مما حصل لأخوينا ، ورغم علمنا بقوة وشراسة الإدارة التي نواجهها و بوحشية أعوانها المدربين على القمع ، لم نستسلم للأمر الواقع وعقدنا العزم أن نكافح بكل الوسائل القانونية لفرض التغييرات التي نسعى لإدخالها على هذا النظام . كنا نعرف بأن الإدارة ستسعى لخنق كل مبادراتنا ومساعينا وبأنها ستلجأ إلى استعمال كافة الوسائل والحيل للتصدي لخططنا ، لكننا كنا عازمين على الصمود لكل أشكال الاستفزاز و المضي قدماً لافتكاك حقوقنا .

أتيح لنا أن نشكل منذ البداية مجموعة قوية متماسكة ساعدتنا على التخفيف من حدة تجاوزات الحراس الذين بدأوا يهدئون شيئاً فشيئاً ويتقبلون هذه الأمور الجديدة على السجن .

وشرع المناضلون المعينون في العمل تدريجياً عاكفين على شرح مدى حسن نواياهم وتحسيس السجناء بالتغييرات المنشودة ، فساد النظام داخل الحجرات وأدى كل واحد ما عليه وزيادة . ومن الأمثلة الجديرة بالذكر ، صلاة الجماعة،

لسنا كلنا مصلين ، وإن كنا كلنا مؤمنين ، لكن حينما رأينا بأن الصلاة تمثل عاملاً من عوامل التماسك الاجتماعي ، اهتممنا بهذا الجانب . وتجدر الإشارة إلى أن كثيراً من السجناء كانوا يؤدون بانتظام فريضتهم ويقومون للصلاة فرادى . وبفضلنا ، صاروا يصلون جماعة ، وفي بربروس صار يسمع صوت المؤذن يدعو للصلاة . وقد ترك ذلك أثراً كبيراً لأنه لم يمر وقت طويل حتى صار الجميع يصلون .

مثال آخر سمح باتحاد الجماعة ، يتمثل في الرياضة . أقنعناهم بأن التمارين الرياضية تساعدنا على الاحتفاظ بلياقتنا البدنية ، وكان بعض السجناء يمارسونها بشكل منتظم .

أوادت هذه الممارسات الدينية والرياضية الجماعية السجناء ، وأدهشت الحراس وحيرت المديرية .

عندئذ لجأت إدارة بربروس إلى الحيلة الاستعمارية القديمة «فرق تسد» . لكن تم إحباط هذه المناورات للتفريق بين المعتقلين السياسيين ومساجين الحق العام بسرعة ، بفضل يقظة شبكة الخلايا التي نسجت على مستوى جميع القاعات . وقامت الإدارة بتسريب عدد من الأعوان في ثوب سجناء الحق العام قصد تمكين مراقبة القاعات من الداخل والإبلاغ بكل شاردة و واردة للمراقبين خارج الزنزانات .

واستعمل نفس هؤلاء السجناء لغرض الوشاية أو تعنيف بعض السجناء الناكسين للقضاء عليهم قصد الحصول على أخبار من أفواه المعتقلين الجدد . وتتمثل الخطة في تأطير القادمين الجدد ، لاسيما القرويين ، واستقاء أخبار عن الثوار ، بعد أن يكسبوا ثقتهم ويقدموا أنفسهم كوطنيين ، وهؤلاء يدفعون بالأخبار الملتقطة إلى مصلحة القمع .

تمكننا من اكتشاف الجواسيس وحصلنا على جميع المعلومات عن الطرق المستعملة . ولاتقاء شر كل هذه المخاطر ، أنشأنا لجان يقظة حول كامل

السجن لحماية القادمين الجدد والقضاء على التصرفات المضرة بمسيرة الكفاح التحريري .

انقلاب رجال العصابات

ركزت لجان اليقظة على تحسيس مساجين الحق العام بأهداف الحركة الوطنية ، فأعطت كثير من الدروس في التكوين السياسي وأتت ثمارها . ركز المدرسون بالتناوب على ترسيخ آفات الاستعمار في أذهان هؤلاء المهمشين وعلى توعيتهم بمسؤوليته في الحالة المزرية التي يعيشونها . وكان بعضهم جد متأثرين و أبدوا قدرتهم على استيعاب المفاهيم والقضايا بفضل نباهتهم الفكرية الحادة ، وكشفوا عن نية خالصة لخدمة القضية الوطنية ، وأقنعناهم في النهاية بضرورة الانضمام إلينا في كفاحنا التحريري . وقال بعضهم : «فتحتم لنا عيوننا» .

لقد عرف سلوكهم تغيرا ملحوظا ، في أحاديثهم وفي علاقاتهم مع باقي السجناء ومع مدرسيهم وحتى مع سجانيهم . وكان تحولهم كاملا و جذريا . وكنا فخورين بأن نعد من صفهم أناسا من أمثال علي عمار المدعو «علي لابوانت» ، المحكوم عليه بسنتي حبس بتهمة «تحدي القوة العمومية» ، و كذا الوني أرزقي و سعيد ناكل اللذين عرفتهما في القاعة رقم 8 في عام 1955 وآخرين أقل شهرة لكن أثبتوا جميعهم فيما بعد جدارتهم في الجهاد .

هناك حالة أخرى جديرة أيضا بالذكر هي حالة حسن الغنابي ، رئيس عصابة في «زوج عيون» بالقصبة السفلى ، والمسجون في بربروس . كان السجين الوحيد من الحق العام الذي وضع في عزلة ، وظل يواجه الحراس بوجه مكشوف . تعاطف مع القضية الوطنية قبل الآخرين وحتى قبل أن يزج به في السجن ، عكس عديد من رؤساء العصابات الذين كانوا عملاء لمصالح الاستخبارات الفرنسية . وذات يوم ، التقينا به عند خروجنا من الحمام ، وبمجرد أن رأى علي لابوانت معنا ، نادى عليه صارخا : «علي ! علي ! اليوم معك رجال .. رجال حقيقيون ، أرقاء» .

لقي حسن بعدها مصرعه على يد عمر حمادي ، وقيل أنه اغتيل لأنه من أتباع مصالي ، كما قيل أن هناك تنافس على القيادة بين حسن و علي لابوانت.

عند تقييمنا لأعمال التكوين السياسية الموجهة لهذه الفئة من المهمشين ، اكتشفنا الاهتمام الذي أولاه بعضهم لدروس التكوين التي تركت أثرها على نظرتهم لأوضاعهم الاجتماعية . كانوا قلة ، لكن لا ننسى بأن بربروس كان عاجا أيضا «بالقوادين» الذين كانوا يبغضوننا ، لقد كانوا في خدمة مصالح البوليس و بات لزاما علينا أن نهددهم و ننظم فرقا أشبعتهم ضربا عدة مرات لكي ينسحبوا نهائيا إلى النحاس .

من بين رفاق الزنزانة ، تعرفت على عليلي أحمد وأدمجته في مجموعتنا . كان إنسانا بشوشا و مرحا بطبعه ، وكنا نناديه «ماريوس» لأنه طالما خفف علينا الغبن وأنسانا محنتنا . كان عليلي مناضلا في صفوف الحركة من أجل انتصار الحريات الديموقراطية في بوفاريك ، وألقي عليه القبض عام 1954 ، فحوكم بتهمة المساس بأمن الدولة واتهم بسرقة مادة «شديت» المستعملة لصنع القنابل ، فحكم عليه بخمس سنوات حبسا ، وطلب الاستئناف في الحكم وأنكر كل شيء .. فتقلصت المدة إلى ستة أشهر .

أثناء إحدى جلساتنا ، جرنا الحديث إلى ذكر «كوبيس» ، فلخصت لرفيقنا أحمد خيانة كوبيس الذي عرفته ، واسمه الحقيقي بلحاج جيلالي عبد القادر . نشط في صفوف المنظمة الخاصة إلى غاية عام 1950 ، السنة التي أوقف فيها وشحن على غرار العديد من المناضلين . وبفضل خدماته في الجيش الفرنسي ، حيث تقلد رتبة مساعد ، و لكونه نجل ضابط متقاعد . كان والده ملازم أول .. استفاد كوبيس من تقليص في مدة العقوبة .

في عام 1954 ، أقام بشارع «الابونسي» «La Penssé» المعامد لشارع «ميلوز» "Mulhouse" على مستوى رقم 29 ، وفي طريقه كان يلتقي مرارا ببوضياف و ديدوش أمام محل الدباغة الذي يملكه بوقنشورة مراد . وطلب العربي بن مهيدي رؤيته والتقاه عندي في «مرمالاكوف» ليسلمه الوثائق المتعلقة بالمتفجرات . وعمل كوبيس مع بوضياف و ديدوش بعدما قدم الوثائق التي

طلبها العربي ، فتيقنا من إخلاصه و كسب ثقتنا جميعاً ، لكن الحاصل أنه لم يحضر بالتحضيرات . وفي الثاني من نوفمبر 1954 جاء إلى بوقشورة مغتاظاً ليصب جام غضبه على جماعة بوضياف ، إذ لم يتقبل تهميشه وقال لي : «خدعوني» .

سافر كوبيس إلى مليانة ، فشرع في تأطير وتنظيم مجموعات مسلحة حولها ضد جبهة التحرير الوطني . وبمساعدة الفرنسيين ، شكل جيشاً مهماً وأحدث أضرارا كثيرة .

و بعدما زودته المصالح الفرنسية بكل الإمكانات والتجهيزات اللازمة ، طُلب منه أن يتحالف مع كتائب بلونيس لعزل مجاهدي جبهة التحرير الوطني . وكان بلونيس آنذاك متألقاً في نواحي الأغواط و الجلفة ، إلى غاية حدود سيدي عيسى . و تولى كوبيس القطاعات الواقعة بين مليانة و عين الدفلى و الشلف .

اغتاض أحمد عليلي كثيراً عندما رويت له قصة كوبيس الذي كان يعرفه . وعند خروجه من السجن ، وعدنا أحمد بأننا سنسمع عن أخباره وأنه سيقضي على الخائن ، وقال : «سآتي برأسه في شكارة» . وصعد إلى الجبل بمنطقة الروينة ولاية عين الدفلى وأرسل لنا عدة مرات عوناً من القائمين بالاتصال .

و بالفعل ، تم القضاء على كوبيس يوم 28 أفريل 1958 وقد فصلت رأسه عن جسده ، لقد قتله مرافقوه بتأليب من مسؤولي المحافظة السياسية لجبهة التحرير الوطني للناحية قبل أن يلتحقوا بجيش التحرير الوطني بأسلحتهم ومتاعهم .

واستشهد عليلي المدعو بغدادي لدى عودته من مهمة خطيرة والسلاح في يده ، وهو الفتى الذي تربى على المثل الوطنية في حركة الكشافة ، وكان متقلدا رتبة صاغ أول (رائد) .

بيطاط ، قائد سجن

ذات يوم ، جاء الحاجب (وهو سجين يوزع البريد وينادي على زملائه للتوجه إلى حجرة الاستقبال عندما يتعلق الأمر بزيارة للأهل وإلى حجرة الشرع

إذا ما كان الأمر يتعلق بحديث مع المحامين) ليبلغنا بأن هناك سجيناً جديداً نزل في زنزانة ، وقال أنه «يدعى رابح بيطاط» . اقشعر بدني لهذا الخبر لسببين ، أولاً لأن رابح كان مسؤول ناحية العاصمة وابن أخي عبد الله يكاد لا يفارقه . وماذا جرى لعبد الله؟ وثانياً لأن رابح نفسه كان صديقاً عزيزاً علي عرفته في ظروف قاسية عليه وعلى الحزب . لقد كان محل بحث ومحكوم عليه غيابيا ، فالتجأ إلى الأوراس ، وأوكله بن بولعيد لمناضل يدعى بن شايبة علي الذي كان يملك مزرعة ، وهي المزرعة نفسها التي تم فيها توزيع أسلحة لمجاهدي الأوراس عشية اندلاع ثورة أول نوفمبر . ومكث رابح هناك عدة أشهر ، لكنه لم يطمئن على صحته .

في ربيع عام 1952 ، استدعته قيادة الحزب إلى العاصمة ، وتبعه أياما قليلة بعده حباشي عبد السلام . وطلب مني محمد بوضياف الذي كلف بالبحث عن ملاجئ للمرحلين ، أن أعتني بهما لبضعة أشهر ، فأخذت رابح إلى الطبيب عمر بن حيلس لأنه كان يعاني آلاما في الصدر . وبعدها اشتغل بيطاط كسائق جرار موسمي في حقول ناحية سان بيار . سان بول (أولاد موسى بيومرداس حاليا) وذلك عند رقام عبد الرحمان المدعو زواوي ، وهو مهندس زراعي ومدرس مسؤول في مدرسة تكوين التقنيين الزراعيين في روفيغو (بوقرة بالبليدة حاليا) . وبعد مرور وقت قصير عاد إلى العاصمة وآويته مجدداً في مخبئي بالقصبة . ووجد له صباغ عبد القادر ، وهو مناضل يعمل مركب آلات ، عملاً معه كمصلح في مؤسسات «أوتيس . بيف» المختصة في تركيب وتصليح المصاعد الكهربائية .

كان الحزب قد قرر إدماج الخارجين عن القانون في هياكل الحزب ، وتم تعيين بيطاط كرئيس دائرة بعين تموشنت . وهناك تمكن من الإفلات من أيدي الشرطة عندما كان رفقة بن مهيدي ، فعاد إلى العاصمة حيث بقي من دون تعيين . وكان جد نشيطا أثناء فترة التحضير لاندلاع الثورة ، حيث نشط اجتماعات بين مناضلين واستقطب منخرطين جددا .

كان لزاماً علي أن أذهب إلى باتنة لأسلم نسخا من نشرية الوطني «La Patrie» لبوشكيوة يونس ، الذي كان مسؤول قسمة . واقترح علي بن بولعيد الذي كان مارا بالعاصمة ، أن أصطحبه في رحلة عودته إلى الأوراس على متن سيارته من نوع «جوفاكاتر» "Juvaquatre" . وانضم رابح بيطاط إلينا لمسافة من المشوار ، إذ كان متوجها نحو مدينة سطيف حيث يلتقي برفيقيه الفدائيين بن طوبال و زيغوت يوسف اللذين لم يرهما منذ أن كانوا معاً في الأوراس . و بالرغم من أنه كان حاملاً لبطاقة تعريف مزورة ، إلا أنه فضل أن يجلس في الخلف حيطةً ، وكان رابح الوحيد الجاري عليه البحث من بين ثلاثتنا .

وعند وصولنا إلى سطيف طلب منا سي مصطفى أن ننتظره حوالي ساعة لأن لديه موعدا مع شخصين . وبينما كنا أنا و رابح ننتظر عودته في قلق ، اصطدم بصره فجأة بوجه زميل دراسة له يعمل شرطيا ، فأدخل رابح بهدوء يده تحت إبطه ، فخفض الشرطي عينيه وغير اتجاهه كأنه لم ير شيئا . وقرر رابح أن يغادر سطيف بعدما انتابه الشك ورافقنا إلى باتنة ، وقال لنا : «سأعود فيما بعد لأرى لخضر و يوسف» .

وبعدما سلمنا نُسخ النشرية إلى بوشكيوة يونس ، دعانا هذا الأخير لحضور سهرة تنظمها الكشافة في الغد بمناسبة إحدى الاحتفالات . وألح كثيراً على حضور بن بولعيد الذي وافق بعدما ذكر له يونس أسماء بعض المدعوين .

وفي مقر الكشافة ، جلسنا متراصين كسمكات سردين من شدة ضيق المكان ، مصطفى وبيطاط وأنا ، وسط حشد من المناضلين ، من بينهم علي النمر (الذي سيصبح ضابطاً في جيش التحرير) ، و بحضور الإمام الشيخ طاهر مسعودان . فأتحفتنا الكشافة بمسرحية رائعة ألفها جراح حسين ، وهو مرشد مجموعة «الرجاء» ومناضل في الحزب ، والذي طالب الحضور في بداية العرض بعدم التصفيق على المشاهد . كان يحتل خلفية الخشبة ديكور واحد يتمثل في العلم الجزائري ، وفي إحدى الزوايا عُلقت لوحة سوداء كُتب عليها : «أنتم الذين تحتفلون بهذا اليوم ، تذكروا الذين يقبعون في السجون» .

كان بوشكيوة معتزاً بكشافته الذين يشرف على مجموعتهم مع الهاشمي بوشيط . وفي نهاية العرض قدم لنا الفتيان . وأشار إلى أنه في اليوم بالذات ، قام الكشافة بحملة جمع أموال في المدينة لفائدة لجنة مساندة ضحايا القمع . قال له بن بولعيد : «لم أندم أبداً على مجيئي ، لقد قضيت سهرة ممتعة مع مناضلين كبار وصغار ، لديكم مدرسة نموذجية ، وأملي أن تكون قدوة لكل أطفالنا في كل مكان» .

وفي الغد واصلنا رحلتنا أنا ورابح . وفي الطريق قال لي بيطاط بأنه تمكن من الالتقاء بالشخص الذي أواه مع غيره من مناضلي الأوراس . وكلمني كثيرا عن المسرحية التي شاهدناها و تمنى لو يتم عرضها في العاصمة على المناضلين لأنها «تتكلم عن الواقع ومن دون شك ستؤثر في كل النفوس» . وواصلت رحلتي إلى العاصمة تاركا رابح في سطيف .

في سجن بربروس ، بقي بيطاط معزولاً لمدة طويلة ، قبل أن يسمح له بالخروج لترويض عضلات ساقيه في ساحة السجناء الفرنسيين المنفصلة عن الساحة المخصصة للجزائريين . وكان هناك بعض المعتقلين الفرنسيين ، مثل الأمين العام للحزب الشيوعي الجزائري «بول كاباليرو» . وكان بعض المعتقلين الجزائريين ، ومن بينهم مسؤولون من أمثال لمين دباغين الذي قضى فترة قصيرة و عبد الله فاضل و العربي ماضي وهو طالب جامعي في فرنسا ، يختلطون بالمعتقلين الفرنسيين أثناء جولاتهم في الفناء .

وفي نفس الفضاء كان يتجول معزوزي محمد السعيد ، المسجون منذ 1945 والذي تم إيقافه في نفس الفترة التي أوقف فيها زروالي و حدادي ، اللذين لا يزالان يقضيان مدة سجنهما . وبقي معزوزي في السجن إلى غاية الاستقلال .

التحق رابح بيطاط ، بعد نهاية عزلته ، بإحدى الحجرات واقتسمها مع ثلاثة رفقاء، ومنذ ذلك تمكنا من ملاقاته بالتناوب بفضل دورات الساجين في الزنزانات . و حصل أن كنا أنا وبوقشورة مراد وعبد الله فاضل و مرزوقي محمد وبوعجاج زبير وعثمان بلوزداد في نفس الحجرة مع رابح .

كان لزاما علي أن أذهب إلى باتنة لأسلم نسخا من نشرية «الوباتريوت» Le Patriote » لبوشكيوة يونس ، الذي كان مسؤول قسمة . واقترح علي بن بولعيد الذي كان مارا بالعاصمة ، أن أصطحبه في رحلة عودته إلى الأوراس على متن سيارته من نوع «جوفاكاتر» "Juvaquatre" . وانضم رابح بيطاط إلينا لمسافة من المشوار ، إذ كان متوجها نحو مدينة سطيف حيث يلتقي برفيقيه القديمين بن طوبال و زيغوت يوسف اللذين لم يرهما منذ أن كانوا معا في الأوراس . و بالرغم من أنه كان حاملا لبطاقة تعريف مزورة ، إلا أنه فضل أن يجلس في الخلف خيفة ، وكان رابح الوحيد الجاري عليه البحث من بين ثلاثتنا .

وعند وصولنا إلى سطيف طلب مناسي مصطفى أن ننتظره حوالي ساعة لأن لديه موعدا مع شخصين . وبينما كنا أنا و رابح ننتظر عودته في قلق ، اصطدم بصره فجأة بوجه زميل دراسة له يعمل شرطيا ، فأدخل رابح بهدوء يده تحت إبطه ، فخفض الشرطي عينيه وغير اتجاهه كأنه لم ير شيئا . وقرر رابح أن يغادر سطيف بعدما انتابه الشك ورافقنا إلى باتنة ، وقال لنا : «سأعود فيما بعد لأرى لخضر و يوسف» .

وبعدما سلمنا نُسخ النشرية إلى بوشكيوة يونس ، دعانا هذا الأخير لحضور سهرة تنظمها الكشافة في الغد بمناسبة إحدى الاحتفالات . وألح كثيرا على حضور بن بولعيد الذي وافق بعدما ذكر له يونس أسماء بعض المدعوين .

وفي مقر الكشافة ، جلسنا متراصين كسمكات سردين من شدة ضيق المكان ، مصطفى وبيطاط وأنا ، وسط حشد من المناضلين ، من بينهم علي النمر (الذي سيصبح ضابطا في جيش التحرير) ، و بحضور الإمام الشيخ طاهر مسعودان . فأتحفتنا الكشافة بمسرحية رائعة ألفها جراح حسين ، وهو مرشد مجموعة «الرجاء» ومناضل في الحزب ، والذي طالب الحضور في بداية العرض بعدم التصفيق على المشاهد . كان يحتل خلفية الخشبة ديكور واحد يتمثل في العلم الجزائري ، وفي إحدى الزوايا عُلقت لوحة سوداء كُتب عليها : «أنتم الذين تحتفلون بهذا اليوم ، تذكروا الذين يقبعون في السجون» .

كان بوشكيوة معتزا بكشافته الذين يشرف على مجموعتهم مع الهاشمي بوشيط ، وفي نهاية العرض قدم لنا الفتيان . وأشار إلى أنه في اليوم بالذات ، قام الكشافة بحملة جمع أموال في المدينة لفائدة لجنة مساندة ضحايا القمع . قال له بن بولعيد : «لم أندم أبدا على مجيئي ، لقد قضيت سهرة ممتعة مع مناضلين كبار وصغار ، لديكم مدرسة نموذجية ، وأملي أن تكون قدوة لكل أطفالنا في كل مكان» .

وفي الغد واصلنا رحلتنا أنا ورابح . وفي الطريق قال لي بيطاط بأنه تمكن من الالتقاء بالشخص الذي آواه مع غيره من مناضلي الأوراس . وكلمني كثيرا عن المسرحية التي شاهدناها و تمنى لو يتم عرضها في العاصمة على المناضلين لأنها «تتكلم عن الواقع ومن دون شك ستؤثر في كل النفوس» . وواصلت رحلتي إلى العاصمة تاركا رابح في سطيف .

في سجن بربروس ، بقي بيطاط معزولا لمدة طويلة ، قبل أن يسمح له بالخروج لترويض عضلات ساقيه في ساحة السجناء الفرنسيين المنفصلة عن الساحة المخصصة للجزائريين . وكان هناك بعض المعتقلين الفرنسيين ، مثل الأمين العام للحزب الشيوعي الجزائري «بول كاباليرو» . وكان بعض المعتقلين الجزائريين ، ومن بينهم مسؤولون من أمثال لمين دباغين الذي قضى فترة قصيرة و عبد الله فاضل و العربي ماضي وهو طالب جامعي في فرنسا ، يختلطون بالمعتقلين الفرنسيين أثناء جولاتهم في الفناء .

وفي نفس الفضاء كان يتجول معزوزي محمد السعيد ، المسجون منذ 1945 والذي تم إيقافه في نفس الفترة التي أوقف فيها زروالي و حدادي ، اللذين لا يزالان يقضيان مدة سجنهما . و بقي معزوزي في السجن إلى غاية الاستقلال .

التحق رابح بيطاط ، بعد نهاية عزلته ، بإحدى الحجرات واقتسمها مع ثلاثة رفقاء، ومنذ ذلك تمكننا من ملاقاته بالتناوب بفضل دورات المساجين في الزنزانات . و حصل أن كنا أنا وبوقشورة مراد وعبد الله فاضل و مرزوقي محمد وبوعجاج زبير وعثمان بلوزداد في نفس الحجرة مع رابح .

كما توصلت ، بفضل نبل رضى حارسين ، أن أقضي أوقاتاً طويلة رفقة رابح حتى عندما لم نكن نقتسم نفس الحجرة . فكان المراقبان «فريسا» (الفرنسي الحسبة) و ذباح بوعلام يسمحان لي بزيارة بيطاط بعد المناداة الصباحية الأولى وقبل مناداة المراقبة المسائية .

روى لي رابح أحداث أول نوفمبر في البليدة و ما قام به مع فرق الكومندو فخلال عملية الهجوم على ثكنة «بيزو» ، أصيب بتوعك في عقبه الأيمن شل حركته لبضعة أيام في الصومعة . وعند عودته إلى الجزائر ، أراد أن يتصل بي و بمراد بوقشورة . وحينما علم باعتقالنا ، اختبأ عند صديق لي كان يعرفه و يسكن في «بوانت بيسكاد» . وهناك طلب من مضيفه لزوال العمر أن يبحث له عن كشيدة عبد الله . أراد بيطاط إعادة تنظيم الشبكة و كلف عبد الله بعقد اتصالات . وتوصل ابن أخي إلى إدخاله في اتصال مع مولود حمزاوي و عبد الواحد مسعودي و محي الدين برزوان و محمود بوضياف و باسف سعدي و الهادي باجراح و بن مقدم محمد الذي اتخذه بيطاط كاتب له وعمل فيما بعد مع عبان رمضان . هذا الأخير سيكلف بدوره الهادي باجراح باسترجاع أرشيف الحزب بمساعدة كل المسؤولين المركزيين الذين انضموا إليهم .

وكلمني بيطاط عن الظروف التي أحاطت بتوقيفه بسبب العنصر المشبوه سليمان لاجودان المتواجد حينها بمنطقة بسكرة أين شارك في عمليات الكفاح الأولى ، قبل أن يهرب من مركز مسؤوليته ليلتحق بالعاصمة . وعند مروره ببوسعادة ، أوقف وأطلق سراحه دون أن يعلم بكل ذلك أحد .

كان يحمل خريطة هيئة الأركان وبفضلها استطاع أن يخادع رابح بيطاط و يوهمه بكونه مكلفاً من طرف بن بولعيد بتشكيل تنظيم على المستوى الوطني مؤلف من فرق متنقلة مهمتها الإمداد بالسلاح ، كما دعاه إلى الاجتماع بمسؤولي النواحي لتدارس المشروع سوياً .

ولم يتمكن بيطاط من الاتصال بن مهيدي في وهران ، لكنه استطاع أن يتصل بكريم وعبان اللذين رفضا الدعوة ، وذهب بيطاط لوحده إلى الموعد

الذي أوقعه في الفخ . فقد أوقفته المخابرات العسكرية الداخلية («الدي أس تي») داخل مقهى في باب جديد في أعالي القصبة يوم 16 مارس 1955 .

تمكن رابح من ابتلاع كبسولة من مادة «السيانور» ، لكن بوصوله إلى مقر مصالح الأمن تفطن أحد رجال البوليس إلى حالته ، فسقاه أعوان «الدي أس تي» دواءاً لينقيا كل شيء ، وأجروا له عملية غسيل معدة ثم شرعوا في استنطاقه.

أصر سليمان لاجودان على الخيانة و تم إدماجه كضابط في صفوف مجموعات «القومية». وأثناء سجني العبوري بمدينة وهران ، أخبرني رجالنا في الغرب بأن «الاجودان» الذي عاث في ناحية ندرومة يكون قد لقي العقاب الذي يستحق .

كما أبلغني بيطاط بتوقيف كل من ابن أخي كشيدة عبد الله و باسف سعيد (شقيق سعدي) ، و كيف أنهم وجدوا أنفسهم في نفس الوقت بمقرات «الدي أس تي» . وبينما كان مقيداً في حجرة ، تمكن عبد الله من الاقتراب منه وحاول أن يفك قيده ، لكن ذلك كان مستحيلاً لتشدد القيد حول قدميه ومعصميه .

وسرد لي محاولة انتحاره الثانية ، بعد عملية ابتلاع مادة «السيانور» الفاشلة . لقد قطع شرايينه على مستوى المعصم الأيسر بصفائح حذائه الحديدية ، وهنا أيضاً تفطن له رجال البوليس .

وكلمني عن بعض محادثاته مع «كاباليرو» «Caballero» ، الأمين العام للحزب الشيوعي الجزائري ، وعن تعاطفه مع الثورة ، بحيث لم يُخف نقمته على فتور الموقف الذي خرج به الحزب الشيوعي الفرنسي . وقال ذلك لكوكبة المحامين الذين يزورونه ، ومنهم الأساتذة «بيار "Pierre" و روني ستيب "Renée Stibbe" » (الزوج والزوجة) و«دبشيزال» "Deschezelles" و«برون» "Braun" و«دوزون» "Douzon".

عينا رابح مسؤولاً على المساجين ، و بهذه الصفة أمكنه أن يتحاور مع المدير الذي التقاه عدة مرات بعدها . كانت الإدارة تعامله باحترام ومراعاة وقد تحصل على تنازلات أشعرتنا بتحسن في أوضاعنا .

تحول رابح إلى الحراش ثم إلى فرنسا قبل أن يُلحق بقادة الثورة المختطفين في عملية الطائرة . وحل محله كمسؤول للمساجين في بربروس بن مقدم الذي أدى هو الآخر عملاً جبارا .

قضيت سبعة عشر شهراً في بربروس و ساهمت في النشاط مع إخوان لي في الكفاح ، وأذكر من بينهم سيدي بخلف من البليدة ، المحكوم عليه مدى الحياة و الهادي باجراح من القبة ، وعرفت أوقاتا جد صعبة وفترات أقل صعوبة ، وعملت على دعم التضامن فيما بين المعتقلين للتصدي لسلطات السجن ، وقمت مع الرفقاء بعدة عمليات ضد الإدارة التي ما انفكت تحرمنا من النزر اليسير من الحرية التي كنا نتمتع بها . وأعطت عملياتنا المشروعة بعض ثمارها ، منها أننا شعرنا ببعض التغير في سلوك عدد من الحراس ، وإن كانوا قلة ، وعلمنا بأن جميع هؤلاء يقطنون أحياء يسكنها كثير من الوطنيين الذين كلموهم أو يكونون قد حذروهم من أية غطرسة على السجناء .

و من بين هؤلاء الحراس الذين اختاروا وظيفة المراقبة للحاجة ، من قدم خدمات جليلة للثورة و لجبهة التحرير . هل كان ذلك من خوف أو عن إيمان؟ لاأستطيع أن أجزم بالقول ، المهم أنهم خاطروا بحياتهم . في حين اشتد الخوف ببعض الطغاة منذ أن تلقى الرئيس المراقب «كانيزيو» إصابة خطيرة على يد إحدى فرق الردع التابعة لجبهة التحرير ، وكانت قسوته و عنجهيته صفتين معروفتين لدى الجميع ، كان يتبجح بذلك أمام المساجين وهو يتلاعب بحزمة المفاتيح الضخمة في يده . لقد كانت الحادثة مواساة لنفوس المعتقلين واتخذها الحراس عبرة ، مما جعلهم يلطفون من خشونتهم .

لقد أزعج نشاطنا مديرية السجن لأن السياسيين نجحوا في توعية كافة السجناء الذين صاروا متضامنين بخصوص بعض المطالب . وكان سهلاً على الإدارة معرفة الرؤوس المدبرة ، لهذا كنا دائماً عرضة لمضايقات : تفتيش بدني يومي ، و لإهانتنا يأمروننا في بعض الأحيان بخلع الثياب كلية ، أمتعتنا و أفرشتنا تقلب كل يوم ، تبديل دائم للحجرات ، مصادرة وثائقنا البيداغوجية من دروس و تمارين ومخطوطات خاصة بالتدريس حُظرت منذ أمد طويل .

ذلك هو سجل معاناتنا . واحتجاجاً على أساليب المعاملة هذه قمنا بشن عدة إضرابات عن الطعام وعمليات تمرد سلطت بموجبها عقوبات تتراوح بين 15 إلى 90 يوماً في الزنزانة ، و في بعض الحالات يفرض علينا النظام السحري «حوكي» ، و يتمثل في قصعة حساء ليومين (أين كانت المنظمات غير الحكومية؟) .

لم تثن هذه العقوبات قط من عزمنا على نقل الكفاح إلى عمق السجن . لقد عانينا كثيراً وانعكس ذلك على صحتنا ، لكن كم كانت سعادتنا كبيرة عندما رأينا الإدارة ترخص اليوم مما كانت تحظره بالأمس ، وكنا نسعد أيضا لرؤية بسمة عفيفة مرتسمة على شفاه سجين أمي أدرك بأن الإدارة لانت بفضل عمل منسق وبفضل تضامنه هو شخصياً وكذا تضامن كل زملائه .

عندما رأت سلطات السجن بأنها تواجه وطنيين أشداء و ثائرين ، شعرت بالخطر يهددها وبأن الوضع سيفلت من مراقبتها إن آجلاً أم عاجلاً . هل كانت تخشى حدوث تمرد عام؟ لاشك أنه لو استمر الضغط على ما كان ودام القمع ، فسوف لن نتردد عن شن التمرد . لم يعد من السهل ترويض مساجين الحق العام واستغلالهم كما كان في الماضي ، وتعرف الإدارة تماما بأن تحولهم تم على يد العناصر السياسية .

أعد المدير تقريراً رفعه إلى السلطة الوصية ، يندد فيه بموقف «الفدوات السيئة» ، فاقترح فصل المشوشين والمنظمين بتفريقهم على مستوى مختلف مراكز الاعتقال عبر الوطن ، فتم حشد المعتقلين «السياسيين» النشطين الذين تعتبرهم الإدارة مشوشين في القاعة «ج» ، معزولين عن باقي المساجين ، ثم حولوا نحو مراكز اعتقال أخرى داخل التراب الوطني . وأخذ البعض منا وجهة الأصنام ، في حين توجه البعض الآخر نحو مدينة وهران . وكنت أنا من بين الموجهين إلى سجن وهران بتاريخ 22 مارس 1956 ، و قيل لي : «هناك سيروضونك» .

كنا ضمن موكب مؤلف من حوالي ثمانين سجيناً سياسياً مقيدين بسلاسل في مجموعات من أربعة أفراد ، دُفع بنا داخل القطار تحت مراقبة مشددة للفرق

التابعة لشرطة مكافحة الشغب ، فأقلع بنا باتجاه مدينة وهران . وتعرفت في وسط المحتشدين على المناضل الشاب زهوان حسين الذي كان بوقشورة يحب ممازحته في العاصمة و يدلله دائما مناديا إياه «الطالب ذو التبان القصير» .

محكوم عليهم بالإعدام في وهران

لدى وصولنا ، وجدنا في استقبالنا المدير الذي عرفناه في بربروس وكان حينها نائب مدير ، فحذرنا قائلا بأنه لن يسمح بنفس التصرفات التي حدثت في العاصمة . في الأيام الأولى ، اطلّعنا على حالة السجن وعلى ما يعدّه من معتقلين . وعلمنا بأن عدد المصاليين المسجونين يفوق عدد الجبهويين . والتقينا بمناضلين كنا نعرفهم وتعرفنا على مناضلين آخرين ، ثم قمنا بتقييم لقدراتنا واعتزمنا القيام بنشاطات بغية فرض نفوذ جبهة التحرير .

وكان من بين المسؤولين المعتقلين سويح الهواري ، وهو عضو في اللجنة المركزية ومسؤول منطقة وهران ، و جلولي الحبيب و السبع محمد الذي ساعدنا كثيراً في الإطعام ، وإن كان الأكل في السجن على العموم مقبولاً وأحسن بكثير مما ألفنا في بربروس ، بدليل أنه لم تسجل أية شكوى وأن بعض المساجين اعترفوا لنا بأن ما يأكلون هنا أفضل مما يأكلون في ديارهم . وهذا لم يمنع السبع الذي كان يملك مطعم «الوداد» بوهران ، من أن يغدق علينا بقفته التي يملؤها دائماً بمختلف أصناف المأكولات .

في هذا السجن التعس ذي الرواق الطويل في مدخله و ذي الأسوار المكلسة بالسواد ، كان معنا سيدي يخلف محمد المدعو مصطفى من البليدة ، المتهم باغتيال مفتش شرطة . وحُكم عليه بالإعدام ، فقام باستئناف الحكم ، و نجح محاموه في الحصول على الاستئناف . وعند وصوله إلى وهران ، كان جد متأثرا بعزلته الطويلة في البليدة حيث كان المدير الممسوس والطاغية «كاسار» يتفقده كل صباح ليستفزه ويصب عليه جام حقده وينهال عليه بشتى الألفاظ البذيئة التي يندى لها الجبين . كان يفتح الشباك ، وبعد سيل من الشتائم ، يقوم بتقليد حركة المقصلة بيديه .

وكان معنا أيضاً سنوسي عبد القادر من تلمسان الذي قتل ضابطاً برتبة رائد في الجيش الفرنسي . و وُضع هو كذلك في مكان سري لمدة خمسة و أربعين يوما وبعدها أخرج من جحره و وُضع معنا في القاعة .

وتلقى السجناء بمزيد من الأسى خبر تنفيذ حكم الإعدام بالمقصلة في الشهيد أحمد زبانة المدعو احميدة ، على الساعة الرابعة صباحاً يوم 19 جوان 1956 في ساحة سجن بربروس بالعاصمة .

وكان زبانة الذي يعمل لحاماً مناضلاً في المنظمة الخاصة ، أوقف من سنة 1950 إلى 1953 ، وتعرض لإصابة أثناء اشتباك وقع يوم 8 نوفمبر 1954 بالقرب من سان لوسيان بطيوة حاليا – ولاية وهران ، إحدى ضواحي مدينة وهران ، وزج به في السجن .

وبعد سبع دقائق من إعدام زبانة جاء دور عبد القادر فراج وهو عضو في كومندو علي خوجة ، ومُنفذ كمين خلّف ستة قتلى ، ليدفعه الجلاد إلى منصة الإعدام . وقد قرّب هذا الإعدام المزدوج المعتقلين بعضهم من بعض .

أردنا أن نحمي رفيقينا سيدي يخلف و سنوسي ، المنهكين من أثر العذاب الذي تعرضا له ، و نجنبهما الأخطار . وفي خضم المبادرات التي قمنا بها لصد مضايقات الحراس ، أبديا موقفاً مشرفاً وأظهرا شجاعة مثالية ، وكنا نجدهم في مقدمة المواجهة رغم تحذيراتنا . فقد أخرج سنوسي من الصف و ألقي به في زنزانة أضيق ، قبل أن يتم إعدامه في العاشر من أفريل 1957 ساعة قبل إعدام شاب آخر .

و قبالة زنزانتي ، يوجد كذلك اثنان من المحكوم عليهم بالإعدام هما قراب حميد المدعو «الوسيان» و عمور أحمد الذي أعدم في العاشر فبراير من نفس السنة على الساعة الخامسة وأربعين دقيقة صباحاً . وكان هناك أيضاً شاب حكم عليه بالإعدام ، يدعى حمو محمد ، لا يتجاوز عمره سبع عشرة سنة و عمد الفرنسيون إلى تزوير تاريخ ميلاده لدفعه إلى المقصلة في العاشر من أفريل 1957 على الساعة الخامسة إلا الربع صباحاً . والذي كان قد شكل مع ضابط

صف في الجيش الفرنسي متقاعد و شخص ثالث مجموعة نفذت عملية في «ريو سالادو»المالح حاليا- ولاية عين توشنت . تعلم الفتى رمي القنابل اليدوية على يد ضابط الصف المذكور ، وقام برمي العبوة المتفجرة في إحدى قاعات السينما .

وأقام حمو معنا بعض الوقت عندما كنت في القاعة . وعند خروجه منها ، مسكناه محصوراً بيني و بين مناضل آخر لنقيه شر اللكمات والركلات ، لأنه مصنف عند الحراس ، فيعتدي عليه كل من يمر به منهم . وحميناه وقت أن كان معنا و أوصينا به كل الرفقاء .

حدثت مزايدات بين جماعتنا و جماعة قوفال ، وهو مسؤول مصالي في وهران ، حول حركة العصيان التي اعتزمنا تنظيمها ، وأعلنّا أننا نرفض العمل لحساب معمّر أبرم صفقة مع إدارة السجن تتمثل في تولي المساجين القيام بربط الحلفاء . وعمّت الفوضى ، غير أنه تم شنّ إضراب توقفت بسببه جل النشاطات داخل القاعة التي تأوي زهاء مائة وعشرين سجيناً . وللإشارة ، فإن قاعات سجن وهران أوسع من قاعات بربروس ، ولم يكن يفرض نظام التناوب على السجناء .

لكل قاعة ساحتها الخاصة للتجول ، فمثلاً سجناء القاعة رقم 3 لا يعرفون سوى الساحة رقم 3 ، وكان الفصل بين قاعات الاعتقال جد محكما ، إلى درجة أنه إذا دخل سجينان في نفس اليوم و وُجّها إلى قاعتين مختلفتين فإنهما قد لا يلتقيان مرة أخرى . وكان رد فعل الإدارة سريعاً : شتائم ، تهديدات ، ضرب بالهراوة ، لكن دون جدوى . و أرسلت تعزيزات من شرطة مكافحة الشغب التي احتلت المؤسسة.وطوقت كل البناية .

. احتشاد واصطفاف وتوعدات ، ثم صدر أمر : «ليخرج المسؤولون من الصفوف . .» ، فقمت بخطوة إلى الأمام ، و تبعني على التو الهادي باجراح ثم ثالث هو سنوسي عبد القادر و رابع هو سيدي يخلف محمد . وتقدم الرئيس المراقب فأشار إلى البعض حتى بلغ عددنا اثني عشر . وانهالوا علينا ضربا حتى الصرع ، ثم ألقوا بنا في الزنزانات ، أربعة في كل زنزانة ، ورمى الحر[illegible]

في وجوهنا دلاء ماء لإنعاشنا . وكانت تلك أسوأ الضربات التي تلقيتها ، فقد بلغت خشونة الحراس يومها ذروة الحيوانية . لقد كشفنا أنفسنا بأنفسنا ، لأننا كنا نريد أن نبين للسجناء بأن الفائدة من الإضراب ينبغي أن تعود على جبهة التحرير ، في حين كان عدد المصاليين يقارب الأربعمائة . كما يجب أن نشيد بالشجاعة المثالية لكل من سنوسي عبد القادر و سيدي يخلف محمد ، اللذين اعترفا بمشاركتهما ، رغم نصحنا لهما بألاّ يفعلا تجنبا للخطر الذي يتعرضان له هما على الأخص .

عوقبت لمدة شهر . وكان رفيقي الأول في الزنزانة ، محمد من الأوراس ، الذي كانت عيناه دائماً ملتصقتين بثقب القفل . وقبالتنا ، كان يشاهد المحكوم عليهم بالإعدام لحظة خروجهم من الزنزانة ليمشوا بعض الخطوات على طول الرواق . وكانت تلك لحظة الراحة الوحيدة ، إذ لن يعرفوا بعدها أماكن أخرى . ولطول ما يراهم محمد الأوراسي مقيدين والأغلال تلتف حول أقدامهم ، فقَدَ عقله في الأخير .

أما رفيقي الثاني وهو مصطفى سيدي يخلف من البليدة ، الذي أوقف يوم 18 يناير 1955 ، و كان كثير التدخين ، فعوقب لثلاثة أشهر . وأعدم بالمقصلة يوم 10 جوان 1957 على الساعة الثالثة وعشرين دقيقة صباحاً ، ولقي المصير الذي أنذره به مسؤول سجن البليدة «كاسار» «Cassard» .

كل يوم ، وفور انتهاء الحارس «لوكيني» من معاينة قضبان النوافذ ، يأتي ليستعرضنا أمامه . فيقف السجناء في الصف بأيدٍ مقبوضة خلف الظهر ، ويقوم هو بالتفتيش البدني و يأمرنا بفتح الفم ثم يستنشق ليتعرف على المدخنين .

وكان السجين الرابع معنا منطوياً على نفسه ، يكاد لا يتكلم ، و يجيب فقط بنعم أو لا .

استمر المحامي «تيفيني» الذي أسسته جبهة التحرير الوطني يزورنا من حين لآخر ، بالرغم من انتهاء محاكمتنا وإدانتنا . وحذرنا من مدير السجن الذي يستفيد حسب قوله ، من حماية البريفي (الوالي) «لامبير» . وذات يوم ، أخبرنا المحامي بانعقاد اجتماع هام ضم عدداً كبيراً من مسؤولي الثورة في الجبل و

بإنشاء هياكل تنظيمية عبر كافة التراب الوطني ، و أوضح لنا بأن القادة خرجوا بعدة قرارات تخص الجانب السياسي و العسكري و أن «الثورة ستخطو خطوات إلى الأمام» . وعلمنا فيما بعد أن الأمر يتعلق بمؤتمر الصومام .

وكان حضور «تيفيني» كل مرة فرصة للمناضلين للانفراد والتشاور حول العمليات الواجب تنفيذها . لقد حفزنا المؤتمر (وإن لم نكن على علم باللوائح المنبثقة عنه) وعمدنا إلى تضخيم الحدث لتأكيد سيطرة جبهة التحرير الوطني . وفي تلك الأثناء أتيح لي أن أتحدث أكثر مع سويح الهواري و الحبيب جلولي.

ثلاثة أبطال في البرواقية

بعدما قضيت سنة في وهران تحت رقم سجن 1856 ، هاأنذا أحوّل إلى المؤسسة المركزية بالبراوقية.

هناك ، ذقت العذاب مع باقي السجناء بسبب الطعام الذي كان أسوأ من الطعام الذي كان يقدم لنا في بربروس . فليس للأكل المطبوخ في برمة وسط الساحة من الطعام سوى الاسم .هي بعض الخضر غير منزوعة القشور مرمية في ماء و تقدم هكذا . لا تؤكل . . و مع ذلك ، تراني بعد لحظة أصطاد حبة البطاطا في حالة وجودها ، فأنزع قشورها وأبتلعها . والأدهى أننا عندما يحين موعد الأكل ننتظر عشرين دقيقة لبلوغ المكان الذي سنتناول فيه الطعام الذي يقدم ساخناً ولا يبرح أن يبرد خلال الدقائق التي ننتظر فيها ، فنبتلعه على برودته .

أما الحمام فحدث ولا حرج ، إذ نتقدم في طابور ونضع ألبستنا على بعد عشرين متراً من الحجرة ، وعندئذ يفتح الرئيس المراقب الحنفية وينادي بأعلى صوته : «ديروا الصابون . .» ، و دون سابق إنذار ، يقطع الماء . إنها «سادية» ، فكم مرة غادر السجناء الحمام وأبدانهم مغطاة بالصابون . هنا أيضاً ، يرشوننا بمادة «الدي دي تي» المضادة للقمل ، ونعود للمشي عشرين متراً عراة لارتداء ثيابنا . . و أي ثياب !هنا ، وبخلاف السجنين السابقين حيث كنا نحتفظ بألبستنا ، فرض علينا زي السجناء المصنوع من قماش خشن يحدث في أجسامنا

الحكة ويشبه الزي الذي يلبسه سجناء «كيان» . ففي الشتاء ، سروال و سترة وقميص من لون بني ، وفي الصيف زي أبيض . داخل الحجرات لا يحق لنا في النهار استعمال أفرشتنا عندما نكون معاقبين . ولإثارتنا أكثر يرمي الحراس بدلاء من الماء في الحجرات ، وعلى السجناء تجفيف الأرضية . وكانت الليالي قاسية ، فمنطقة البرواقية معروفة ببردها القارس إذ نبيت مرتعشين فترانا نندفن بعضنا في بعض .

في هذه المركزية ، كما في بربروس و في سجن وهران ، تجري عملية الإحصاء ومناداة السجناء كل صباح ومساء . وإذا كنا في المؤسستين الأوليين معترفا بهويتنا ، ففي البرواقية ، لا ننادى بأسمائنا وإنما بأرقام التسجيل التي نحملها ، فقد كنا مجرد أرقام . . و كنت الرقم 4062 .

تعرفت على أناس كثيرين ، أذكر منهم أحمد قبايلي ، أحد رواد سباق الدراجات الفائز على العديد من المحترفين في فرنسا دون أن تُمنح له أي فرصة للبروز . وعندما أوقف أحمد «نسر الشريعة» استطاع أن يبعث برسالة إلى الثوار في الجبل تمكن الجيش الفرنسي من العثور عليها في جثمان أحد المجاهدين ، فأخرج قبايلي من زنزانته و وُضع بين أيدي الجلادين خارج السجن ، وعذب بوحشية لا توصف قبل أن يعاد إلى السجن في حالة يرثى لها .

وبالإضافة إلى أحمد ، هناك شخصان آخران أعجبت بشجاعتهما وطريقتهما في رد الاعتداء .

الشيخ بلعابد سماتي رجل تقي ومُحترم ، عمل مدرساً في إحدى المدارس التي يشرف عليها حزب الشعب/ ح . إ . ح . د في عين مليلة ، وكان بوضياف وبن بولعيد و بن مهيدي يزورونه في كل مرة يمرون على الناحية . كانوا يكنون له احتراماً كبيراً و يرد ذكره دوماً في حديثهم أثناء إنجاز تقاريرهم الشهرية الموجهة للحزب .

التحق الشيخ بالجبل ، رغم قرار مسؤولي جيش التحرير للناحية الذين نصحوه بأن يلزم بيته وأن يساعد الثورة بطرق أخرى كالإرشاد الديني . لكنه أصر على الصعود وحمل البندقية لإخراج المستعمر ، كما قال هو . كانت له

الكلمة الأخيرة فعاش مع المجاهدين إلى غاية اليوم الذي وقع فيه أسيراً. وظل في السجن بنفس رباطة الجأش وأذاق سجانيه المرارة وشنّ إضراباً عن الطعام لمدة اثني عشر يوما.

وبالمقابل، كسر له الحراس أسنانه، وبفكه المشوه، صمد لهم ورد عليهم الصاع صاعين. وكان هذا الرجل الشهم محترماً ومحبوباً لدى جميع السجناء. جلست معه كثيراً وحدثني عن الماضي ويورد على مسمعي القائمة الطويلة للمسؤولين والمناضلين الذين يحضرون لخطبه الدينية ودروسه في الإرشاد وحب الوطن. وحكى لي عن مغامراته مع الشرطة وعن الأعوان المتجسسين الذين عجز عن اكتشافهم بين حضوره.

شخص آخر أعجبت به، بخوش لعروسي المدعو مصطفى، مسؤول دائرة عنابة الذي قاسمني أهوال القاعة رقم 9. يتميز بضعف البنية وقوة العقل وعرف التعذيب فور اعتقاله في مطلع شهر نوفمبر 1954. وقد كتبت جريدة «لومانيتي» في عددها الصادر بتاريخ 8 نوفمبر 1954، بقلم ماري بيرو، تحت عنوان: «ألوان تعذيب تذكرنا بما كانت تمارسه «الغستابو» (غسل المعدة، تعذيب بالكهرباء.. الخ) تسلط على جزائريين اعتقلوا في باتنة». ونقلت الصحفية التعذيب الوحشي الذي مورس على بخوش مصطفى وخالد لزهاري في مقر الشرطة. كان لديه مستوى دراسي عاليا، بما أنه تحصل على البكالوريا وبدأ دراسات جامعية قطعها بسبب التزامه السياسي وهذا قبل اندلاع الثورة بكثير، كان لا يبخل في تقديم دروس للسجناء أيا كان مستواهم، نراه يأخذ التلاميذ بالواحد ويشرح لهم بصبر وأناة، لهذا قواعد النحو ولذلك قواعد الصرف. وعندما يكون لديه وقت للراحة، ينزوي وينهمك في الكتابة، إذ كان يكتب قصصاً قصيرة، وعند الانتهاء من كتابة كل قصة، يجمع بعضاً منا ممن لهم قدرة على فهم السرد ويشرع في قراءة جماعية.

لم يرُق نادي القراءة هذا بعض الحراس الذين قرروا مصادرة نصوصه.. هل كانوا يحسدونه على مستواه الدراسي وثقافته، أم لم يعجبهم أن يناديه البعض «بروفيسور»؟

لأحد بشك في ذلك، كان يؤلمه أن يجرد من مخطوطاته، لكنه لا يُظهر ذلك. وفي يوم من الأيام، بينما كنا على انفراد، أسرّ إليّ مما كان يختلج في صدره. ومنذ ذلك اليوم، نظمنا أنفسنا لحماية إبداعاته سيما وأنه بدا شديد الحرص على قصة شرع فيها. وعندما بدأ يثخن سمك مخطوطه الذي أعطى له عنوان "Les mal-vivants" (المعذبون)، ارتأينا بموافقته أن ندفع به خارج السجن، لأنه في نفس الفترة عرف مصطفى وساوس الزنزانة بسبب الوثائق التي اكتشفت لديه فعوقب لمدة شهر، وخفنا عليه لأنه كان عليلاً وكنا رأينا من قبل سجناء من ذوي البنية القوية خرجوا من الزنزانة محطمين تماماً، يمشون مترنحي الخطى ومعنوياتهم في الحضيض.

عندما غادر مصطفى الزنزانة. ذهلنا وفي نفس الوقت فرحنا لرؤية جسمه خالياً من آثار الجحيم الذي خرج منه، وكانت أول كلمة تفوه بها هي «سيجارة» فقد كان يدخن دون انقطاع وقمنا ثلاثتنا بإطعامه: أنا وملاح سليمان المدعو رشيد وبوعلي سعيد المدعو «لاموتا»، والاثنان عضوان في مجموعة الاثنين والعشرين.

وعندما سألته كيف استطاع أن يخرج سالماً معافى من هذه المحنة الرهيبة التي لا ينجو منها إلا القليل، رد علي مصطفى بشجاعة: «الإنسان يتأقلم حتى مع الجحيم.. يجب على المرء أن يحتفظ بمعنويات مرتفعة، كل شيء يحدث هنا» وراح ينقر بسبابته على صدغه.

غادرت سجن البرواقية في 11 نوفمبر 1957... ثلاث سنوات حرمت خلالها من حريتي، بعدما عرفت زنزانات ثلاثة سجون استعمارية.. وعرفت أيضاً رجالاً. لم ينته كابوسي هنا... كما لم ينته نضالي.

أحـــرار... لكـن منهكـون

في أواخر عام 1957 هذا، ذقت بمرارة طعم الحرية. لقد تأثرت صحتي بآلام السجن تأثراً كبيراً. غادرت البرواقية منهكاً، لا أظن أني أزن أكثر من 48 كيلوغراما، فالطبيب الذي زرته بالعاصمة أحصى جميع الأمراض التي أصبت

بها في السجون الثلاثة . في بربروس ، أصبت بالتهاب المعدة جراء إضرابي الأول عن الطعام الذي دام خمسة عشر يوما ، تطور الالتهاب فأفرز عن قرحة حادة بورمين ، الأول على مستوى البصلة السبسانية والآخر في مؤخرة المعدة وفي البوابية ، بالإضافة إلى التهاب الكبد ، ظهر اعوجاج لعمودي الفقري في قاعدته ونتوء بفعل التعذيب . وخاتمتها ، تمزق غشاء أذني اليسرى مع جروح النزيف . تكفل بي الطبيب بإحسان والتزم بمعالجتي . وكان متفهما وعاملني كطبيب نفساني . فزيادة على الأدوية التي وصفها لي ، أسداني نصائحه لكي أتغلب على عجزي . فحوصات متنوعة وتحاليل وبيان صحة . كنت أزوره مرة في الأسبوع بطلب منه . دلني على بعض التمارين الجسمانية لإعادة تأهيل عمودي الفقري ، لأنني لا أستطيع و لا أريد أن أزور طبيب إعادة التأهيل الوظيفي . وبعد مرور شهر ، وصف لي نظام تغذية ملائم مع راحة في الفراش وتمارين جسمانية . كانت طيبة منه أنه ظل يزورني و يجلس إلي لمدة ساعات طويلة . و كانت لنا أحاديث مطولة عن أوضاع البلاد حيث وصفت له ما كان يجري في السجون مركزا على النظام القمعي و الوعي المنتشر في أوساط السجناء بفضل العمل الذي يقوم به المناضلون ، وكان يصغي إلي بانتباه . وعملا بتوجيهاته ، لزمت الغرفة أكثر من شهر . وعندما استرجعت بعض قواي ، زرته في عيادته لأشكره و أدفع له ثمن كل خدماته ، فكان فرحا برؤيتي واقفا وكنت أشبه ، حسب قوله ، بالعائدين من الموت . ورفض رفضا باتا أن يتسلم أجرة على ما فعل . وأكثر من ذلك ألح علي بعدم التردد في زيارته وقتما أردت وأن أدله على كل من يوجد في حالة مثل حالتي ، وأبدى استعداده لعلاج أي مناضل يحتاج ذلك . فقلت له بأني سأتكفل بالأمر و شكرته . و التقيت به فيما بعد وأصبحت علاقتنا ودية وأخوية .

صديقان في حالة يرثى لها

قمت بزيارة لصديقي بوقشورة مراد الذي أطلق سراحه . وعندما رأيته ممدوداً على فراش بيته ، وكانت زوجته وأولاده على رأسه ، لم أصدق عيني . تدهورت حالته الصحية كثيراً ، هو الذي كان قوي البنية قد ذاب تماماً . لكن

الذي أخافني أكثر حالته النفسية لأنه كان منهاراً وصارت حركاته بطيئة و يتكلم بمشقة ولم يكن يستطيع أن يتحمل الحديث مطولا ، كأنه غارق في غيبوبة . فمراد الذي عرفته حيوياً ومشحون الطاقة ، يمثل أمامي الآن في هيئة شبح خارت قواه . حالة إحباطه تثير الشفقة و البكاء ، ولا شك أنه شبع المرارة . كان مراد دوما رجلا مقداما و لا يسمح لأحد بأن يمسه بسوء . تحدى الحراس في بربروس ، و كان يدرك بأنه «مصنف» . وكان في كل مرة يحدث شغب ، يرد اسم بوقشورة . كان يتصدى للرؤساء المراقبين مع علمه بأنه سيعاقب . وعندما أراه هنا خائر القوى وعديم الحركة ، أصاب باللوعة .

ولحسن حظه هو الآخر تكفل به الأطباء والأهل ، وكنا ثلة من الأصدقاء الذين قضوا أوقاتاً طويلة بجانبه . وشيئاً فشيئاً ، استرجع صحته وبدأ يتكلم . كنت أشجعه وأنا أحدثه عن كل المحن التي عانيتها في السجون الثلاثة التي مررت بها . ورغماً عني ، كلمته عن اللحظات التي كدت فيها أن أستسلم وتلك التي كنت فيها خائفاً . وقلت له بأني أصبت بقرحة معدية وأني سأظل أصما بقية حياتي بسبب غشاء أذني الممزق . «لكن الحمد لله نحن أحياء ، وأنا في انتظارك لنستلم معاً الوسام » وارتسمت بسمة خفيفة على وجهه الشاحب . ابتسم لأول مرة وابتهجت لذلك زوجته وكادت تطلق الزغاريد . يومها تنفست الصعداء ، وعدت إلى بيتي فرحاً لأن أعز أصدقائي في طريق الشفاء ، وأني سأعود لأرى من جديد رفيق دربي ، مراد النشيط .

وعندما بدأ يغادر بيته ، كان يأتي ليجلس معي في المحل ، حيث نقضي أحيانا كل النهار . ويحكي لي عن كل معاركه ومعاناته في السجن . لقد عانى الكثير . واستعاد عافيته تدريجيا واستغرقت فترة نقاهته وقتا طويلا . وعندما لاحظت قدرته على المشي وعلى الكلام ، أخذته لزيارة صديقنا الهادي بأجراح الذي أفرج عنه في تلك الأيام ، والذي كان في حالة سيئة هو الآخر ، حيث لا زالت آثار السجن بادية عليه فقد خرج منه منهكاً و جد متعب . و ذاق والده نفس العذاب ، كيف لا و ابنه الوحيد الهادي لا يريد دخول المستشفى . فعند خروجه

من السجن ، أصيب الهادي بالتهاب رئوي ووصف له الطبيب عدة أدوية ومهدئات . ولأنه ربما ابتلع كمية كبيرة منها ، أصيب بانهيار عصبي . فأراد أهله أن يدخلوه المستشفى لكن الهادي أبى . وعندما زرناه في بيته ، أنا و مراد ، طلب منا والداه أن نفعل كل شيء ليقبل التداوي في المستشفى لأن حالته ازدادت سوءا يوماً بعد يوم . كان الهادي بالفعل مريضاً و كان يرفض تقريباً كل شيء ، مما زاد من يأس والدته التي كانت لا تبرح فراشه . حكينا له كل معاناتنا وشرحنا له بأننا تماثلنا للشفاء . «كنتَ دائماً إنساناً شجاعاً ، و كثير من الناس يضربون بك المثل في السجن وخارجه . الثورة بحاجة إليك . لقد وقعت خسائر كثيرة ، والشبكات التي عرفتها تم تفكيكها . علينا بالعودة للعمل . أصدقاؤنا محتاجون لنا . . وبلادنا كذلك» . توصلنا إلى إقناعه وإدخاله إلى مستشفى «جوانفيل» للأمراض العقلية بالبليدة . وبعد مدة ، استعاد الهادي باجراح قواه و حبّه للحياة ، واستعاد نشاطه النضالي . ومن بين الأعمال شارك فيها استغلاله لوظيفة والده في الأوبرا لاستقطاب مجموعة من فنيي الراديو الشباب وعددهم اثنا عشر ، وتوجيههم إلى الجبل بمساعدة مراد بوقشورة . ودعمت هذه الفرقة التقنية فيما بعد مصلحة اتصالات جيش التحرير الوطني .

وضع غامض

في ربيع عام 1958 اتصلت بسجين تم الإفراج عنه هو الشاب أحمد علام الذي كان ينشط ضمن مجموعة صغيرة تضم عناصر من بينها أحمد شيبان و ربيع حطاب الذي استشهد والرشاش في يده أثناء اشتباك مع دورية عسكرية في شارع «لالير» «Rue de la Lyre» أحمد بوزرينة حاليا- العاصمة . واتصل علام برجال الولاية الرابعة الذين يسعون لإعادة تشكيل الناحية السادسة كبديل للناحية المستقلة للعاصمة .

وبموازاة ذلك ، كنا ، أنا و مراد و الهادي ، اتصلنا بأحمد زهوان الذي كان على علاقة برابح وهو شقيق كريم بلقاسم ومسؤول ناحية ، بغية اللحاق بحسين زهوان الذي كان رفيقاً لنا في السجن و الذي التحق بالجبل في الولاية

الثالثة فور الإفراج عنه . في تلك الأيام ، كانت منطقة القبائل تمر بمرحلة في غاية التعقيد ساد فيها اللا استقرار بسبب العمل البسيكولوجي الذي قامت به المصالح الفرنسية الخاصة .

وبعد مرور بضعة أيام ، التقينا بحسين العائد من الجبل . كان خائباً من التصرفات الطائشة والمعتمة التي تصرف بها المسؤولون على مستوى قيادة الولاية . لقد وقع العقيد البطل عميروش في فخ نصبه أخصائيون فرنسيون من المكتب الثاني عرفوا كيف يحركون الخيوط و يبثون الشك حول بعض الإطارات في أول الأمر ، ثم حول مجاهدين بسطاء تحصل على أسمائهم بفضل بعض المخبرين . كان قائد الولاية متيقناً من وجود مؤامرة تقودها عناصر مندسة في صفوف جيش التحرير واشتبه خاصة بالمثقفين والطلبة الذين فروا من العاصمة عقب معركة الجزائر . ومن بين الإجراءات الراديكالية التي اتخذها ، إقدامه على إعدام عدد هام من الهاربين من الجيش الفرنسي و «الحركة» الذين التحقوا بالثورة . وأمر بمراقبة المراسلات الشخصية وأقام سداً حقيقياً بين الولايات . أصيب حسين زهوان بلوعة من تصفية الحسابات و الإعدامات اليومية . كثير من المجاهدين أعدموا من غير محاكمة . وعاشت جبال جرجرة في جو من الهستيريا تتحكم فيه الريبة والشبهات . الجميع يشك في الجميع . تعتبر هذه إحدى الحلقات السوداء التي خططت لها المصالح الخاصة جيدا ونجحت في تجسيدها بعدما قامت بنسج أدلة كاذبة عن الخيانة . فقد سُفكت دماء الكثير من الأبرياء على أيدي إخوانهم . وأبادت هذه المجزرة كتائب كاملة ونشرت جواً موبوءا في جرجرة . وعندما أقدم عميروش على حملته التطهيرية ، نبّه الولايات الأخرى إلى الأخطار التي تحدق بها . و أودت هذه الشبهات بحياة رجال نزهاء لم تفارقهم التهم الخطيرة التي ألصقت بهم كما يعيش آخرون بآثار الخيانة . ونجحت المناورة في شل حركة المقاومة بحيث صدر أمر بإيقاف عملية تجنيد المنخرطين الجدد عبر كامل تراب الولاية الثالثة . و ظلت الريبة سيدة الموقف ، لا سيما إزاء الوافدين من العاصمة .

كانت فترة مؤلمة جداً في مسيرة ثورتنا .

في العاصمة ، صارت النشاطات مقتصرة على جمع الأموال والأدوية والألبسة وعلى تخزين الأسلحة والذخيرة على ندرتها . ومنذ اشتداد القمع خلال المرحلة الأخيرة من معركة الجزائر ، لم تعد أي شبكة تعمر أكثر من شهرين . فكان الشلل التام .

تم تفكيك معظم الشبكات التابعة للناحية الحرة ، وتمكنت المصالح الخاصة التابعة للمكتب الثاني ، وبالتعاون مع مصالح المخابرات الداخلية «الدي أس تي» ، من التسلل داخل هياكل «المنظمة السياسية والإدارية» بواسطة عناصر من «مجمع المعلومات والاستغلال» (GRE) ، وهي منظمة سرية أنشأها العقيد «غودار» والنقيب «كريستيان ليجي» الذي كان من الأقدام السوداء بالمغرب وعضوا سابقا في المخابرات العسكرية (SDECE) منذ 1955 والذي تعلم الحديث بالعربية . وبمساعدة الخائن احسن قندريش المدعو زروق ، المسؤول الجهوي السابق للناحية الحرة في جبهة التحرير الوطني الذي صار من عملائهم بعد اعتقاله ، قام «مجمع المعلومات والاستغلال» بهجوم مباغت على مختلف خلايا المناضلين الذين لا يزالون ينشطون ولم يتراجعوا نحو الجبال . واتضح أن يد المساعدة التي قدمها قندريش كانت حاسمة وثمينة للمظليين تحت إمرة «بيجار» و«ماسو» . وكان بمثابة «قلوفة» (جامع كلاب العدو) ، ووُضع على رأس «الحركة» المنظمين في شكل ميليشيا بزيهم «الأزرق» الخاص بمنطقة العاصمة . ويُلقب هؤلاء الخونة بالزرقة ومنه جاءت كلمة «بلويت» «Les Bleus» التي تثير في نفوس العاصميين التقزز و الاشمئزاز .

إن تمكن وباء «البلويت» "Bleuite" ، الذي يعد حليف المصالح الخاصة بفضل التواطئ غير الإرادي أحياناً الذي شارك فيه بعض العناصر الذين اعترفوا تحت التعذيب ، أدى إلى انقلاب جذري في نظام حرب المدن بالعاصمة . وحاولت العناصر التي لم يتم توقيفها إصلاح بعض الخلايا ، لكنهم لم يتلقوا توجيهات من أي طرف كان . فالمسؤولون إما قضي عليهم أو التحقوا بالجبل ، بينما فضل البعض التماوت في انتظار مرور هذه الموجة اللعينة . لقد عمت الفوضى ، ومع ذلك وُجد هناك مناضلون سعوا لإعادة تشكيل الخلايا وحافظوا

على الشعلة . وظهرت مبادرات كثيرة قام بها مناضلون بسطاء بقوا في اتصال فيما بينهم في غياب المسؤولين و انعدام التوجيهات .

وأمام صعوبة الالتحاق بالولاية الثالثة ، ولأننا (أنا و مراد و الهادي) لا نريد أن نبقى جامدين ولكوننا ننتمي إلى الولاية الرابعة عاودنا الاتصال بأحمد الذي كان رهن الاعتقال معنا في سجن بربروس . وشكلنا شبكة تضم شيبان أحمد وحطاب ربيع و بوقشورة مراد والهادي باجراح وأنا .

ومع أحمد علام ، وجدنا صعوبة في استكمال عدد الإطارات الكافي لضمان تغطية سياسية تسمح لنا بصد العمل الجارف الذي يقوم به العدو وتبقي على الاتصال مع الأهالي . حبذا لو كان معنا أناس مؤهلون وقادرون على تحرير المناشير . لكن المناضلين المنخرطين معنا لا يتعدون المستوى الابتدائي .

شرع أحمد بفرز المناضلين و تقسيمهم إلى فئتين : الأولى سياسية والأخرى فدائية . وشارك بنفسه في بعض العمليات بتفجير قنابل كانت تصلنا من الولاية الرابعة ، و بالضبط من الناحية التي كانت بقيادة الضابط أول «حاتم» .

كان الفصل الأخير من عام 1959 أسوأ الفصول بالنسبة للشبكات الثلاث التي تنشط على مستوى العاصمة ، بحيث تم تفكيكها : شبكة «سانت أوجين» التابعة للولاية الثالثة و تضم مسعودي سعيد و بوزيد عاشور و مهداوي عبد النور و أخته زكية و توابتي مسعود المدعو مصطفى وغيرهم ، و شبكتان أخريان تتبعان الولاية الرابعة ، وهما شبكة روفيغو التي تنشط تحت مسؤولية رميلي حميد و شبكتنا بالجزائر العاصمة .

جحيم فيلا بويان

بينما كان علام خارجاً في مهمة على متن سيارة من نوع «كاتر شوفو» « Quatre chevaux » قديمة ، ألقي عليه القبض بمعية اثنين من رفاقه وهما مالكي حميدة المدعو «بوبة» وهو شرطي سابق ، ومصطفى دندن ، في مدينة بئر توته أمام حاجز للدرك . قال علام لصاحبيه : «فليهاجم كل واحد منا دركيا . .» ، لأن هناك ثلاثة دركيين ، وعندما حاول أن ينزع السلاح لأحدهم

الذي كانت رشاشته معلقة على كتفه ، أمطره دركي ثان كان موجوداً في الحاجز بوابل من الرصاص ، و لم يكن لـ«بوبة» الوقت الكافي لشده من الخصر . وأصيب أحمد بإصابة بليغة ، فأخذ للاستنطاق في فيلا شارع بويان «Villa du chemin Pouyanne» ، الكائنة بأعالي تيلملي .

ولم تسمح حالة أحمد الصحية للمصالح الخاصة باكتشاف كل الشبكة . ولحسن حظنا أنه في تلك الفترة ، ومن تجربتنا في معركة الجزائر ، احتطنا ولم نتبادل الأسرار فيما بيننا ، فلم نكن نعرف الكثير عن بعضنا البعض . إن هذه الحيطة تفيدنا في حالة الاعتقال .

بعدما تيقنت المصالح الفرنسية من أنها لن تستفيد من أحمد علام ، قتلته في الفيلا المشؤومة الذكر ، فيلا بويان .

جاءت عناصر «الدي أس تي» بقوة إلى مقر سكني و أخذوني باتجاه فيلا الفظاعات . هناك ، وبداخل قاعة تحت الأرض عكف الجلادون على استنطاقي وإرغامي على الاعتراف وكان جهاز الراديو الذي تُرِك مشتعلاً إلى أقصاه يحجب صراخي . كان يقف أمامي الجلاد المتمرس و الشرس عابد ، وهو يهودي مغربي وعضو في «الدي أس تي» و نشط سابقاً في لبنان . استنطقني بالعربية ، وأراني صوراً أظهرُ فيها بجانب أحمد أمام كشك بشارع الشهداء يملكه أحد أقاربه . صارحته القول بأني أعرف «الشاب» الذي كان معي في السجن لكن لا أدري أين هو الآن . رغم إصراره وتماديه في طرح أسئلته : «ما هو دورك؟ ماذا كان يحمل من الجبل؟» ، تمسكت بروايتي الأولى ، مشيراً بأنني فصلت له سراويل وأني لم أجد حرجاً من كوني سلمت ألبسة للشاب أحمد . حملت له سرواليه إلى الكشك الظاهر في الصورة لكي يدفع لي ثمنهما قريبه .

رافقني مظليان إلى زنزانة و هما يسحبانني من الكتف و يحجبان وجهي بسترة ، بينما قدماي تمسحان الأرض . لم تعد لدي قوة لأقف على رجليّ . داخل الزنزانة ، يوجد عادة ثلاثة أو أربعة معذبين . كنت أحسب نفسي من المعذبين أو من المشوهين ، لكن عند رؤيتي أحد الرفاق و يدعى فضيل ، عرفت بأني موجود في متحف البشائع .

الشاب فضيل موجود هنا منذ أكثر من شهر و نصف ، و يخضع مرة كل ثلاثة أو أربعة أيام ، حسب حالته ، لحصص استنطاق يذوق فيها أبشع ألوان التعذيب : الكهرباء في الأذنين ، و في الأعضاء التناسلية ، المغطس ، السلّم ، و أخطرها نافثة النار .

لم تكن للبربرية حدود في فيلا البربرية تلك . عندما يرجعونه و يلقون به داخل الزنزانة ، و هو ينزف دماً و متأوهاً و مرتعداً بكل فرائصه ، نمدده بين سجينين ونضمه بقوة نحونا و نغطيه بأغطية . وجهه منتفخ وجراحه غائرة ونقطات الحرق غمرت معظم جسمه ، ورائحة النفس الكريهة في فمه تثير التقزز . يتنفس بشكل متقطع و حاد ، يريد أن يتكلم لكنه لا يقوى على النطق بكلمة . و لم يقدر أحد منا أن يكون في نجدته . كان يشبه دمية العرائس عديمة المفاصل ، و كان كل واحد من رفقائه الذين يشهدون على البربرية الفرنسية ، و كل واحد منا ، يتصور أنه سيأتي دوره فيشبه فضيل . ومع ذلك لم يعط أسماء من كان ينشط معهم . فلم يفتك منه رجال «الدي أس تي» سوى دوره في الاتصال و في التموين بالقنابل اليدوية والأسلحة الرشاشة .

عندما استفاق قليلاً ، و لما رآني أعتني به (وإن كنت لم أفعل شيئاً كثيراً) ، أراد أن يسرّ لي بأمور ، و أنا لم أرغب في ذلك إطلاقاً . كنت خائفاً . لكن هو أصرّ على ذلك لأنه يثق فيّ كما قال لي . لم أدر أي موقف أتخذه لأنني رأيته مرتين في حالة أعجز عن وصفها . ذات يوم ، نصحته بأن يعطي أسماء عناصر معروفة من المطاردين من قبل الشرطة والموجودين في الجبل أو أسماء أشخاص متوفين .

قال لي ببراءة و سذاجة : «هل جننت؟ لن أبيع رابح كريم ، رايحين يقتلوني» ، من يقصد بقوله «رايحين»؟ فامتنعت بذلك عن أي تعليق .

ذات مساء ، أمرنا المظليون بالجثو على الركبتين أمام الجدار . ومكثنا ساعات في هذه الوضعية . فكان فضيل يجد صعوبة للجلوس بهذه الوضعية الشاقة ، كان مكوراً مثل كرة . وحصرناه بين اثنين حتى لا يفقد التوازن . سمعنا صوت سيارة توقفت ، لكن محركها لازال يدور . . وأصوات : «ألبسوه ثيابه . .

و ضعوا الأوراق في جيبه» . اثنان من رجال «الدي أس تي» بزي المظليين جاءا لأخذ فضيل و ألبساه بذلة عسكرية و حملاه . لم أر هذا الشاب الوديع من ذلك اليوم ولم أسمع من يومها آهاته ، ومن ذلك الحين لم أتلق عنه شيئاً .

بينما كنت وحدي في زنزانة ، في حالة ترقب و انتظار ، فإذا بالقبعات الحمر أدخلوا إلى الحجرة مصطفى دندن الذي أخبرني بتوقيف أحمد ورفيقيه منذ أيام . و كنت لا أدري بذلك . وحكى لي الواقعة بالتفصيل فاستنتجت بأن علام ، الذي أوقف قبلي أنا ، لم يتكلم . مما ساعد الكثير من الرفقاء ، ومن بينهم مراد و الهادي ، على النجاة .

الشيء الذي رفع عني الغم أني كنت متيقناً من أن «الدي أس تي» وقبعاتها الحمراء لاتملك أدلة أخرى غير الصور . تركت لبضعة أيام دون تعذيب ، لكن الأكل كان يعطى لي بالتقسيط . وعندما بقيت يومين محروماً من الأكل ، قام شاب وهو من المجندين في الجيش الفرنسي كان يحمل صليباً على صدره و لما رآني جائعاً ، حمل إليّ خلسة بعض الطعام . أظنه طالباً من إحدى مدارس القساوسة .

أطلعوني من النفق الأرضي إلى المستوى العالي . فغادرت بذلك المنطقة الخطرة ، لأنه في هذا الطابق لاتسمع الصرخات . توجد متتالية من القاعات . وفي الغد ، وسط ضجيج الهمسات ، سمعت أحدهم يدندن أغاني كشفية ، فنظرت من خلال فتحة الباب فتعرفت على مصطفى توابتي من الولاية الثالثة ، الذي مر هو الآخر بلحظات عصيبة بين يدي اليهودي المغربي عابد . استطعنا أن نتبادل الحديث لأن حجراتنا كانت متجاورة وكثيراً ما كان المظليون يبدلون لنا القاعات . و لقد حوّل مصطفى بعدها إلى سجن بربروس .

بقيت لبضعة أيام أخرى في إقامة المعذبين هذه ، ثم وصل موكب هام من المشتبه فيهم الموقوفين . نقلت إلى ثكنة «أوريون» لإقامة مؤقتة . وأبلغ الرائد بروفو من مصلحة الشؤون القضائية زوجتي عن طريق رسالة مؤرخة في 23 ديسمبر 1959 بأنني وضعت تحت الإقامة الجبرية في مركز الفرز للقطاع الفرعي لأوريون منذ 13 ديسمبر .

الخمسة والأربعين يوماً التي قضيتها في شارع بويان . بعدها ، ولم يذكر العسكر إلى مركز الفرز لبني مسوس يوم 24 فبراير 1960 . وجدته أخذني مليئاً بأناس ، عسكر ومعتقلين ، يهيمون هياماً وقد نال منهم اليأس و الغبن ، أوجههم شاحبة و متشنجة ، و مليئاً بوجوه معروفة وأخرى غير معروفه ، أوجه و أبدان لازالت تحمل آثار أيدي الجلادين ، آثار بارزة أشار إليها بول تيتجان ، الأمين العام لولاية الجزائر ، في رسالة استقالته التي وجهها إلى رئيس المجلس : «لقد بت متيقناً منذ ثلاثة أشهر بأننا دخلنا عهد اللامسؤولية والسرية الذي لايمكن أن يؤدي إلا إلى جرائم الحرب . ما كنت لأسمح لنفسي بهذا التأكيد لو أنني لم أكتشف عددا من المعتقلين ، أثناء الزيارات التي قمت بها مؤخراً لمركزي الإيواء بول كازيل – عين وسارة و بني مسوس ، آثاراً عميقة للتعذيب و التنكيل تعرضت لمثلها أنا شخصياً في أقبية الغستابو بمدينة نانسي» .

مكثت اكثر من شهرين رهن الاعتقال ببني مسوس ، وصبيحة العاشر ماي 1960 أركبت في شاحنة من الموكب المتأهب للرحيل إلى «بول كازيل»- عين وسارة . وسط حشد السجناء الذين رافقوني تعرفت على بوستة عبد القادر و جنافلة عبد الله و عمر جعلال و محمود ساطور .

يقع مركز اعتقال بول كازيل في بقعة جرداء و مستطيلة الشكل ، محاطة بأسلاك شائكة و في الزوايا الأربع تتربع شرفة مراقبة يطل منها حراس مسلحون برشاشات من نوع 12/ 7 . ثلاثة بيوت خشبية مصطفة بإحكام تشكل ثلاثة مبان «أ» و «ب» و «ج» ، لكل واحد القدرة على احتواء ثمانين سجيناً ، بداخله عشرون سريراً من نوع الأسرة المتطابقة تقابل عشرين سريراً آخر ، و نوافذ واطئة إذا ما قورنت بنوافذ السجون ، أفرشة مقبولة وأرضية من إسمنت ، هو كل مايشكل ديكور المعتقل . و يوجد فيه ميدان للرياضة حيث يجري المعتقلون مباريات في كرة القدم بلا انقطاع . و يوجد كذلك مقصف يقتني منه السجناء بعض الحاجات و به بعض مواد التنظيف و بعض المواد الغذائية . المطبخ نظيف لأن مسيريه هم السجناء أنفسهم ، إذ أن العسكر يكتفون بالتموين و يدعون السجناء يحضرون الأطعمة . و تم استحداث عيادة و يسيرها المعتقلون كذلك

تحت وصاية طبيب ضابط . عملت فيها لبعض الوقت و تعلمت بعض المبادئ العامة في مهنة التمريض أفادتني كثيراً عندما كنت في الجبل .

كانت الزيارات مسموحة ، ولأن معظم السجناء جاءوا من بعيد فنادراً ما تسجل زيارة أهل واحد منا مرة واحدة في الشهر . وهنا أيضا ، وعلى خلاف ما كان يتم في السجون ، كان يسمح لنا بلقاء ذوينا دون حواجز ، فيمكننا أن نتجول معهم و نعانق أحبتنا كما يحلو لنا .

و في المساء ، يقفل على السجناء داخل البيوت فيبدأ العساكر بالدوران مصحوبين بكلابهم . و تمسح أشعة الأضواء الكاشفة باستمرار محيط المعتقل . لكوننا جميعا معتقلين سياسيين ، بات من السهل علينا أن ننظم أنفسنا . و بفضل هذا التنظيم استطاع السجناء أن يصمدوا للمحنة . و كان قائد المعتقل الطاهر لعجوزي ، مستشار بلدي سابق في مدينة بالسترو وعضو اللجنة المركزية لحزب الشعب (ح .إ .ح .د) ، و يساعده ممثلو البيوت .

و تجدر الإشارة إلى وجود من استسلموا من بين السجناء لأسباب خاصة بهم ، لايسعني أن أحكم عليها . و كان هؤلاء معزولين في مبنى واحد وقبلوا بتحية العلم الفرنسي أثناء مراسيم رفع العلم . استفادت هذه الفئة من نظام أقل صرامة من النظام المفروض علينا و من إجراءات رحمة . بعضهم قلصت مدة عقوبتهم . و مع ذلك هناك من التحقوا بالثورة فور الإفراج عنهم .

من بين المعتقلين التقيت بسيد علي عبد الحميد و مسعودي زيتوني والياس دريش .

في يوم من الأيام ، جمع زيتوني السجناء و حذرهم من مغبة أي محاولة للفرار ، بدعوى أن المترشحين للهروب لا يملكون أدنى حظ و يعقدون في نفس الوقت حالة الباقين في المعتقل . بدليل أن المحاولات الكثيرة التي حدثت آلت إلى الفشل و انجرت عنها متاعب جمة . و مع ذلك لم يأبه الكثيرون بهذا التحذير .

ولد محمد الهادي الذي هرب ، اقتيد إلى مكانه و قتل . مصطفى براكني ، هرب فالتحق بالجبل و عمل ممرضاً . استشهد داخل مخبأ رفقة إحدى

الممرضات . محمودي عبد الرحمان هرب و لم يظهر عليه أي خبر في عداد الشهداء .

الهـــروب

لم نكترث بما قاله زيتوني ، وكنت ضمن جماعة متكونة من خمسة أفراد خططت للهروب من المعتقل . كان على كل واحد منا أن يفكر و يبحث عن الثغرة في نظام المعتقل و يبلغها للآخرين ، لتحديد ما ينبغي القيام به سوياً .

وجدت الحيلة لكي أتعين في العيادة . ومن هناك كان يتاح لي بعقد اتصالات .

تمكنت من الدخول في اتصال مع سائق مصلحة تنظيف المعتقل . وفي ظرف أيام معدودة ، توصلت إلى كسب ثقته و تحسيسه بمشروع الهروب . طلبت منه أن يدخلنا في اتصال مع جيش التحرير لمنطقة بول كازيل والاحتكاك بالشبان العاصميين المجندين في الجيش الفرنسي الذين كلفوا بحراسة المساجين . و كنا سنقترح عليهم أن يأخذونا إلى الجبل إن هم قبلوا بالتمرد و الانضمام إلى جيش التحرير .

خططنا للمشروع ، لكن أجهض في اللحظة الأخيرة ، لأن السائق لم يف بتعهداته . إلا أننا كنا ثلاثة تمكنا من الهروب : أنا و جمام زهير و واحد اسمه اعمر من تيزي وزو .

كنت الأول الذي صعد ثلاثة حواجز من الأسلاك الشائكة و تبعني رفيقاي . عندما صرنا في الخارج أخذ كل واحد اتجاهاً مختلفاً . انتظرت أن يظهر الهاربان ، لكن لا أثر لهما . وسط الظلام الدامس قررت أن أنأى عن المكان لأنني كنت أنزف دماً .

همتُ لمدة خمسة أيام من غير مؤونة . لم يكن لدي سوى مطرة وعلبة شمة استعملها في حالة الضرورة لتمويه الكلاب المروضة التي أطلقت لاقتفاء آثارنا .

تفاديت الاقتراب من السكنات و الخيم الصحراوية المتناثرة في تلك النواحي. لم أكن أعرف المنطقة و لم أكن أعرف إلى أين أذهب. لكن بذلت كل جهدي للابتعاد أقصى ما يمكن عن المعتقل.

اختبأت في وسط إحدى الغابات المجاورة ، و في اليوم الخامس رأيت عساكر وتعرفت على اثنين منهم. وهذا أكد لي بأنهم كانوا في مطاردتنا ، سيما وأن هناك طائرة عمودية تحلق على علو منخفض. قررت أن أبتعد أكثر ، أستريح في النهار و أمشي في الليل ، و كانت لدي تجربة في التحرك ليلاً بفضل التكوين الذي تلقيته في مدرسة الكشافة أولاً ثم في المنظمة الخاصة.

كان الجوع و العطش يشتدان بطني ، فتوجهت إلى عائلة تسكن خيمة في بقعة نائية و ذات تضاريس وعرة. صاحب البيت ، المدعو عزوز بن عزوز الذي تبين أنه عضو في المجلس الشعبي لجبهة التحرير ، نادى شقيقه و طرحا علي أسئلة بلهجة حادة تنم عن عدم ثقة في زائرهم. ولم يشفقا على حالي مع أني كنت منهك القوى ، و كدت انهار عندما لمحوا إلى «الحركة» الموجودين في الناحية. قلت لهم بأني أفضل أن أذبح على أيديهم على أن أسلم إلى «الحركة» أو عملاء عبد الله السالمي الذي كان عميلاً لكبير المرتزقة بلونيس. لم تتمالك والدة عزوز نفسها وأجهشت بالبكاء وهي تطالبهما بإخلاء سبيلي : «إنكما تريان بأنه ليس جاسوساً ، وإنما غريب من الغرباء». كان منظري يؤلمها.

وبعد الانتهاء من التعذيب النفسي بساعات قليلة ، عدلا من سلوكهما وطمأناني. وكشف لي عزوز عن وظيفته في التنظيم المدني لجبهة التحرير و وعدني بأن يفعل ما بوسعه لإبلاغ مسؤولي جيش التحرير. وأرسل رجل اتصال لإخبارهم.

و بعدما طلب مني أن أرتل بعض الآيات القرآنية معه ، أعطاني أشرب وآكل. ثم نقلني إلى مخبأ في انتظار الاتصال. و بعد أربعة أيام من انتظار طال أمده ، تلقيت زيارة مسؤول الاستعلامات و الاتصالات ، الملازم بحوص من المنطقة الثانية للناحية الثانية التابعة للولاية السادسة.

في الجبـــــل

بقيت تحت المراقبة بعض الوقت رفقة بحوص ، وتعرضت خلالها لاستنطاق سردت كل مساري الذاتية. و في نهاية المطاف ، سمعت بعض عبارات بادي الشكلي قبل أن أوجه إلى مختلف فروع جيش التحرير. في البداية إلى الأمانة الناحية ، ثم في وحدات القتال. كما نشطت في فرع الاستعلامات و الاتصالات ، دائماً تحت إمرة بحوص. بعدها عينت في المحافظة السياسية تحت قيادة حي بن يوسف ، الضابط المساعد في المنطقة الثانية.

حولت فيما بعد لبضعة أشهر إلى وحدات القتال في كتيبة الناحية التي يقودها المساعد بودخيل. و شاركت في عدة عمليات ، منها كمين ضد دورية من «الحركة» في حد السحاري ، اختطاف أحد المخبرين اكتشفه مسلونا في «دوار النبوح» بتقرير من المجلس الشعبي للقرية. قاد العملية العريف الأول عبيدي الطيب ، مسؤول عسكري لإحدى الفصائل التابعة للكتيبة. كما شاركت مع الكومندو الذي هجم على المركز العسكري لحد السحاري تحت قيادة رئيس الناحية سليماني بالتفاهم مع الملازم محمد دهينة من الداخل و كذا أربعة مجندين من الجيش الفرنسي. لقي عريف أول و جنديان فرنسيان مصرعهم في هذه العملية ، غنمنا أسلحة و ذخائر و ألبسة حرب.

من جهتنا ، فقدنا مجاهداً من مجاهدينا البواسل هو يحي حفاف ، قتل على غفلة لكونه لم يرد على كلمة السر ولم يعمل بتنبيهات أحد رفاقه ، بوريش ، المكلف بالمراقبة. كان هذا الأخير من الوافدين الجدد و كانت أول معركة يشارك فيها.

بعد عدة امتحانات و تجارب ، عينت في أمانة الناحية حيث لا يولي المسؤولون للاتصال شأناً كبيراً. لم استطع أن اندمج في وسطهم الذي تسيطر عليه الممارسات الأبوية و الشوفينية و الإقطاعية. وجدت نفسي أمام واقع ينافي تماماً المبادئ الثورية التي تربيت عليها.

سوء التفاهـــم

لم أتفاهم مع قائد الناحية سليماني سليمان ، الذي لا يثق كثيراً في العناصر القادمة من العاصمة و في الفارين من السجون و المعتقلات ويحتاط منهم . دفعته حيطته إلى ارتكاب حماقات و تصرفات غير لائقة . لم يكن يقبل سوى وجهة نظر واحدة ، هي وجهة نظره الخاصة .

تعرضت لضغوط كثيرة جعلتني مريضاً . عوقبت لسوء انضباط لأنني لم أطع بعض الأوامر و لم أقبل ببعض الممارسات ، و كان ذلك على يد الملازم الأول بوجاجة مدفوعاً من سليمان . حيث نزع مني سلاحي وأدخلت «القبر» .

أنزل من رتبتي وأحلت لخدمة المحافظة السياسية للقطاع . نجوت من المجلس العسكري حيث كدت يحكم علي بالإعدام ، لولا تدخل سي بن يوسف الذي شهد لصالحي . وتعرض هو نفسه لمتاعب فيما بعد بسبب موقفه المساند لي .

شاهدت و كنت شاهداً على تعسفات و مظالم لا تغتفر . لم أكن أظن أبداً بأن الثورة يمكن أن تلد مثل تلك الآفات . كنت أومن بالثورة وبكل ما قد ينجر عنها من آلام و مآسي . لكن المحن القاسية التي عشتها في الجبل تبقى راسخة في ذاكرتي إلى الأبد . فالجريمة الآدمية عندما تصطبغ بصبغة الجهاد يمكنها أن تقترف أبشع الحماقات .

في شبابي كنت أرى شعباً يكافح التميز والشر والظلم ، و مجاهدين متآزرين يتناوبون على حمل المشعل . لكن ما رأيته في الواقع : بعض «القادة» يتصرفون حسب مزاجهم الآني و يضربون عرض الحائط بكل القيم الأخلاقية و يملون رغباتهم على من هم تحت إمرتهم . و لا يتقبلون أدنى ملاحظة... يخلقون هكذا أجواء من التوتر في أوساط الجنود ويحبطون عزيمتهم و يقتلون إرادتهم . المشكل ليس مشكل تسيير أو انضباط و لكنها أنانية . «أنا القائد ، و أنت تطيع الأوامر و فقط . .»

بعد نهاية الكابوس ، حمدت الله على أني لاحظت بأن الأمور لم تجر بهذه الصورة في الأماكن الأخرى . أنا فقط وقعت على رقم سيء .

مع مرور الزمن ، تفهمت الواقع و صرت أتسامح أمام بعض المواقف . وفي اعتقادي إن التصرفات المشينة التي يعتاد عليها رجال من فصيلة سليماني سليمان راجعة أساساً إلى مستواهم الثقافي و تكوينهم المحدود . فهم لم ينشطوا في أي تنظيم سياسي حتى يكتسبوا أبجدية المعرفة .

رغم عزلتي ، كانت علاقاتي مع جنود الناحية طيبة . ولم تكن كذلك دائماً مع المسؤولين . لم أُقم معهم علاقات ، فبقيت ذلك الغريب بينهم . انزويت وقررت أن أحتجب عن الأنظار وأغيب عن الألسن .

بعد إعلان وقف إطلاق النار ، حاولت دون جدوى أن أتصل بأهلي الذين بقوا من دون أخبار عني منذ هروبي من معتقل بول كازيل .

في أواخر جويلية 1962 ، جاء العقيد شعباني ليلقي خطابا على سكان الشارف بولاية الجلفة ، في تجمع حضره حشد كبير من المواطنين جاءوا من المدن والمداشر المجاورة . و كان مرفوقاً بقائد هيئة الأركان ، العقيد هواري بومدين .

لقد فاجأ خطاب شعباني الجميع ، لأنه أوحى في كلامه بوجود أخطار وشيكة ، أفضت فعلاً إلى مواجهة دامية بين الأخوة . و سمح ذلك لفيالق هيئة الأركان العامة بالاستيلاء سلمياً على السلطة على مستوى الناحية الثانية التي يقودها سليماني سليمان . و قد تم ذلك لحسن الحظ دون إراقة للدماء .

كانت فيالق هيئة الأركان العامة أكثر عدداً وعدة من فيالقنا . ولا مجال للمقارنة بين قواتهم و القوات التي كنت أنتسب إليها .

اغتنمت فرصة استرخاء الانضباط وتحرري من أي مهمة في أي وحدة من وحدات الكتيبة ، فانسحبت رفقة عدد من الرفاق و المسبلين ، وقد أثقل كاهلهم سنون الحرب الطويلة ، و أحطنا الرحال في زنينة في أحد مراكز الإدارة الأمنية أخلته القوات الفرنسية بعد إعلان وقف إطلاق النار .

شرع بوضياف فور عودته إلى أرض الوطن ، في البحث عن الاتصال بمغربيه . علم بهروبي و كان يعرف بأني مسجل في تعداد المفقودين لدى السلطات الفرنسية . لازال أهلي من دون أخبار عن أحوالي ، فأعطى بوضياف

تعليمات للشروع في عمليات بحث لإيجادي أو على الأقل لتحديد مكان تواجدي .

توصلت بفضل عون اتصال يسكن بالمرادية كان مارا على الناحية ، من أن أكاتب أهلي و أخبرهم بالقطاع الذي أنشط فيه . و عندما أبلغ بوضياف من طرف شقيقي عمر ، كلف مراد بوقشورة و عمي احسن للانتقال إلى منطقة الأغواط ، حاملين رخصة مرور ، لكن دون نتيجة . عمي احسن اغتنم فرصة رخصة المرور المسلمة من طرف بوضياف للبحث بالمناسبة عن أخيه ورفقاء آخرين فارين أيضا ولم يعثر لهم على أثر ، ويتعلق الأمر بولد الهادي محمد و محمودي عبد الرحمان و قاسمي بشير وهو الوحيد الذي لا يزال على قيد الحياة .

في غضون شهر أكتوبر من عام 1962 ، تحسنت الوضعية و انخفضت حدة التوتر ، لكن استحال علي أن أطلب التسريح . كان شعباني ، بصفته قائدا للولاية السادسة ، بحاجة لرجال مؤهلين سياسيا لترقيتهم استعدادا للمواجهة و إعلان التمرد على سلطة القيادة الوطنية . وجاء إلي مسؤولون على مستوى الناحية ، لما عرفوا بأني ناضلت قبل الثورة في صفوف الحزب ، ليلتمسوا مني تسجيل إسمي في قائمة المجاهدين المتمردين . ورفضت العرض .

انتهزت فترة هدنة لكي أطلب تسريحا لزيارة الأهل . و منح لي عشرة أيام ، من الخامس إلى 15 أكتوبر . غادرت المعسكر و لم أعد إليه أبدا .

حسن ، لكن...

عدت إلى بيتي بالعاصمة ، و بعد بضعة أيام قضيتها في زيارة الأحباب والأقارب ، دخلت ثانية في العمل السياسي . والتحقت برفيقي الدائم بوقشورة مراد وبعدد من رفاق الكفاح ، من بينهم زرقاوي و على رأسهم بيطاط رابح المكلف بالتنظيم في المكتب السياسي .

بالتوازي مع اتصالاتنا مع السلطات الشرعية للبلاد ، شرعنا أنا و مراد في اتصالات حثيثة و ودية مع بوضياف الذي كنا نزوره دوما في بيته بالأبيار . لم

نال هذه الاتصالات إعجاب بعض من أصدقائنا و خاصة زبير بوعجاج الذي كان شديد الولاء لبن بلة . و لم يتوان بوعجاج عن التهجم علينا علنا بمناسبة انعقاد الجمعية الأولى لفدرالية الجزائر الكبرى .

عندما أخذ الكلمة أمام الجمهور ، كشف عن علاقاتنا أنا و بوقشورة مع بوضياف . كان يريد أن يجرنا إلى المجادلة ليهددنا لعزل بوضياف أكثر مما كان . و كإجراء عقابي أول ، أمر هو شخصيا بإحالتنا على لجنة الانضباط ، و سحب سيارة الخدمة التي كنت أستعملها في إطار نشاطاتي التنظيمية .

رفضت اتهاماته و رفضت أن يكون له حق بأن يتصرف تصرف الوصي ، و رددنا عليه ، أنا و مراد ، بأننا لسنا أتباعا و لن نمحو تاريخا بكامله عشناه مع رجل كان أحد صناع الاستقلال و كان قائده و قائدنا . « إذا أنت اليوم واقف أمام الجمع بمكر و قوة ، و تتكلم بكل حرية ، و إن كان ما تقوله مجرد كلام فارغ و مهاترات ، فأنت مدين جزئيا لبوضياف . »

عندما عرض علي بوضياف الانضمام إلى الحزب الذي أسسه حديثا في 20 سبتمبر 1962 وهو حزب الثورة الاشتراكية ، رفضت العرض بكل احترام ، وقلت له بأن ما يقوم به مزايدة على بن بلة بالاشتراكية العلمية . قناعاتي مختلفة ، و سأناضل في جبهة التحرير الوطني .

حزنت لرؤية رجل من هذا الطراز على الهامش بعدما تخلى عنه من رفاقهم إلى مناصب المسؤولية و نسوا خيره عليهم . و كنت أشعر في نفس الوقت بنوع من التقدير لأن سي الطيب لا زال مستمرا في نضاله و مؤمنا بمبادئه .

واصلت نشاطاتي في حزب جبهة التحرير الوطني داخل فدرالية الجزائر الكبرى كمسؤول على مستوى لجنة الدائرة رقم 3 للجزائر الوسطى .

عملت بكل كياني و بكل تفان و إخلاص . إلا أنني كنت ألاحظ أمورا و قرارات لم يرتح لها ضميري . بدأت المحسوبية و الرشوة و البيروقراطية تغرس في دواليب الإدارة و الدولة أكثر فأكثر . و شاركت في المؤتمر الأول للاستقلال

في أفريل 1964 ، و هنا كذلك رأيت لعبة الكواليس فأثارت حفيظتي . رأيت مسؤولين لا شرف لهم يركعون طمعاً في المناصب .

تحررت من نشاطي في الحزب و عدت إلى مهنة الخياطة . أسست مع أصدقاء شركة ذات مسؤولية محدودة و كنت مديرها .

ابتعدت عن الحزب لأني رفضت تزكية الاحتكار المفرط لبعض المسؤولين على كافة القطاعات و الميادين . إذ بدأت تحاك تدريجياً هيمنة جماعة معينة على شؤون الدولة ، و كان مسعى هؤلاء الأشخاص انتقائياً بمنحاه السلبي . مسعى يشجع على الخضوع ويسمح للرداءة بالبروز ويختار العناصر الطيعة في محيط المسيرين و لا يسمح بأي نقاش .

و كان ذلك يتنافى تماماً و تصوري المبدئي للنضال من أجل العدالة الاجتماعية و من أجل حياة سياسية و اقتصادية متوازنة و سليمة تشجع على التنمية و على المنافسة .

سلك الحزب نهجاً قمعياً بإنشائه مليشيا ، أول من تقمع ، المناضلين الذين ناضلوا دائماً من أجل إرساء القيم الأخلاقية و من أجل مستقبل زاهر . وقامت السلطة بكتم كل الأصوات المناوئة و من كانت له أفكار معارضة لأفكارها . وصادرت البيروقراطية الناشئة ، بين عشية وضحاها ، كل المبادرات و شحنت الجماهير ضد «أعداء» حقيقيين أو مفترضين ، مثل الإمبريالية و الاستعمار و الصهيونية . و صارت الصراعات الداخلية في أعلى هرم السلطة تسوى عن طريق المساومات و اتفقت القوى الميكيافيلية على إقصاء الجماهير الشعبية ومنعها من إبداء رأيها و قول كلمتها . فصارت هي التي تفكر في و تقرر في مكانها . لقد رمت السلطة في سلة المهملات كل آمالنا و كل أحلامنا في جزائر حرة و سعيدة يكوّن مواطنوها مجتمعاً متماسكاً و متكافلاً .

و أقامت نظاماً لا يلائم حالة بلد خرج من الكابوس ، ولا يستجيب لرغبة شعب عاش المحنة في حرب دامت سبع سنوات و يبحث عن السلم والمساواة في الحقوق و الواجبات ، دون تمييز طبقي .

لم أصدق أن كل ما قاله لي بوضياف وبن بولعيد وديدوش وبن مهيدي في دكاني وما ضحوا من أجله ، على غرار جميع المناضلين الذين أطروهم ، سيلقى في رمش عين داخل متحف المنسيات . هل كنا نحلم؟ نعم كنا نحلم . هل يحق للسلطة الحالية أن تنسى؟ طبعاً لا يحق لها أن تنسى .

بعد أحداث 5 أكتوبر 1988 التي فتحت عهد الديمقراطية و التعددية ، اضطرت السلطة السياسية أن تجري تعديلاً على الدستور سنة 1989 . مما سمح بميلاد تعددية ومنافسة ميدانية للأحزاب السياسية . كما أحييت الحركة الجمعوية ، وفي هذا الإطار ، طلب مني بعض الأصدقاء أن أساهم بدوري في المنظمة الوطنية للمجاهدين المنفصلة عن حزب جبهة التحرير الوطني .

بوضياف في القنيطرة المغربية

في عام 1974 ، كانت لي فرصة للسفر إلى المغرب الأقصى في إطار مهني خاص ، رفقة بوقشورة مراد و صديق آخر من قدامى مناضلي الحركة الوطنية . كانت المناسبة مواتية لزيارة صديق يقيم في القنيطرة يدعى محمد بوضياف . كنا تحصلنا على عنوانه في الجزائر من لدن شقيقه عيسى ، ناديته على التليفون في بيته فور وصولنا إلى مدينة القنيطرة ، فأخبرتنا عقيلته بأنه خرج منذ حين للقائنا على الموعد الذي حدده أخوه من الجزائر . حصل اتفاق ، حسب السيدة بوضياف ، أن يلقانا في مقهى «مون فيلاج» . وبما أننا لم نتذكر اسماً أو عنواناً محدداً ، نادينا من مقهى ليس ببعيد عن هناك . انتظرنا قرابة ساعة . لم نفهم شيئاً و قلنا في أنفسنا أنه ربما لم يعد محمد يثق في أحد ، بعد عملية الاغتيال التي ذهب ضحيتها كل من محمد خيضر في 03 جانفي 1967 بمدريد العاصمة الإسبانية وكريم بلقاسم في 20 أكتوبر 1970 بفرانكفورت الألمانية .

ناديت السيدة فتيحة بوضياف مجدداً على الهاتف و حددنا لها المكان الذي نتواجد فيه . طلبت مني ألا أتحرك من مكاني و قالت بأنها ستذهب للبحث عن زوجها و تدله على العنوان الصحيح .

عندما وصل ، اعتذر عن هذا التأخر و قد انحبست أنفاسه . و كنت أنا في حرج لأني أعرف بأنه مصاب بعجز تنفسي . برئة واحدة ، كان يجد صعوبة كبيرة لاستعادة أنفاسه في الحين . كان سعيداً جداً برؤيانا . و كان مشتاقاً للحديث بقلب مفتوح إلى من يعتبرهم شهوداً على تاريخنا المعاصر .

ودعانا إلى تناول الغداء في بيته و ألح كثيراً على أن نقيم بضعة أيام عنده . اشتاق إلى أخبار عن الوطن . وكان في أشد الحاجة لأن يتكلم . سأل عن الأصدقاء بذكر أسماءهم بدون انقطاع ، و سأل عن أحوال البلاد ، وهو يسعى لأن يخزن أكبر قدر ممكن من الأخبار و المعلومات . يريد أن يعرف عن كل شيء : القضايا السياسية ، القادة ، البطالة ، التشغيل ، الشبيبة ، الحالة الاقتصادية والاجتماعية .

كان يشكو من العزلة ، إذ ليس له أي اتصال بأبناء وطنه . ويكاد لا يتلقى زيارة أي صديق أو أي مناضل . قال : «إن الناس يتهربون من المشاكل خوفاً من أن تسجل أسماؤهم في مكاتب الشرطة أو يكونوا محل متابعة .»

بعد مناقشة طويلة ، صدّق كلامنا و أعجب كثيراً بتحاليلنا . فالتقييم الذي قدمناه له يختلف عن التقييم الذي قدمته له مصادر أخرى . فالآراء تختلف حسب المواقف الحزبية لكل واحد و حسب موقع كل واحد في الحكم أو في المعارضة ، و حسب ضغائن البعض و من أزيحوا من السلطة .

على العموم ، كان سي محمد في القنطيرة يبدو غير مطلع جيداً على الحقائق الموضوعية عن الوطن . إذ لم يكن في متناوله في تلك الفترة سوى بعض الجرائد التابعة لأجهزة الاحتكار كمصادر إخبارية . كان يسيّر ورشة صغيرة لصناعة الآجر التقليدية ، باشتراك مع شقيقه موسى . هو نفسه ، كما قال لنا ، كان ينهض باكراً للذهاب إلى العمل . ففضلاً عن الإنتاج ، يتكفل بكل أمور التسيير الإداري . يعيش حياة سعيدة و هنيئة في كنف عائلته مع زوجته و أولاده . فبعدما عاش حياة صاخبة ، هاهو يتذوق الآن دفء الأسرة المجتمعة ، و كما قال أيضا : «الآن يمكنني أن أرى أولادي يكبرون .»

عند افتراقنا ، شعرت ببريق من الحزن يلمع في عينيه و تأثرت بذلك . و غمرتني تلك البسمة عندما همس لي في أذني لحظة العناق و الوداع ، قائلاً : «اليوم أحسست بأني رجعت عشر سنين إلى الوراء .»

عودة بوضياف

في يوم 16 يناير من عام 1992 ، و بعد منفى قارب الثلاثين سنة ، عاد إلى أرض الوطن محمد بوضياف ، أحد رموز كفاح الشعب الجزائري ، سي الطيب الوطني مثلما يناديه مناضلو القضية الوطنية . لكن الرجل التاريخي غير معروف لدى الشبيبة التي كان مع ذلك يحبها و ضحى من أجلها . عاد إلى الوطن بطلب من السلطات الانتقالية التي عجزت عن أيجاد حل للوضع المتأزم في الجزائر .

أمام أزمة وطنية عميقة و متعددة الجوانب ، لبى نداء الواجب و استجاب لطلب الجيش الوطني الشعبي ، المؤسسة الوحيدة التي ظلت واقفة . أرسل إليه المجلس الأعلى للدولة مبعوثاً هو المحامي علي هارون الذي لم يكن غريباً على بوضياف (المنسق الوطني) إذ كان يعرفه منذ 1956 ، السنة التي استقدمه سي محمد من مكناس إلى تيطوان في المغرب الأقصى وأسند إليه مسؤولية الإشراف على جريدة «المقاومة الجزائرية» الناطقة باللغة الفرنسية .

وضعت كل الإمكانات تحت تصرف علي هارون الذي قام برحلة عادية على متن طائرة عسكرية و شرح القضية لبوضياف . تمكن في الأخير من إقناع الرائد السياسي المتقاعد قبل الأوان ، بعدما طرح هذا الأخير أسئلة دقيقة ألح على أن تكون الأجوبة بنفس الدقة .

كانت النزاهة الفكرية التي يتحلى بها علي هارون و مهارته كمحام ، فضلاً عن قدرته على الإقناع المعروفة ، عاملاً مؤثراً في القرار المتخذ ، كما قال لي سي محمد لاحقاً .

قام بوضياف بالرحلة مع هارون و التقى في فيلاّ عزيزة بالأبيار بحكام تلك الفترة . أعطى موافقته بعدما استمع لعرض موضوعي . «انطلاقاً مما سمعت ،

لم أرد أن أضع شروطاً خاصة ، عدا تلك المرتبطة بإرساء نظام ديمقراطي بعيد من طراز الجيوش الكلاسيكية فور انقشاع الغيوم . المهم بالنسبة لي كان في تلك الفترة العمل على إخماد النار . وأنا متيقن بأننا سنصل مستقبلاً إلى الانطلاق في المسيرة الديمقراطية والشروع في إنجاز الورشات الكبرى . »

يوم 16 يناير ، كان الاستقبال في المطار في مقام هذا المناضل الكبير الذي تفحص بعينيه ، من أعلى سلم الطائرة ، كل ما كانت البلد تضم من مسؤولين رسميين و إطارات الدولة والجيش الذين كانوا في انتظاره محتشدين فوق أرضية المطار . وكان من بين الحاضرين مجموعة صغيرة من الرفقاء القدماء الذين أرادوا أن يعبروا من خلال حضورهم عن تمسكهم بسي الطيب الوطني وعن فرحتهم بعودة أحد رواد الثورة .

بعد مرور أسبوع ، زرته في مقر رئاسة الجمهورية ، رفقة عبد القادر العمودي والهاشمي طرودي و الطيب الثعالبي و محمد مشيرة وعبد الرحمان ماضوي والشيخ حسين بلميلي . وجدنا رجلاً هادئاً لكن متأثراً بغيابه الطويل . كان سعيداً برؤية الوجوه الأليفة التي نال منها الزمن و غضنها . سأل عن أحوال بعض المناضلين القدامى ، ثم حدثنا بإيجاز عن مهمته . أعاد علينا شريط الأحداث و الظروف التي دفعته إلى العودة إلى الوطن .

عقب هذه الزيارة ، ألح علينا سي محمد لأن نبقى على اتصال به لأنه بحاجة إلى خدماتنا . طلب مني أن أجمع عدداً من المناضلين القدامى الموجودين خارج دواليب الدولة ومن المواطنين البسطاء الذين يترددون على المقاهي الشعبية و يذهبون بأنفسهم إلى السوق و يحتكون بالواقع اليومي و يمكنهم أن يصفوا بموضوعية وبساطة الحياة اليومية من كل جوانبها . كانت رغبته أن يتحدث إلى مواطنين لا يملكون أدنى ارتباط عضوي بالسلطة لكي يتسنى له أن يعرف البارومتر الصحيح للوضعية السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية . وبمقارنة هذه المعطيات مع المعطيات التي قدمت له من قبل مصالح السلطة ، يصير بإمكانه معرفة المشاكل بصورة أفضل و التصرف بناء على ذلك .

بالإضافة إلى آراء الأفراد ، أبدى بوضياف رغبة للالتقاء بممثلين عن الشباب و الطلبة و الكشافة و النقابيين والفلاحين والنساء والمجاهدين من شتى الجمعيات .

بعد حوالي شهرين من الرئاسة ، لاحظنا أن بوضياف لم يتبدل ، وظلّ على صراحته وحبه للجزائر وإرادته الفولاذية لتحقيق طموحات شعب مقهور وشبيبة حائرة تبحث عن مستقبلها و تحلم بحياة أكثر توازناً .

وفهمنا أيضاً . وهو نفسه اعترف بذلك . بأنه كان منفصلاً عن الواقع و لا يملك صورة موضوعية عن البلاد . الصحافة الأجنبية كانت تتعمد تشويه هذه الصورة عند تناولها الأحداث الواقعة في الجزائر . فهي في نظره تفتقد إلى المصداقية . كما أنه لا يجد ما يثيره في قراءة الصحافة الوطنية التي يعرف أنها موضوع احتكار . باستثناء العدد القليل من الأصدقاء والمعارف الذين يلتقي بهم من حين لآخر في القنيطرة بالمغرب ، ليصغوا إليه ، كل واحد على طريقته ، بعض مناحي الحياة السياسية و الاجتماعية والاقتصادية و الثقافية ، فكان بوضياف معزولاً عن وطنه و جاهلاً بأشياء كثيرة كانت تجري في بلاده .

خلال لقاءاتنا العديدة ، تطرق لمشاكل تخص شتى المجالات . وكان من بين المواضيع التي أثارت نقاشاتنا مواضيع هامة كان بوضياف عازماً على التحرك من أجلها .

وفيما يخص الأحزاب السياسية ، اعتبر بوضياف بأن كل التيارات تعمل لحسابها الخاص بشكل أناني وأسقطت من حسابها المصلحة العامة . بسبب قصر نظرها السياسي و الصراعات بين الأجهزة ، تمكنت القوى الخفية من احتلال الميدان والاستحواذ على الخيرات الوطنية والتطفل على دواليب الدولة . فقدت الأحزاب مصداقيتها ، والأطروحة . أو قل الأطروحات . التي بادرت إليها تلك السلطة من أجل الخروج من الأزمة لم تعط نتائج مرضية . لم ير بوضياف جدوى من المواصلة في هذا النهج . لأن ذلك سيؤدي إلى طريق مسدود ويضيع المزيد من الوقت ، بينما الوضعية تزداد تدهوراً يوماً بعد يوم . فبناء على ذلك ، وعلى ضوء هذا التقييم المر و السلبي ، لم يرغب بوضياف الدخول

في لعبة الأحزاب ولا الشروع في محادثات عقيمة لن تفضي إلى إجماع من أجل اقتراح حلول ملموسة و التقدم إلى الأمام . يرى بأنه لا فائدة من تضييع الوقت وينبغي السير إلى الأمام .

خلال اجتماع دعا إليه زعماء سبعة أحزاب سياسية ، أبلغهم بوضياف بخطورة الوضع و بحالة اللااستقرار السائدة و غياب الدولة تقريباً في جميع المجالات . أخبرهم بأنه مضطر لإعلان حالة الطوارئ رغماً عنه .

في يوم من الأيام ، نطقت باسم مهري أثناء إحدى مناقشاتنا . أوقفني بوضياف و قال لي بأنه يتمنى لقاء رفيقه في النضال سي عبد الحميد على انفراد ، «لنحيي معاً بعض ذكريات كفاحنا» . نوّه بالدور الأساسي الذي قام به مهري لتقريب الحركات المغاربية للتحرير الوطني بعضها ببعض منذ عام 1952 وذكّرنا بالاحترام الذي يكنّه له الجميع بفضل معارفه وسلوكه النضالي الملتزم ، الذي نال عليه تقدير التونسيين والمغاربة . قام بمجهودات جبارة ، بعد اجتماعنا في سويسرا ، في إطار تجسيد القرارات المتخذة . لكن لسوء الحظ لم يتم عبد الكبير الفاسي عملية إمداد المجاهدين بالأسلحة الموعودة .

وطلب مني بوضياف أن أبحث عن إطار يلتقي فيه بسي عبد الحميد «كصديق وليس كممثل حزب سياسي» . استشرت مهري فأعطاني موافقته . لم يتم اللقاء ، لأن رفيقه سي الطيب اغتيل .

لقاء بالحركة الجمعوية

إذا كانت الأحزاب السياسية لم تحمسه كثيراً ، فإنّ هذا لا ينطبق على الحركة الجمعوية التي عقد عليها بوضياف آمالاً كبيرة . كيف كنا نرى هذه القوى الحية ، من جمعيات الشباب والطلبة والكشافة والنقابيين وغيرها؟ ألح بوضياف على ضرورة تحفيز المجتمع المدني بتشجيع الشبيبة بوجه الخصوص في جميع تشكيلاتها على التكفل بنفسها وتنظيم نفسها حتى تشكل سلطة مضادة ، وهو كرئيس دولة سيضمن معالجة اقتراحاتها . وفوجئ بوضياف عند استقباله وفوداً عن الحركات الشبانية ، الواحد تلو الآخر ثم مرة ثانية كلها مجتمعة في مقر

الرئاسة ، وسعد بمستوى الممثلين و كذا بالطاقة التي لا تتطلب سوى من يستغلها ويوجهها التوجيه الذي يخدم المصلحة المشتركة .

وأتاح له اللقاء مع الطلبة الذين كانوا دوماً في الطليعة ، منذ جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا مروراً بالاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين ، باستيعاب الكثير من المعطيات و بسبر البعد الموضوعي لأحكامهم .

كما تأثر بما قال له شبان الكشافة : «نشكو من نقائص كثيرة ، لكن أمام الوضع السائد ، لا نريد أن نكون عالة على الدولة . مثل أسلافنا الذين عشت معهم في الماضي و ساهموا في تحرير البلاد ، فإن حركة الكشافة الإسلامية الجزائرية ، البعيدة عن أي ارتباط حزبي ، لعازمة اليوم على المشاركة الفعلية في بناء جزائر مستقرة و مزدهرة .»

و كان بوضياف مندهشاً من حيوية المرأة الجزائرية القادرة ، في نظره ، على تولي مناصب مسؤولية في الكثير من المجالات إذا ما تم إشراكها في التسيير .

و كانت السيدة ليلى عسلاوي ، وزيرة الشبيبة والرياضة ، نموذجه المثالي . امرأة نحيفة لكنها تقوم بعمل جبار قلّ من يضاهيها بين الرجال . و كان سي محمد معجباً بما تقوم به هذه المرأة الذكية وحيّا شجاعتها والتزامها .

قام بتشريف منظمة المجاهدين بزيارة لمقرها المركزي . وتبقى هذه المنظمة في نظره ترمز للنضال من أجل استرجاع السيادة الوطنية . لم يكن خطابه أمام إطارات المنظمة خطاب رئيس و إنما كان خطاب مناضل يخاطب إخوانه في الكفاح . وفي ختام كلمته قال هذه العبارة : «لم تأت الخيبة من الشعب و لكن من القيادة السياسية .»

في نفس السياق ، زار دار الشعب ، مقر الاتحاد العام للعمال الجزائريين ، ليحيّ الطبقة الشغّيلة ، التي تُعدّ القاطرة القادرة على خلق ديناميكية كفيلة بإخراج البلاد من عنق الزجاجة . ودعا الرئيس لتكاتف جميع القوى الحية للأمة من أجل تحقيق الانعاش الاقتصادي .

عقب سلسلة اللقاءات مع الحركات الجمعوية ، التي أعربت كلها دون استثناء عن استعدادها للمشاركة في مسعى التجديد ، قام الرئيس باستخلاص حصيلة لمجموع الآراء و المواقف واستخلص منها النتائج . كان راضياً لأن كل وفد من الوفود التي استقبلها أعطى له وصفاً عن وضعية الهيئة التي يمثلها ولكن أيضاً عن الوضعية العامة .

«مع كل هذه الطاقات ، و بالعمل يد في يد ، أنا واثق من أن الجزائريين سيرفعون التحدي... و الرأس معاً .»

محاولات لتهدئة الوضع

بخصوص الجبهة الإسلامية للإنقاذ ، تبين بأن لهذا التيار نفوذاً قوياً في الساحة وبأنه يستقطب قطاعاً واسعاً معه . وارتأى بوضياف ضرورة نصح هؤلاء الشباب بالابتعاد عن التطرف ، في انتظار إيجاد حلول لمشاكلهم ونصحهم بنبذ العنف والمواجهة المسلحة لتفادي سقوط البلاد في حرب أهلية . ظهرت بوادر سعي المتطرفين لتفجير الدولة من الداخل ، سواء كان ذلك من خلال الخطب في أماكن العبادة أو في الساحات العمومية من خلال النداءات للعصيان المدني . خلقت هذه الاضطرابات حالة من عدم الاستقرار و اللا أمن و كانت تحمل مخاطر كبيرة للفوضى لن تفيد سوى أعداء الداخل والخارج .

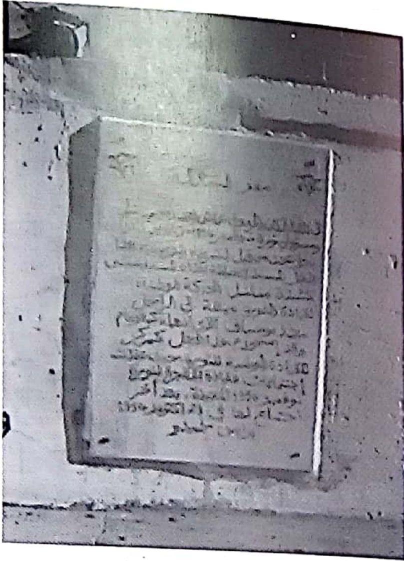
وفي هذا الصدد ، قمنا بتحليل لوضعية «الفيس» ، وكان بوضياف مستعداً لدراسة أي اقتراح من شأنه أن يساهم في إطفاء النار ، وليس على النحو الذي سارت فيه الأحداث . بدأت بقعة الزيت تنتشر و تأخذ أبعاداً أكبر . يجب العمل لوضع حد لهذه الحالة .

سعياً لتهدئة النفوس و خفض حدة التوتر ، طلب منا الرئيس التفكير في أي وسيلة كفيلة بتجنب موت جزائريين على يد جزائريين . هو نفسه ، في خطاب مؤثر بثته التلفزة ، مدّ يده في صورة رمزية تبقى خالدة في ذهن كل جزائري .

واقترحت عليه إرسال عناصر إلى المعتقلات للتحدث مع المعتقلين ومحاولة إقناع أكثرهم نفوذاً بالتعقل وشجب العنف . على أن لا يكون هؤلاء المبعوثو



غراس عبد الرحمان، بوقشورة مراد وعيسى كشيدة.



مقر الشعلة «. في هذا المكان المرموق. عاش العديد من مناضلي ومسؤولي ثورة نوفمبر 1954 الذين كانوا محل بحث من قبل الشرطة الفرنسية. هذا المحل البسيط للخياطة أهداه السيد عيسى كشيدة مناضل الحركة الوطنية لقيادة الثورة ممثلة في الراحل محمد بوضياف الذي استعمله كمقر قيادة وقد استخدم هذا المحل كمركز للقيادة الوطنية للثورة حيث عقدت اجتماعات للقيادة المفجرة لثورة نوفمبر 1954 المجيدة. بعد آخر اجتماع لها في 23 أكتوبر 1954 في رايس حميدو.»

رسميين أو من الشرطة أو الجيش لتفادي أي ضجة إعلامية أو أي منزلق . وإنما مواطنين بسطاء ، مثقفين ومتتبعين للأحداث ، و قادرين على الإقناع و الرد على كل حجج محدثيهم . قبل بوضياف بالفكرة و كلفني بالتحضير للمهمة .

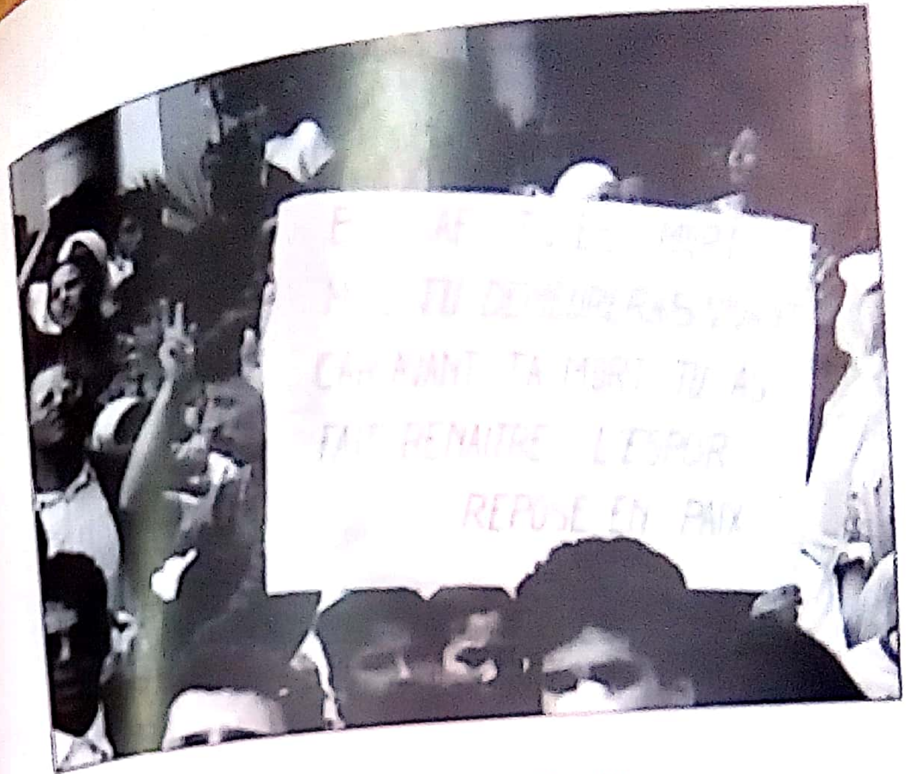
التقيت بشابين ينشطان في الحياة الاجتماعية كنت لاحظتهما في بعض الاجتماعات وأعجبت بمستواهما والتحاليل التي يدليان بها في مداخلاتهما . تحدثت إليهما مطولا ، و بعدما فهمت وجهة نظرهما حول الأحداث ، استنتجت بأنه يمكن لي أن أثق فيهما .

اقترحت عليهما الفكرة وأنا واثق من أنهما قادران على القيام بها . فأعطيا موافقتهما وأبديا بعض الافتخار بقدرتهما على أداء مثل تلك المهمة وأن يخدموا بذلك بلادهما . فأدخلتهما عند الرئيس الذي لم يعطهما أية وصية . أراد أن يظهر بمظهر الأب و كان يريد أن يعرف كيف ينظر الشباب إلى «الفيس» . طلب من الشابين أن لا يخاطرا بحياتهما وأن لا تغويهما لعبة البطولة . إذ تتلخص المهمة في معرفة ما إذا كان الأمر يتعلق بشباب مقتنعين حقاً و عاقلين ، أم بأتباع متهورين لا يقبلون النقاش . لا أحد يشك في كونهم عرضة للاستغلال و التلاعب السياسي ، لكن إلى أي مدى يمكنهم أن يذهبوا في مطالبهم؟

حضرت كل شيء : قائمة مراكز الاعتقال ، وأسماء المعتقلين للاتصال بهم و رخص الدخول إلى هذه المراكز . لا داعي لتسليم تكليفات بمهمة أو رخص مرور . و بمجرد أن أحسست بأن كل شيء جاهز ، أبلغت سي محمد الذي نادى الأمين العام للرئاسة و طالبه بالتكفل بالمهمة .

وبعد جلسة عمل أخيرة ، انتقل المبعوثان ودخلا المعتقلات ، وكان الضباط المكلفون بالمراقبة قد تلقوا تعليمات و سهلوا المقابلات .

عندما أراد الشابان أن يقابلا عدداً من المتشددين و رؤوس الحربة والخطباء ، الموضوعين في أماكن معزولة ، حذرهما مسؤول المعتقل وهو ضابط سام بقوله : «هؤلاء الأشخاص خطرون ، لا أتحمل مسؤولية ما سيحدث لكما إن قررتما الذهاب وحدكما . أقترح عليكما أن تكونا مرافقين لأنه في أي لحظة يمكن أن



الشبيبة تبكي بوضياف.



عودة بوضياف.



محمد بوضياف،
سي الطيب الوطني في فيلا عزيزة.

تتعرضا لاعتداء» ، و دخلا مع ذلك دون حراسة و تحدثا مطولاً مع العناصر الخطيرة .

بعد أيام قليلة ، عادا إلى العاصمة وأعدا تقريرهما الذي وضع على مكتب الرئيس . وضعت فيما بعد قوائم المعتقلين وتم الإفراج عن عدد منهم .

والمقترح الآخر الذي تقدمت به للرئيس : التقرب من إمام وداعية معروف ومحترم ، الشيخ أحمد سحنون . انطلاقاً من أنه بإمكان هذه الشخصية الدينية المرموقة التي يستشيرها جميع قادة «الفيس» أن تلعب دوراً حاسماً إذا ما طلب منه ذلك .

كان الشيخ سحنون إبان الثورة رجلاً فعالاً حيث كثيراً ما كان المسبلون في نواحي البليدة و الأخضرية يستشيرونه و يطلبون رأيه . وفي مساجد العاصمة ، كانت خطبه الدينية متبوعة بدروس في الإرشاد والتربية المدنية ذات بعد سياسي أكيد . عند الاستقلال ، تجاهلته السلطات ، فانزوى و تفرغ للعمل الدعوي .

كان عباسي مدني و طاقم حزبه يزورونه دوماً ، فلم لا ندعوه نحن مادام صوته مسموعاً . عسى ذلك أن يساهم في تهدئة جذوة المتطرفين .

وأنا واثق من أن الشيخ سوف لن يأبى بالمهمة إذا ما عرف بأن بوضياف يلتمس منه ذلك ، سيما و أنه يعرفه و أن سحنون يكنّ له الاحترام . ذكّرت الرئيس بأنه لقيه خلال حفل زفافي و بأنه هو الشيخ الذي قرأ لي الفاتحة . اقترحت عليه أن تطرح ، في حالة ما إذا قبل سحنون بتهدئة اللعب ، إمكانية تعيينه مسؤولاً للمجلس الإسلامي الأعلى . قال لي سي محمد : «اهتم أنت بذلك .»

فاتصلت بأحد أصدقاء سحنون المقربين له ، وهو احسن عبي ، تاجر ومحسن يساهم في تمويل و تسيير مساجد . أعطى موافقته المبدئية . لكن للأسف ، جاء أناس آخرون ، مدفوعون بنفس النوايا لكن كان ينقص مساعيهم نوع من الحنكة والذكاء ، ليخلقوا نوعاً من الخلط . وفي الأخير ، لم يحدث شيء ملموس .

واقتراح آخر عرضته المجموعة . فحسب مصادرنا ، يعتبر مسؤول النقابة الإسلامية للعمال ، علمي عمر ، الموجود في الجبل في نواحي خميس الخشنة ، عضواً ذا نفوذ يجب التقرب منه و إقناعه . هو رجل عاقل ، حتى أصدقاؤه استغربوا ميله لصف الراديكاليين .

وهل نفوذه هو الذي دفعه إلى ذلك أم هي رغبة في التألق؟ المهم أن الذين يعرفونه متيقنون من أنه إنسان معتدل لن يرفض أداء دور الوسيط في هذه الحالة . بعد موافقة من الرئيس ، توصلت المجموعة إلى الاتصال بعلمي عمر عن طريق أحد معارفه . ووافق المحارب على «الهبوط» و الدعوة لاسترجاع السلم و الأمن . ولم يتحقق ذلك ، لقد اغتيل الرئيس .

بدايات مسعى

بخصوص الرشوة ، لاحظنا أنها تشكل آفة خطيرة تنخر المجتمع وتمس بسمعة المسؤولين على مستوى عال في الدولة . فأمام استحالة القضاء عليها ، ينبغي في مرحلة أولى ، العمل على الحد من انتشارها . ولبلوغ ذلك يجب تشجيع حرية الصحافة وحرية التعبير من أجل كشف تجاوزات المتورطين وإعطاء الفرصة كاملة للعدالة لأن تؤدي عملها في أحسن الظروف و في شفافية تامة . وعلى المشرّع فيما بعد أن يعيد النظر في الجانب القانوني الكفيل بمعاقبة المرتشين واستئصال هذه الآفة .

ومن المواضيع التي ناقشناها أيضاً موضوع تسديد الديون التي أراد محمد بوضياف أن يعالجها بطريقة جد برغماتية . واقترح إحصاء المسؤولين الذين ثبت اكتنازهم من خزائن الدولة ، وعددهم حوالي مائة ، وإقناعهم بإرجاع قسم من هذه الأموال إلى الوطن ، على أن تعدهم السلطة بعدم كشف الأسماء وتعاهدهم بأن لا يتعرضوا لأية متابعة . بالنظر إلى الظروف التي تمر به البلاد ، لا يوجد حل أفضل . وبهذه الطريقة ، و بفضل استرجاع جزء من المال المحوّل وتخصيصه لتسديد قسط هام من الديون ، كان يمكننا أن نقطع الخيط الذي يربطنا بصندوق النقد الدولي الذي بدأ يعمي بصيرة بعض إطاراتنا .

وبخصوص الجيش ، أبدى محمد بوضياف ، الذي لم يكن من دعاة النظام العسكري في بداية الخمسينيات ، اندهاشه أمام حيوية وانضباط ومستوى تنظيم الجيش الجزائري .

فكان فخوراً بذلك و قال لنا : «لحسن الحظ أن سليل جيش التحرير بقي واقفا» . و كان فخوراً أيضاً بمستوى الإطارات وبخاصة كوكبة الضباط الشباب المدعوين لتولي الخلافة . للأسف أنه راح ضحية ضابط شاب قيل عنه أنه «مهووس» و «تصرف بمفرده» . رواية لم تقنعني ولم تقنع الكثير من الناس غيري . هل سنعرف في يوم ما كنه هذا الحدث المشؤوم ، هذه النقطة السوداء في تاريخ الجزائر؟ أرجو ذلك...

ويهم كثيراً أن نذكّر بأهمية دور الجيش بصفته المؤسسة الأكثر تنظيماً وانضباطاً من بين جميع مؤسسات الدولة . تعاون الجيش الوطني الشعبي وساهم بدوره لضمان تسيير شؤون البلاد خلال المرحلة الانتقالية لتجنيب الوقوع في انحرافات قد تنجرّ عنها حرب أهلية مدمرة . بانتهاء الفترة الانتقالية ، وبمجرد أن يُشرع في المسيرة الديمقراطية ، يجب على الجيش أن لا ينحاز لأي حزب سياسي وأن يظل خارج وفوق الصراعات الحزبية . وبوسعه أن يتفرغ كلية لمهامه الأساسية ألا و هي : حماية الدستور و حماية وحدة الشعب والدفاع عن حدود التراب الوطني .

كانت تلك رغبة الرئيس و أحد شروطه .

في استجواب صحفي مع مجلة «VSD» الفرنسية بتاريخ 27 فبراير ، صرح بوضياف رداً على سؤال متعلق بالجيش قائلاً : «إن الجيش ليس هو جيش 1962 ، قادته ضباط جمهوريون ، فلو قدر في يوم ما أن يستولي الجيش على السلطة ، فسوف أغادرها .»

«ليس هناك رجال الرئيس»

بعد شهور من العمل والمعاينة ، أدرك بوضياف حجم المهمة التي هي بحجم الكوارث . وأدرك بأن ذلك سيكون شاقا له «وكل من له إرادة حسنة تسعى من أجل إعادة البناء ولتلك التي ستنضم إلينا في وثبتنا الوطنية» .

«ما أسمعه من الناس الذين أستقبلهم شيء مرعب . لكن لاحظت في نفس الوقت أن نصفهم ينتقدون الجميع و يشير بأصبع الاتهام نحو فلان أو علان . هذا يبين إلى أي مدى وصل اليأس و التذمر بالجزائريين .»

بدأت ترسخ في ذهن سي محمد قناعة عن ضرورة إصلاح كل المجالات بعدما أتم تقييمه للوضع . لكن ، وكما يقول ، يجب تفادي الدخول على جميع الجبهات مرة واحدة . ليته يتاح لنا ذلك ، لكن في انتظار ذلك ، لنحاول أن نبدأ بمؤسسات انتقالية .

إدراكاً منه للصعوبات التي تعترضه ، حرص بوضياف على إنشاء عدد من المؤسسات ، وإن كانت انتقالية . فالمهم هو الصمود « وتدريجيا ستعبر أصوات المواطنين عن موقفهم من كل لبنة من لبنات هذا الصرح الذي نبنيه» . كان يولي أهمية كبيرة لإشراك الشعب في القرارات . في غياب برلمان منتخب ، قرر تعيين مجموعة تمثيلية يستشيرها كلما يتعلق الأمر باتخاذ قرارات هامة ، فجاء ميلاد المجلس الاستشاري الوطني . بالنسبة لسي محمد ، هذه المؤسسة ضرورية من الناحية السياسية . في مسعاه لتجسيد هذا المشروع ، وصل به الأمر إلى أن يصرح ذات يوم قائلا : «بحثت ولم أجد ستين شخصاً .» و وجد من فسر قوله تفسيرا خاطئاً . لما بلغه ذلك ، تأثر كثيراً .

«صحيح أنه ليس لدي معارف كافية لاختيار ستين عنصراً . وإذا كان البعض قرأ ذلك قراءة أخرى ، فليعلموا بأني لا أريد ستين رجلاً من حاشية الرئيس ، بل أريد ستين عنصراً يمثلون حقاً الحركة الجمعوية» .

أصدر المجلس الأعلى للدولة ، المجتمع برئاسة سي محمد يوم 5 فبراير 1992 ، بياناً يعرض فيه أحكام تطبيق المرسوم المتضمن إنشاء المجلس

الاستشاري الوطني: «سيتكون المجلس من ستين عضواً يتم اختيارهم بالطريقة التي تضمن التمثيل الموضوعي والمتوازن لكافة القوى الاجتماعية في تنوعها وشتى حساسياتها. يضم أعضاء ينتمون إلى كافة قطاعات الحياة الوطنية. وهم وطنيون واعون بالمشاكل وسيما المحن التي تعيشها نسبة كبيرة من مواطنينا.»

في حفل تنصيب المجلس، خطب بوضياف وقال: «لقد تم اختيارهم من أوساط المنتمين لعالم الشغل والثقافة والعلوم والدين وغيرها من قطاعات النشاط الوطني العمومي والخاص والحركة الجمعوية والجالية الجزائرية بالمهجر، وعموماً من ذوي الكفاءات والقدرات والتجربة الكفيلة بالمساهمة السامية في خدمة الوطن. إن دور المجلس الاستشاري دور هام لأن مهمة أعضائه تتمثل في مساعدة المجلس الأعلى للدولة في أداء مهمته.»

ويشهد التاريخ بأن هذه المؤسسة فجعت عدة مرات. فقدت قليسي الهادي وبدبار مولود و بوخبزة امحمد و سحصري حفيظ الذين اغتيلوا على أيدي إرهابيين. ونجا من الموت مرزاق بقطاش و فرحات امحمد لكنهما لا زالا يحملان آثار إصابات بليغة.

انتهز الرئيس بوضياف فرصة تنصيب المجلس الاستشاري يوم 22 أفريل، ليدلي بملاحظاته بعد حصيلة مائة يوم من توليه المسؤولية منذ عودته. في هذه الحصيلة، ركز على الأزمات التي تعصف بالبلاد. فالجزائر على حد قوله تعيش أزمة ثلاثية حادة:

1. أزمة أخلاقية و فكرية.

عاش شعبنا منذ ثلاثين سنة متراميا بين الاشتراكية والرأسمالية، بين الغرب والشرق، بين اللغة العربية واللغة الفرنسية، بين العربي والأمازيغي، بين التقاليد والحداثة، بين العودة إلى الأصول والقيم الكونية، فلم يعد يعرف أين ملاذه.

لقد عانى مجتمعنا سنوات كثيرة من اللاتسامح والإقصاء. مزقته الصراعات القبلية و صراع الأجيال و المراكز والمصالح و جعلت من أي تواصل أو أي حوار شبه صعب المنال إن لم نقل مستحيلاً.

وغياب الاتصال بين الأجيال والطبقات الاجتماعية هو الذي يفسر التصدعات في مجتمعنا. ولقد انعكست نتائجه على مستوى جامعتنا وتلفزتنا وإعلامنا وحتى على مستوى اقتصادنا. ويرجع ضعف التوجيه الثقافي السليم إلى سياسات الإقصاء والإبعاد المتبعة في الماضي وللإرهاب الفكري الذي يقتل روح الإبداع و المبادرة.

ولابد لبلادنا أن تكف عن التقليد. ولابد من إحداث القطيعة مع كل عقدة وأن يكون أبناؤنا، يسعى أن نعتز بهويتنا و بماضينا وتاريخنا، وأن نثري وطننا شعبه حتى يعرف كيف يسير مكونات شخصيته. لقد استطعنا أن نتجاوز عقدة الجهوية والعصبية وروح الإقصاء إبان ثورتنا التحريرية. و شكل ذلك إسمنت وحدتنا التي قهرنا بها قوة العدو.

الوحدة الوطنية غالية على نفوسنا. كانت العامل المعين والقضية الأساسية في معركتنا التحريرية، من الواجب حمايتها و تدعيمها. فهذه هي القيمة الحقيقية لثورة نوفمبر: أن نكون أولاً جزائريين.

2. أزمتنا هي أيضاً أزمة سياسية: انعدام ثقافة الدولة.

تعتبر الديمقراطية، بعد سنوات من الحزب الواحد ومن الاحتكار والخطاب الواحد، مرحلة ضرورية. لكن الظروف الغامضة التي مهدت لإرسائها أدت إلى الانزلاق والوصول إلى وضعية وجدنا فيها حزباً سياسياً يريد أن يستعمل الديمقراطية والتعددية باستعمال نفس المسيرين، موقعنا في الفوضى.

لذا بات توقيف المسار الانتخابي أمراً ضرورياً. لقد نجح استعمال الإسلام لأغراض حزبية و سياسية، بتوظيف الأساليب الديماغوجية، لفترة معينة يلقى صدى في أوساط المقصيين من النظام و في أوساط المستضعفين. وتم ذلك بتواطئ من دوائر نافذة في السلطة. فاليوم يبدو جلياً بأن التحالف قائم

بين طرف من النظام و الأصولية و بعض أجنحة المعارضة الحزبية والمتطرفة للأسف .

3 . الأزمة الثالثة اقتصادية .

يمكن أن نقول بأنه منذ ثلاثين سنة ، مرّ اقتصاد الجزائر بمرحلة تأميم مفرطة ، احتكرت الدولة خلالها كل شيء : الفلاحة ، التجارة ، الصناعة ، الحماية الاجتماعية ، الخ . أبرزت هذه الفترة إلى الوجود حزب دولة بيروقراطيا شلّ النظام و وضع أغلبية شعبنا تحت كفالته وترعرعت في كنفه أقلية من الأثرياء .

تلا ذلك انتقالنا إلى اقتصاد ليبرالي متوحش متحرر من كل القيود . والنتيجة كانت كارثة حقيقية . فلم يصمد الاقتصاد الجزائري لهذا العلاج بالصدمة . وهو اليوم مريض و مهترئ .

هذه المؤسسة ، المجلس الاستشاري ، التي كان يترجى منها الرئيس كثيراً ، هي الثانية التي تم إنشاؤها بعد مرصد حقوق الإنسان ، الذي أعلن عنه هو أيضاً قبل عشرة أيام و لم يتردد بوضياف بشأنها لحظة واحدة . الذي يعرف مسيرته السياسية و كمواطن ، مثلي ، لن يتعجب من استعجاله بتنصيب هذا المرصد و كان يريده أن يؤدي دوراً فعالاً . لدى تنصيبه يوم 12 أفريل ، صرح الرئيس قائلاً :

«باعتبار الظروف التي تمر بها بلادنا ، من الضروري السهر على احترام الحقوق والحريات الأساسية .

إنني أؤكد تمسكي بدولة الحق والقيم الديمقراطية . قلت في عديد من المناسبات بأن توقيف المسار الانتخابي لا يعني توقيف المسار الديمقراطي . إنما هو إجراء ضروري لإنقاذ الديمقراطية ومستقبلها في بلادنا . و أؤكد بأنه لم يؤخذ أي ضمان لكي يكون المشاركون في اللعبة الديمقراطية جميعهم محترمين لقواعد اللعبة ، لذلك تعهدت شخصيا بأن تحترم السلامة البدنية والمعنوية للأشخاص الموقوفين في إطار حفظ الأمن»

و لقد أذن للمنظمات الإنسانية الوطنية و الدولية بزيارة المراكز الأمنية .

اقتراحات مواطنين

و وجهه البراغماتية ، أراد أن يواجه لتوه مشكل البطالة الذي يمس الشباب ، لنا مدعوين لعشاء في بيته ، وفي حديثه عن الشبيبة ، أثار مشكل البطالة وتطرق بكلمة «حيطيست» ، قائلاً بأنه «لا داعي لإثراء قاموسنا بمصطلحات تذكرنا بعهود الماضي الاستعماري البغيض . يجب خلق مناصب شغل وإزالة العراقيل الإدارية .

و عملاً بالحكمة القائلة بأن كل الحرف نبيلة وشريفة ، فلنعط شغلاً ولو مؤقتاً لكل واحد لنتجاوز الحالة العاجلة في انتظار التفكير بجدية في كل الإمكانات المتاحة لخلق مناصب دائمة . وإذا كانت عندكم مقترحات في هذا الشأن ، سأرحب بها .»

كلمت صديقين لي في الموضوع ، وهما موظفان ساميان في وزارتي الداخلية والثقافة والاتصال . وافقا على التعاون معنا مؤكدين بأنهما لن يطالبا بمقابل أو بمناصب أو بترقية على خدماتهم . فقط حبا في محمد بوضياف واحتراما لشخصه ، لطالما فرحا بعودته . و أنا نفسي اخترتهما على أساس ذلك . لم أنس الاختيار بما أنهما أنجزا عملا رائعا . اجتمعنا في بيت أحدهما لعدة مرات واستعرضنا سويا مختلف الحلول الممكنة . الإطار السامي الذي عمل لأكثر من ثلاثين سنة في الولايات وفي وزارة الداخلية ، يعرف كل دواليب الإدارة و كذا مصادر التمويل .

أما إطار الاتصالات والثقافة فكان يحرر بطاقات فنية مفصلة ومدققة . ولما أحس الصديقان بنفسيهما قادرين على الإسهام في هذا المجال ، عملا بشكل دؤوب .

و حين سلمت أولى الوثائق لسي محمد ، اندهش و سعد كثيراً . بعد مرور ثلاثة أيام ، استدعاني ليقول لي بأن الأفكار ممتازة . «لكن أطلب من صديقيك أن يقدما لي موجزات» . كانت النصوص فعلا طويلة . ولما شعر الصديقان بأن هناك استجابة ، ضاعفا من اجتهادهما وسلما لي مقترحات مهمة بنصوص

مختصرة ورد فيها كل شيء : الوظائف المؤقتة الملقاة على عاتق البلديات ، و تلك الملقاة على عاتق الولايات والدولة ، خلق فروع في مراكز التكوين ، اللامركزية ، الخ...

من بين الاقتراحات المهمة ، نذكر الاقتراح الخاص بميناء الجزائر والذي يمكن أن ينطبق على موانئ وهران وعنابة وسكيكدة . فمعروف عن الميناء أنه المكان الذي تعشعش فيه آفات النهب والتزوير والرشاوى وكل أشكال الاحتيالات . فلا ينجو من الشبهات حتى الموظفون النزهاء . وإلى غاية ذلك التاريخ ، لم تنجح أي سلطة في فرض الانضباط في الموانئ . كم من وزير اضطر للذهاب إلى الميناء والتدخل لحل بعض القضايا الشائكة . ونتذكر زيارة قام بها وزير أول في عهد مشروع محاربة الندرة الشهير . ويعود ذلك كله إلى تعدد أقطاب التسيير ووجود مؤسسات كثيرة تحت وصايات مختلفة لها علاقة بالميناء . لا توجد سلطة عليا . فلم لا يسن منصب وال بحري يشرف ، بوساطة إدارة خفيفة غير بيروقراطية ، على كل هذه الفسيفساء العجيبة أو قل هذه «الخلوطة» في موانئنا؟ ودون التدخل في التسيير الداخلي لمختلف المتعاملين ، يمكن أن نتوصل إلى التنسيق بين نشاطات الميناء في شفافية ، و تكون الدولة رابحة بقبض العائدات المستحقة ، من جهة ، وبفك الخناق على الميناء الذي تسببه البيروقراطية ، من جهة أخرى . عيوب التسيير في الموانئ عديدة : اكتظاظ ، تعويضات عن الآجال الزائدة ، فساد الأدوية والمواد القابلة للتلف ، عدم سحب البضائع من قبل المؤسسات العمومية ، سحب بضائع أو حاويات من قبل أحياء بأسماء أشخاص متوفين...

و كان هناك اقتراح آخر يخص إنشاء منصب والي شرطة للعاصمة للتخفيف عن والي الولاية ، الذي تثقل كاهله مهامه العديدة . فكرة الولاة البحريين وولاة الشرطة متداولة في العواصم الغربية التي لا تعرف مع ذلك مشاكل بهذا الحجم التي نعرفها في بلادنا . فبتخفيف العبء على الوالي سيتاح لهذا الأخير التفرغ للمشاكل الأخرى مثل الورشات المتوقفة ، مما سيعطي الشغل لآلاف من البطالين .

واقترح حل أثار الانتباه يخص الوثائق الإدارية للبلديات . ويتمثل في ضرورة جعل بعض الأوراق دائمة لأن الإدارات الجزائرية تطالب بالجديد باستمرار . وهذا يكلف الدولة نفقات ويزعج المواطنين ، ناهيك عن الوقت الضائع الذي يسببه للجميع (موظفين و موظفين) ثم أن هذا يكلف أموالاً طائلة للخزينة العمومية .

التجمع الوطني

التجمع الوطني : في تصورنا الحركة التي نسعى لتأسيسها عبارة عن تجمع كبير للجماهير الشعبية لا يكون له شكل حزب سياسي ، وإنما تجمع جزائريين من مختلف المشارب والاتجاهات السياسية المتبلورة حول برنامج تسيير محدود في الزمن للخروج من الأزمة . يسند إلى التجمع الوطني مهمة إعداد أرضية تنال قبول الجميع لإقامة دولة القانون ومبنية على أساس ديمقراطي . مما يعني وضع مؤسسات مقبولة من طرف الجميع و تسمح فيما بعد بحرية النشاط للأحزاب طبقاً لمبادئ يسنها ويصادق عليها الجميع .

لقي هذا المشروع معارضة من بعض الأحزاب هي «الحركة من أجل الديمقراطية في الجزائر» و«حزب التجديد الجزائري» و «الحركة الجزائرية من أجل العدالة و التنمية» و «حركة حماس» و «الحزب الاشتراكي الجزائري» التي اجتمعت يوم 26 أفريل و اتهمت سي محمد بتحويل التجمع الوطني إلى حزب واحد . لكن أحزاباً أخرى وعددها اثنا عشر انضمت إلى التجمع الوطني بعدما تم استقبال رؤسائها من قبل الرئيس .

في أحد خطاباته ، شرح سي محمد صاحب المشروع نواياه بقوله : «منذ ما يقرب من خمسة أشهر ، عملنا على استعادة هيبة الدولة والأمن العمومي والسلم المدني وقمنا بمحاولات لإنعاش الاقتصاد الوطني .

و يبدو لي ، وأنا أعكف على دراسة الملفات و ألتقي بالمسؤولين و أستمع للمواطنين الذين يزورونني ، بأن الجزائر تتوفر على موارد عديدة تؤهلها للخروج من الأزمة ، و كانت هذه قناعاتي دائماً . أذكر على سبيل المثال لا الحصر :

. موارد بشرية غنية بعمالها وإطاراتها المؤهلين ، و بطاقاتها الفكرية والتقنية و بقدرات هائلة على المبادرة و العمل .

. موارد طبيعية هائلة ، المنجمية منها والزراعية ، والتي يمكن أن تستثمر بصفة منتظمة .

. مرافق و قاعدة صناعية و تجهيزات ربما بحاجة لصيانة و تصليح سريع .

. رصيد من التعبئة و التجنيد لا يتطلب سوى أن تكون الرهانات محددة بوضوح و أن يكون للمشروع نظرة للمستقبل .

لكن قبل الشروع في العمل ، علينا أن نواجه جملة من الصعوبات ، لأن هناك عراقيل كبيرة قد تمنعنا من بلوغ أهدافنا وربما قد تفشلنا في مسعانا الإصلاحي .

أذكر من بين هذه العراقيل :

. حالة الانطواء على الذات التي يوجد فيها مجتمعنا إلى درجة يبدو فيها منغلقاً على العالم و على حركة التقدم ، مما سمح لإيديولوجيات ماضوية بالنفاذ إليه و بث التفرقة و الانشقاقات حتى داخل العائلة الواحدة .

. نقاش سياسي مجرد و شكلي يأبى الخوض في المشاكل الحقيقية التي تعاني منها البلاد ، ولا يقترح حلولاً عملية وهدفها ، حسبما يبدو لي ، لا يتعدى الدفاع عن مصالح شخصية .

. منظومة تكوينية لم تتكيف مع حاجيات اقتصادنا وواقع المجتمع العصري .

. محاولات العرقلة التي تقوم بها فئة من أصحاب المصالح والصفقات والمرتشين أنصار النظام القديم الذين يعارضون بشدة أي مسعى من أجل التغيير .

فالمشاكل واضحة ، والحلول واضحة . لذلك أتوجه إليكم اليوم لأطلب منكم أن تساعدوني للتقدم إلى الأمام بوقوفكم شخصياً إلى جانبي من أجل خلق القوة السياسية القادرة على فرض التغيير الجذري الذي نصبو إليه جميعاً .

وعليه ، يجب أن تؤسس في كل قرية ، في كل حي و في كل موقع عمل لجان التجمع الوطني .

فكما ترون ، على كل واحد أن يختار ، لا يمكن أن نبقى منتظرين إلى ما لانهاية . لا يمكننا أن نكتفي بأنصاف الحلول . يجب علينا أن نتجند كلنا بحزم من أجل التغيير .

كما كان الحال في أول نوفمبر 1954 ، الجزائر بحاجة إلينا جميعاً . بحاجة إلى تعبئة جميع أبنائها . و لكي تكون هذه التعبئة واضحة للجميع ، فستتم حول مشروع وطني محاوره الكبرى هي :

. أولاً : إقامة ديمقراطية تعددية في إطار دولة القانون التي تضمن التعددية الحزبية و التناوب على الحكم و تهذيب الأخلاق السياسية .

. ثانياً : خلق اقتصاد عصري و مفتوح على العالم ، بالقضاء على اقتصاد الريع من خلال ترقية اقتصاد السوق وإعادة تحديد دور الدولة وإعادة الاعتبار لقيمة العمل .

. ثالثاً : بناء مجتمع متكافل و عادل من أجل محاربة الظلم بشتى أشكاله وحل مشاكل السكن و محاربة البطالة .

يتضمن مشروع الأرضية الذي سيعرض على المواطنين المبادئ والمحاور الكبرى للمشروع الوطني . هو مطروح للمناقشة و الإثراء في إطار نشاطات التجمع الوطني .

يتوجه التجمع الوطني إلى الأحزاب السياسية السائرة في نهج التقدم والتغيير التي أمد لها مجدداً يدي ، كما فعلت في 16 يناير الماضي ، باستثناء الذين ينتهجون العنف أو الرجوع إلى الوراء . أتوجه إلى كل الذين يرغبون في تقديم مساهمتهم في المرحلة التاريخية التي نحن مقبلون عليها .

وأؤكد مرة أخرى بأن التجمع الوطني لن يكون نتاج مساومات انتهازية أو متاجرات سياسوية . فهو مفتوح لكل الفئات الاجتماعية والحساسيات السياسية دون استثناء .

وللمنظمات والجمعيات أقول بأن التجمع الوطني ليس حزبا سياسيا ، ولا حزبا واحدا بالتأكيد . لقد أنشئ ليكون إطار التقاء لكل الذين يؤمنون بقدرات الشعب الجزائري . وليشكل السند القوي للعمل الذي يقوم به المجلس الأعلى للدولة و أداة في يد أعضائه لكي يمارسوا دور السلطة المضادة على كل المستويات .

و أخيراً أتوجه إلى جميع المواطنين غير المهيكلين أو ضحايا التهميش ، رجالاً و نساء ، إن التجمع الوطني يمنح فضاء للتعبير وطرح الأفكار والمشاركة .

و سيسعى التجمع الوطني لإبراز الإطارات السياسية النزيهة التي تعمل من أجل إصلاح البلاد .

الطريق إذن مرسوم . هدفنا استعادة الثقة بين القاعدة و القمة ، واستعادة ثقة الجزائريين في أنفسهم و في وطنهم .

هل يا ترى سنتحلى بالشجاعة الكافية لمواجهة الواقع؟

هل سنتوفر على القدرات الكافية لتجاوز خلافاتنا والتجند من أجل الدفاع عن القيم الوطنية و المصلحة العليا للوطن؟

هل ستكون لنا الطاقة الكافية لرفع تحديات العالم الجديد وإعطاء وطننا مكانته في صرح الأمم؟

هل بوسعنا أن نغتنم الفرصة التاريخية التي أتيحت لنا اليوم؟

على كل هذه التساؤلات ، الجواب واحد : نعم .

سنصل إلى مبتغانا طالما أن دافعنا الوحيد ودليلنا الوحيد وشعارنا الوحيد هو : الجزائر قبل كل شيء .

«الجزائر قبل كل شيء»

هي صرخة قلب من رجل في السبعين ، مفعم بنوايا نبيلة ، أراد أن يكون رجل القطائع : قطيعة مع نظام متعفن بلغ حدوده ، قطيعة مع الرجال الذين أساءوا تسيير شؤون الشعب والوطن ، قطيعة مع الممارسات الانتقائية الإقطاعية التي سمحت بظهور لوبي حلّ محل احتكار الدولة .

صرخة قلب من مناضل لبت نداءه جماهير الشباب التي كانت في مرحلة أولى غير متفائلة بل ومناوئة ، ولكنها سرعان ما اكتشفت بأن بوضياف يختلف عن أصحاب السرايا . هو الذي لم يتوان في التنديد «بالمافيا السياسية المالية» ، وبقول بأعلى صوته ما يقوله الشعب همساً في الآذان .

توجه مباشرة إلى الشعب ، فانطلق في برنامج عمل كان سيعيد الثقة في نفوس الجزائريين و يعيد ربط العلاقة بين المحكومين والحكام . وكان في نيته لتحقيق ذلك أن يصهر السياسة و الأخلاق في كيان واحد .

عكف لمدة مائة وستة وستين يوماً ، رغم ثقل السنين و الصحة العليلة (هل يعرف الناس بأنه عاش برئة واحدة؟) ، لاستدراك الوضع .

وحدّد لنفسه ثلاثة محاور كبرى :

- هيبة الدولة .
- أمن و طمأنينة المواطنين .
- الشروع في مسار ديمقراطي .

أعاد الأمل في النفوس .

اغتالـوه .

هو حيّ في قلوبنا .

بن مهيـدي : رجل من الشعـب

منذ أن اتخذ الحزب قراره بحل المنظمة الخاصة ، عكف على البحث عن سبل تنظيم هياكل استقبال للمناضلين الموجودين محل البحث من قبل مصالح البوليس .

يعد بن مهيدي من الأوائل الذين أرسلتهم قيادة «الحركة من أجل انتصار الحريات» عندي لإيوائهم . طالما كان موقع محلي ملائماً لأنه يسمح بمراقبة المحيط و يتيح إمكانية الهروب والإفلات من دوريات الشرطة دون مشقة .

استقر هكذا بن مهيدي في هذا المحل وعمل فيه بجدية في جو من الأمن و الطمأنينة ، سيما ونحن ، أنا و إياه ، صديقان من زمن بعيد . كان راضياً بمخبئه و سعيداً بلقائي . لقد لعبنا معاً الكرة عندما كان بن مهيدي يزاول دراسته في المدرسة الابتدائية الثانوية بباتنة .

عاد هكذا بن مهيدي إلى النشاط ، مستغلاً هبوط شدة القمع و الهدوء الذي بدأ يعود شيئاً فشيئاً داخل هياكل الحركة الوطنية . أعاد ربط الاتصال بأقرانه لتحديد حجم الخسائر و وضع تقييم للوضع المضطرب الذي عاشوه .

التحق بالمنظمة السياسية حيث أسندت إليه مسؤولية في المداومة كرئيس دائرة في مدينة وهران و مستغانم و سيدي بلعباس ثم في عين تموشنت . ففي عين تموشنت ، وقعت حادثة كادت تضع بن مهيدي في ورطة قاتلة . فبينما كان يتجول رفقة رابح بيطاط ، ألقي عليهما القبض كمشتبه فيهما واقتيدا إلى محافظة الشرطة للتحقيق في هويتهما . تمكنا من مخادعة الشرطي المكلف بهذا التحقيق ليتسللا إلى الخارج ببرودة دم مذهلة . وعندما تم التحقق واكتشاف الهوية ، أعلن عن حالة استنفار على مستوى كافة أجهزة الأمن : لقد اختفى المشتبه فيهما . أعلنت حالة الطوارئ وتمّ تطويق الحي ثم انطلقت حملة البحث . لا أثر لبن مهيدي و لا أثر لبيطاط .

ليس في ذلك سر ولا غرابة . فالمناضلان كانا يحملان بطاقات تعريف مزورة من صنع المصالح الخاصة للحزب ، البطاقات حقيقية و الهويات مزورة . الوقت الذي استغرقه التحقيق هو الذي سمح للعربي و رابح بالانسحاب .

بعد هذه المغامرة المثيرة عاد العربي بن مهيدي إلى العاصمة و مكث فيها لبعض الوقت ، دون تعيين .

خلال هذه الفترة التي عانى فيها المسؤولان ، بدأت تلوح بوادر أزمة سياسية داخل المنظمة وأخذت تزعزع أركانها . امتد الاستياء إلى القاعدة التي كان لها رد فعل سلبي و دفعت موجة الغضب بالقيادة إلى إجراء تعديل في تشكيلتها .

في هذا السياق جرت حركة تحويل لرؤساء الدوائر مست العربي بن مهيدي الذي عين في سيدي بلعباس . أربعة من رفاقه حولوا إلى فدرالية فرنسا : بوضياف ، ثم بعده ديدوش ، ثم غراس و أخيراً حباشي .

بقي بن مهيدي في اتصال ببوضياف و راسله باستمرار . كما بقي مصطفى بن بولعيد و العربي بن مهيدي ، اللذان وفقا في سد الفراغ الذي تركه بوضياف ، في اتصال دائم مع المسؤولين الموزعين عبر التراب الوطني ، لاسيما رابح بيطاط وبن عبد المالك رمضان و بوصوف و بلحاج وسويداني و غيرهم .

العربي يدرس في القصبة

استغل بن مهيدي الفترة التي قضاها في القصبة للتأمل في المسائل المتعلقة بالوضعية السياسية و الاجتماعية السائدة في البلاد . و اهتم حتى بالجانب العسكري من خلال اطلاعه على دراسة تتناول هذا المجال . و كان شغوفاً بالوثائق المرتبطة بالتخطيط العسكري . يعرض أفكاراً بعد غربلتها ، ثم يحاول وضع استراتيجية حربية تراعي الواقع الجزائري .

لاءمته بيئة القصبة كمخبر ، فأراد أن يعمق معرفته بطباع و نفسية سكان الحي بكافة شرائحهم ، مركزاً اهتمامه على فئة خاصة من المحرومين وجدت نفسها مهمشة و دفعت رغماً عنها نحو الطيش والانحراف .

يوجد محلي في وسط تتعايش فيه عصابات شتى . عندما يلتقي بهم العربي في الطريق ، يكلمهم و يتبادل أطراف الحديث مع رؤسائهم . فكر العربي في إمكانية استغلال صفة الإقدام و العنفوان التي يتسم بها هؤلاء الفتية الذين شاهدهم مرات كثيرة في مواجهات بين العصابات المتنافسة .

فيمكن إذا ما تكفل بهم إيديولوجيو الحزب ، أن يستعملوا لكسر شوكة المستعمر . لأنه في اعتقاد بن مهيدي ، من السهل على هذه الشريحة أن تتحرّر وتحطم البوتقة الضيقة التي انغمسوا فيها في شكل عصابات قطّاع طرق لتنقلب ضد النظام الذي جعل منها حثالة المجتمع . فيمكنهم أن يتطهروا بالثورة والتمرد على السلطة التي همشتهم و ألقت بهم على قارعة الطريق .

و فكر بن مهيدي في كيفية إدماجهم و إقحامهم في عمليات استعراضية لزرع الخوف والرعب في أوساط الجالية الكولونيالية . و كانت له فكرته بخصوص معايير انتقاء العناصر . فقسّمهم إلى فئتين : الفئة الأولى متكونة من مجموعات تشكل فرق ردع . و تتمثل مهمتها في تنفيذ المهام المسندة إليها من دون نقاش و لا تردد . المهم ، في نظره ، هو إقناع هؤلاء بالأمر . و بمجرد أن يقتنعوا لا يشك أحد من أنهم سيؤدون مهمتهم أحسن أداء . الفئة الثانية تتكون من عناصر قادرة على التفكير و إصدار قرارات . وهذه المجموعة تستخدم لدعم تأطير جهاز الحزب . و بإمكانهم أن يقوموا بدورهم باستقبال المنخرطين الجدد واستمالة الأشخاص الذين لم تكن لهم في البداية أية نية للنضال في أي حزب وطني .

كان بن مهيدي جد حذرا في اتصاله بالناس . يتجنّب المواجهة المباشرة مع أحد ، وإنما يبحث دائماً كيف يقنع . فبلاغته في الكلام جعلت منه رجلاً تستطيب مصاحبته .

كان بشوشاً و متواضعاً ، و كانت له القدرة على التأقلم مع أي موقف أو وضع كان . أعطى أروع الأمثلة في السلوك كمناضل و كمسؤول . و كان تقياً و متسامحاً . إنما يحب الانضباط و يطالب غيره به . إذ كان يرى بأن مستوى نضج أي حزب يقاس بمستوى سلوك مناضليه و صرامتهم في العمل و سداد أحكامهم . وهذا كله لم يلغ لدى العربي حبّه للانشراح ومشاركة أصدقائه مزاحهم .

للترويح عن النفس من شدة الإرهاق الذي يسببه له كثرة الاهتمام بمشاكل الحزب ، كان يهوى الاستماع إلى الموسيقى الأندلسية ، و يحب فضيلة الدزيرية . كما أنه من حين لآخر يذهب إلى السينما و يلعب «البيار» إذا ما حلّت هناك مناسبة أو يلعب كرة القدم . و في الصيف ، ينزل في بعض الأحيان معي إلى «راس المول» في مرسى العاصمة للاستحمام .

لم يكن أكولاً لكنه كان يشتهي الأطباق التقليدية و الحلويات العاصمية .

وكان بالمقابل يفرط في شرب القهوة والشاي في بعض الأحيان ، لاسيّما في الأوقات التي يحضر فيها تقاريره الشهرية .

في آخر كل شهر ، يضبط حساباته ليوازن في ميزانيته . يحصل على عمله في المداومة على مرتب قدره 12 ألف فرنك . في كل شهر يقتطع جزء من هذا الراتب ليرسله إلى شقيقه الأصغر محمد الطاهر المدعو «برونو» الذي يعزه كثيراً .

مثله مثل بوضياف ، كان بن مهيدي يحب الخروج في الليل ، و التجول رفقتي . كلمني كثيراً عن ذكرياته ولقاءاته مع عبان رمضان في عام 1949 ، الفترة التي كان خلالها هذا الأخير مسؤولاً سياسياً في ناحية سطيف . كان رفيقه ثم أصبح صديقه الحميم . يحترمه كثيراً و كان يناديه باللقب الألماني «هانس» لطريقة تسريح شعره . يقول عنه أنه رجل شجاع و صريح و له رباطة الجأش ويملك ثقافة سياسية عميقة . وكان هناك بالفعل تقارب كبير في وجهات النظر بين الرجلين حول عديد من المسائل . كل ما كان يتمناه العربي هو أن يخرج عبان من السجن قبل اندلاع الثورة بغية إشراكه في التحضيرات .

لم يخفف مؤتمر 1953 من حدة التوتر السائد والذي استمر داخل هياكل المنظمة . كان الحزب يعيش أزمة نمو ولم يكن بمقدور مسؤولي القيادة اقتراح حلول مناسبة . في الوقت الذي يطالب المناضلون المحتجون بالشروع في العمل المسلح و يرون أنفسهم في طليعة الكفاح التحريري لكل المغرب الكبير . فراح الشعور بالكبت يستولي على القاعدة التي بدأت تشك في قدرة المسؤولين على خوض غمار الكفاح . ولما لاحظت بأن الحزب دخل في مرحلة من التفتت ، بدأت القاعدة النضالية تغلي وتتحرك .

يعد بن مهيدي من أولئك الذين شجعوا مناضلي القاعدة و حثوهم على تكثيف الضغط على قيادة الحزب لإرغامها على تبني النهج الثوري .

في مارس 1954 قرّر بن مهيدي و بوضياف (القادم من فرنسا) وبن بولعيد وبيطاط بتأسيس اللجنة الثورية للوحدة و العمل .

ديدوش لم يكن قد عاد بعد من فرنسا ، إلاّ أنه وافق على الفكرة فور عودته . وكانوا ملزمين بإشراك اسمين جديدين مع أسماء المؤسسين المذكورين ،

و هما عضوان في اللجنة المركزية : دخلي محمد ، مسؤول التنظيم ، و بوشبوبة رمضان ، المراقب العام للحزب .

استخلصت مجموعة الخمسة (بوضياف ، بن بولعيد ، بيطاط ، بن مهيدي وديدوش) العبرة من الوضع العام و من آثار الأزمة السياسية فقررت عقد اجتماع بالمرادية في منزل المناضل إلياس دريش . ضمّ هذا الاجتماع اثنين وعشرين مناضلاً وطنياً وسيبقى خالداً إلى الأبد في سجل تاريخ الجزائر . كان يحذوهم نفس الحس الوطني ، وبه قرروا مصير شعب و أمة . و قد أبدى بن مهيدي الذي حضر هذا اللقاء التاريخي نشاطاً هائلاً .

إثرها شرع في حملة تحسيس وشرح بشأن الخلافات القائمة داخل الحزب و ذلك بعقد تجمعات للمناضلين في «السيدة الإفريقية» (نوتر دام دافريك) «Notre dame d'afrique » و«تاغاران» «Tagarins » و في الأبيار و غيرها من أحياء العاصمة . أثناء مداخلاته ، برز كخطيب بارع أنار جمهوره بأفكار واضحة معبراً عما يكنّه المناضلون في أعماقهم وعما ينتظرونه من المسؤولين .

في تحليله ، هيّأ المناضلين للثورة القادمة وهذا ما كانوا يريدون وينتظرون .

تسارعت الأحداث و عبء مسؤولياته ازداد ثقلاً . و كان دائم الحركة .

لما رأى بأن برنامجه حافل ، قام بزيارة لبعض أفراد عائلته و أصدقائه ، حسبه أنه سيتعذر عليه رؤيتهم مستقبلاً . فطلب مني أن أصاحبه لرؤية خاله ، الطبيب الكولونيل المتقاعد قاضي علي ، في عيادته الكائنة في شارع علي بومنجل بالعاصمة . اندهش خاله لرؤية ابن أخته و هو محل بحث من قبل الشرطة ، و كان يظنه موجوداً بمصر . تبادلا الحديث مطولاً وأسرّ الكولونيل السابق للعربي بانخراطه في «اتحاد الديمقراطيين المسلمين الجزائريين» و بعلاقاته القديمة مع الأمير خالد الذي قال بأنه كان رفيقه الوفي .

بعدها ، زار العربي أحد زملائه في مدرسة باتنة ، وهو طبيب أسنان يدعى ... حمرونة ، لعب معه مباريات كثيرة في كرة القدم في مجاز «بوكا» اليوم ... بن بولعيد .

كل الذين عرفوا ابن مهيدي لمسوا لديه حس التضامن العائلي والصداقة .

كان ليغرق في النشاط ، وكان معبأ بحماس مناضلي القاعدة الذين ظل في اتصال دائم بهم .

في توصياته و عند تعرضه لإشكالية الثقة أثناء اجتماع حضره حشد كبير من المناضلين ، قدم العربي بن مهيدي نفسه كقدوة دعاهم للإقتداء بها بقوله : «...ت لزمن طويل بينكم . تعرفونني واعتدتم رؤيتي بهذا اللباس ، وغداً إذا ...يتموني مرتدياً بدلة «كوستيم» ، فمن حقكم أن تطلبوا مني مبررات لمعرفة بأي ...ل كسبت هذا الشيء .»

من الآن فصاعداً ، ينبغي على المناضل أن ينزع الغمامة عن عينيه . يجب إعطاؤه إمكانية للتعبير عن نفسه و حثه على التفكير حتى يتسنى له هو بدوره أن يقنع غيره و يكسبهم إلى قضيته و يشعر بمسؤوليته عن كل ما يقوم به .

تشكل مجموعة الخمسة ، التي انضم إليها كريم بلقاسم ، هيئة أركان ما سوف يعرف باسم جبهة التحرير/ جيش التحرير . هي التي حررت «النداء إلى الشعب» و «بيان أول نوفمبر 1954 » و قررت تاريخ تفجير الثورة المسلحة في الفاتح نوفمبر 1954 . تبنّت مبدأ الحكم الجماعي و اختارت شعاري جبهة التحرير الوطني و جيش التحرير الوطني .

بعد اجتماع الـ22 في منزل دريش و الاجتماع الأخير في 23 أكتوبر في بيت بوقشورة في رايس حميدو «بوانت بيسكاد سابقاً» ، صار يمكن للعبة أن تبدأ . منعرج تاريخي بدأ بفضل عزيمة حفنة من الرجال المناضلين والملتزمين ظلوا يؤمنون بسياسة الحزب و طبقوا جميع تعليماته . أطلقوا صفارة الإنذار لأنهم لم ينفصلوا في يوم من الأيام عن القاعدة النضالية التي نفذ صبرها و لم تعد تنتظر سوى الضوء الأخضر للمرور إلى الفعل .

لطالما تعبوا من الرواح و الغدو من صف إلى آخر سعياً منهم للمصالحة بين الأخوة الأعداء (المصاليين و المركزيين) ، و حينما أدركوا عمق الهوة بين التيارين ، عزموا على تخطي الهياكل القيادية و كسروا طابو الاحتكار السياسي الحزبي و إعلان الثورة . فضلوا إطلاق الشرارة على الاضمحلال . و في هذا الصدد قال بن مهيدي مقولته الشهيرة : «ألقوا بالثورة إلى الشارع ، ستجدون الشعب الذي سيحتضنها .»

هذه النبوءة تقاسمتها كل المجموعة المقررة قصد الانفتاح على جميع الحساسيات . فدعت كافة القوى الحية للأمة ، دون أي إقصاء للانضمام إلى الحركة الثورية .

سعى بن مهيدي جاهداً لتجسيد هذا المفهوم بإشراك عبان رمضان فور خروجه من السجن عام 1955 في هذا المشروع الوحدوي لكل عشاق الحرية و العدالة ، متطرفين كانوا أو إصلاحيين أو تقدميين أو ليبراليين ، أوروبيين أو يهود ، أغنياء كانوا أو فقراء ، حضريين أو ريفيين . لكي ينصهروا في نفس البوتقة و يتحدوا في نفس الكفاح لاسترجاع السيادة الوطنية .

بعد توزيع مناصب القيادة ، فعُين بن مهيدي على رأس الناحية الخامسة بغرب البلاد . رسم بنفسه حدود ناحيته بالطواف عبر سائر ربوع الإقليم الوهراني ، و ربط اتصالات مع الأخوة المحاربين المغاربة من أجل تنسيق العمل على الصعيد المغاربي .

بفضل معرفته الجيدة للمنطقة ، لكونه قضى سنوات عديدة في ربوعها ، سعى منذ البداية من أجل إرساء قاعدة قوية يستعملها كمنطقة عبور السلاح لإمداد المناطق التي تفتقر للسلاح ، و في نفس الوقت كمنطقة تراجع و استراحة .

شن عملية كبيرة كانت حصيلتها احتراق مزارع يملكها معمرون . و في ظرف أسبوع واحد ، شبت عدة حرائق في الإقليم الوهراني . لم تستطع الصحافة أن تتجاهل الحدث و أشارت على أعمدتها إلى يد «الفلاقة» .

سافر بن مهيدي إلى المغرب الأقصى و إلى مصر و كان هدف زيارته إنشاء قاعدة إسناد ومصالح اتصالات أسندها إلى أحد مساعديه ، عبد الحفيظ بوصوف .

بناء على جملة الصفات التي يتحلى بها عيّن رئيساً لأشغال مؤتمر الصومام في 20 أوت 1956 . وانتُخب عضواً في لجنة التنسيق والتنفيذ لجبهة التحرير/ جيش التحرير . من بين القرارات التي اتخذتها هذه اللجنة ، استقلالية ناحية الجزائر ، و تولى بن مهيدي القيادة السياسية والعسكرية للجنة التنسيق والتنفيذ ، و يساعده في الجانب السياسي كل من عبان رمضان و بن خدة يوسف و سعد دحلب ، و في الجانب العسكري يساعده كريم بلقاسم .

من قال أنّه انتحر ؟

ألقي القبض على بن مهيدي في فبراير 1957 على يد مظليي بيجار في مخبأ عند أصدقاء أوروبيين في شقة تقع في 5 شارع لويز دو بتيني «5، Rue Louise de Bettignies» حسين بلعحل حاليا القريب من شارع كلود ديبوسي «Claude Débussy» بالعاصمة مصطفى الوالي حاليا .

وضع عساكر الاحتلال تحت إمرة أحد ضباطها الأكثر غطرسة ، في الليلة مابين 3 إلى 4 مارس حداً لحياة العربي بن مهيدي الذي لفظ أنفاسه تحت التعذيب ، واضعين الحد هكذا لكفاح خاضه طيلة حياته . قاتله ، بول أوساريس ، الذي كان يشرف على الاستخبارات العسكرية ، وباتفاق مع ماسو وتغطية من القيادة السياسية ، أيدوا أطروحة انتحار بن مهيدي .

خلال ندوة صحفية عقدها يوم 6 مارس ، صرح غوران ميشال ، الناطق باسم الحاكم العام قائلاً : «إن بن مهيدي انتحر داخل زنزانته شنقاً بواسطة أطراف قميصه» . وأصبح هذا التصريح بمثابة الرواية الرسمية ودعاية السلطات الفرنسية التي لم تتخل عنها طيلة خمس وأربعين سنة .

الجنرال أوساريس ، و دون أدنى تأنيب للضمير ، كشف في كتاب صدر له تحت عنوان «المصالح الخاصة . الجزائر 1957 / 1955» بالتفصيل كيف قتل العربي . دون شعور بالذنب ، كتب :

– في الليلة بين 15 و 16 فبراير عام 1957 ، ألقي القبض على بن مهيدي... و بن مهيدي كان ، بما لا يدع مجالاً للشك ، مدبر جميع العمليات المسلحة ورأس الحربة في «معركة الجزائر» بصفته الممثل رقم واحد للجنة التنسيق و التنفيذ التي حلّت محل مجموعة بن بلّة .

– وضع بيجار أسيره في ثقة و عامله باحترام . ولم تلق هذه المعاملة إعجاب الجميع . ماسو كان قد عيّن في هيئة أركانه القاضي بيرار الذي كان مكتبه قريبا من مكتبي و كنت ألقاه كثيراً في مقر الولاية . تتمثل مهمة قاضي التحقيق بيرار في إدارة ديوان وزير العدل فرانسوا ميتران الذي يُبلّغ مباشرة بما كنّا نفعل ، من دون المرور على النيابة .

و كان بيرار متحمساً كثيراً لفكرة الاعتقال هذه و لم يكّف عن تكليمي بشأنها . ذات صباح طلب مني قائلاً :

- لكن ماذا عسانا نفعله به نحن الآن؟

- ما نفعله أنا لا يهمني . لست أنا الذي أوقفته و ليست قضيتي ، هي قضية تهم بيجار .

- لكن قولوا لي ، ألم يخطر ببالكم أن تهتموا قليلاً بالموضوع ؟

- و لماذا ؟

- كنت أريد فقط أن أعرف إن كنتم فتشتموه .

- ليس هذا عملي . .

- هذا ما كنت أفكر فيه : إن كنتم لم تفتشوه ، فإنكم لم تنزعوا له كبسولة السيانور « Pilule de Cyanure » .

- ماذا تقصد ؟

- لا بأس ، رد بيرار مركزاً على كل كلمة ، هذه أشياء لا أعلّمها لكم أنتم ، كل القادة الكبار يحملون معهم كبسولة سيانور . هذا معروف .

ما كان لما طلبه مني بيرار ، الذي يمثل العدالة ، أن يكون أوضح . فأجبته بنفس اللهجة :

- وإذا فرضنا يا حضرة القاضي ، أننا فتشناه ولم نعثر على كبسولة سيانور : وما دام الحال كذلك ، أكيد أن لديكم فكرة عن الدكان الذي يبيع مادة السيانور ، لأنه كما ترون ، نسيت أن أحمل معي منها في أمتعتي .

ظل القاضي في عناده .

- إيه والله ممتاز ، هذه فكرة . أنت محترف حقيقي .

ذهبت للقاء الدكتور «ب» ، و هو طبيب جراح أعرفه جيداً . أعرف أنه أهل للثقة . شرحت له بأننا بصدد البحث عن مادة السيانور لنسمح لأحد قادة الأفلان بالانتحار . خربش في الحين على ورقة بيسترول اسماً وعنواناً .

- اذهب أنا أضمن بأنه سيعطيكم ما تريدون .

حملت الوصفة الغريبة وقصدت العنوان المشار إليه ، وهي صيدلية بالعاصمة يملكها صيدلي من الأقدام السوداء ، الذي ابتسم لي ابتسامة خفيفة عندما شرحت له الموضوع بالتفصيل .

- هل أنت مستعجل ؟

- لا . . لا . . أبداً .

- إذن عُد غداً في الصباح الباكر .

في الغد أعطاني زجاجة من السم ذات 75 سنتيلتر .

- لكن أنا بحاجة لقرصة و ليس لزجاجة . . سوف لن أعطيه يشرب . .

- هذا ما عندي ، ما عليكم إلا أن تمسكوه جيداً ، وسترون سوف لن ترحمه .

لم يُبد بن مهيدي أدنى رغبة للتعاون و بيجار من جهته لم يستطع أن يتجاهل عواقب هذا الرفض . و رفض رفضاً باتاً تسليمه للبوليس ، خوفاً من أن يعذبوه .

في يوم الثالث من مارس 1957 تحدثنا مطوّلاً مع ماسو بحضور ترانكيير . و توصلنا إلى خلاصة مفادها أن محاكمة بن مهيدي غير مرجوة ، لاعتبار أن المحاكمة ستكون لها انعكاسات دولية .

فطلب مني ماسو قائلاً : «فماذا ترى؟»

ـ لا أرى ما يميز بن مهيدي عن الآخرين؟ فيما يتعلق بالإرهاب ، لا يخيفني قاطع طرق أكثر مما يخيفني رئيس العصابة . لقد أعدمنا العديد من الشطار الصغار المساكين الذين يطيعون أوامر هذا الإنسان ، و هانحن لا نزال منذ ما يقرب ثلاثة أسابيع نتردد ولا نعرف ماذا نصنع به .

ـ أنا موافق تماماً على ما تقولون ، لكن بن مهيدي رجل معروف ، يصعب تصفيته هكذا . .

ـ دعوني إذن أتكفل به قبل أن يهرب إن بقينا مترددين .

أطلق ماسو شهقة و قال لي :

ـ حسناً ، قم بالمهمة . قم بها جيداً ، سأغطيك .

فهمت بأنه حصل على الضوء الأخضر من الحكومة .

في الليلة الموالية أخذت بن مهيدي إلى الأبيار . و كان بيجار قد أخبر بأنني أنا الذي ستأكفل بأسيره . فعمد التغيّب يومذاك . وصلتٍ ومعي سيارات من نوع «جيب» و واحدة «دودج» ، وكان معي اثنا عشر رجلاً من فرقتي الأولى ، مدججين بالسلاح . أركبت بن مهيدي بسرعة داخل الدودج . وانطلقنا بسرعة فائقة . توقفنا في مزرعة معزولة كان يحتلها الكومندو التابع لفيلقي ، وتقع على بعد حوالي عشرين كلم جنوب العاصمة ، وضعها تحت تصرفنا أحد الأقدام السوداء . بها مبنى سكني متواضع من دون طوابق ، و كانت مجموعتي الثانية تنتظرني هناك .

يتكون الكومندو من عشرين رجلاً ، بعضهم كانوا من المجندين لكنهم أهل بالثقة . مسؤولهم النقيب آلارد ، المدعو تاتاف ، يطيعني طاعة كاملة و شرحت له ما سيحدث . قلت له أن يأمر رجاله بتهيئة المكان الذي سيوضع فيه بن

مهيدي لأن المزرعة لم تكن مهيأة ، و لابد من تنظيف المكان و نقل حزم التبن المتراكمة بداخلها . ثم عزلنا السجين في حجرة جاهزة ، و كان أحد رجالي يقوم بالحراسة أمام المدخل . لمّا دخلنا الحجرة رفقة ضباطي ، قيدنا بن مهيدي و شنقناه بطريقة توحي بعملية انتحار . لما تيقنت من مفارقته الحياة ، أنزلته و نقلته على التوالي المستشفى . و كنا في حدود منتصف الليل . و كلمت في الحين ماسو في التليفون . «حضرات الجنرال ، بن مهيدي انتحر منذ حين ، جثته موجودة في المستشفى . سأقدم لكم تقريري غداً في الصباح .» أطلق ماسو [illegible] و وضع الهاتف .

كان يعرف أن تقريري جاهز منذ بداية الظهيرة ، لربح قليل من الوقت . كان القاضي بيرار أول من قرأ القرار الذي يصف بأدق التفاصيل عملية الانتحار التي ستحدث في الليلة الموالية . و كان بيرار منبهراً : «لكن هذا عمل رائع . . هذا . .»

واضح أن أوساريس أكد بأنه فهم بأن ماسو «كان لديه الضوء الأخضر من الحكومة .»

وفي كتاب بعنوان «تاريخ جبهة التحرير الوطني» ، نشر جاك . س . دوشمان صورة عن شهادة طبية نعيد نشرها هنا كاملة :

نحن المضون أسفله ، الطبيب الملازم الأول بلوك بيار و الطبيب الملازم أوديلو جان ، نشهد بأننا عاينا جثة السيد العربي بن مهيدي عند وصولها ، وثبت لنا بأن وفاته وقعت قبل وصوله إلى المستشفى العسكري مايو يوم 4 مارس 1957 .

لم تثر انتباهنا آثار جروح بارزة .

الجزائر يوم 16 ماي 1957

الطبيب الملازم الأول بلوك بيار ؛ الطبيب الملازم أوديلو جان

توقيع توقيع

كتابة بخط اليد الجزائر 16 ماي 1957
خاتم دائري يحمل إشارة رئيس الأطباء

يجب الإشارة إلى أن هذه الوثيقة مؤرخة في 16 ماي ، بينما تسرد حادثة وقعت يوم 4 مارس . .

أوساريس ، ماسو ، بيرار ، ألار المدعو تاتاف... و آخرون في الظل (فرانسوا ميتران كان وزيراً للعدل) كل هؤلاء تعاونوا لوضع حد لكفاح أحد مهندسي الثورة .

لقد بدأ نضال بن مهيدي في بسكرة حيث وجد في حركة الكشافة الإسلامية الجزائرية كوكبة من الشباب المشبعين بالروح الوطنية . ضمن فرقة «الرجاء» ، رفقة وطنيين مخلصين ، من أمثال الطيب خراز و علوي وعزة و ديهة أحمد و غيرهم . . اعتنى بتربية النشء و بتدريبهم على فنيات الكشافة و بث فيهم الروح الوطنيـة ، و اهتـم بتوعيـة فتيان ما فوق السادسة عشرة و تحسيسهم بالاستعمار و أفعاله . و كم كان فخوراً بالتحاق كثير من تلامذته بالثورة . البذرة نمت و أعطت الثمار المرجوة .

بالنسبة للشبيبة ، يظل قدوة يقتدى بها في التفاني و الإقدام . و تعتبر تضحيته رسالة للأجيال اللاحقة لكي تعي بضرورة النضال من أجل نيل كرامة الوطن و العدالة الاجتماعية و احترام الإنسان في جزائر ذات سيادة .

المناضل الملتزم بوقشورة مراد

إذا كان هناك صديق أعرفه جيداً ، فهو مراد بوقشورة . يحزنني ويؤلمني كثيراً أن أذكره و قد رحل عنّا ، فلقد ناضلنا معاً طيلة أكثر من خمسين سنة وعاشرنا معاً المناضلين البسطاء و سائر زعماء الحركة الوطنية . سُجنا معاً و أكلنا من نفس القصعة . فهو أكثر من رفيق وصديق ، كان مراد بالنسبة لي أخاً . كان رجلا

بسيطاً أحب بلاده حباً جنونياً ، وجب عليّ أن أحيي ذكراه و أكرم مقامه . وأن أسهل تكريمي له أن أنقل شهادتي عن جزء من حياته التي أفداها من أجل مثل عليا ظل يؤمن به ، وأن أعرف القراء به دون إطناب و أقول ببساطة كيف كان يعمل و يأمل . .

ولد مراد عام 1922 ، و ينحدر من عائلة فقيرة . كان منذ نعومة أظافره واعياً بالوضعية الاجتماعية و السياسية الخطيرة التي عانى منها الأهالي التي ينتسب إليها و الشبيبة منها بصفة خاصة .

كشاف بين الكشافة

في عام 1942 ، دخل مراد في الحركة الجمعوية التي تناسب ميوله الإيديولوجية أكثر . و تعتبر الكشافة الإسلامية الجزائرية مدرسة الوطنية بامتياز . اختار فرقة «الوداد» في بولوغين حيث كان له بعض الأصدقاء .

متنت ممارسة الكشافة ميوله الوطنية و سمحت له بالاحتكاك بإخوة كشافة من بينهم خاصة عجيمي عبد الرحمان و درارني محمد و سيفي مصطفى ، الذين اكتشف عندهم حب الوطن و روح الأخوة الصادقة و التضامن .

كان دائم النشاط ، ساهم بجذوته و إيثاره في تكوين فتيان الكشافة لكل الفئات و كان هؤلاء يكنون له الاحترام و التقدير . وقد التقى بالعديد منهم فيما بعد في الكفاح .

في عام 1944 ، انخرط القائد الكشفي الشاب في حزب الشعب الجزائري وناضل في خلية حيه بوادي قريش . بفضل نشاطه عين للمشاركة في عملية تحضير الاستعراض المقرر في الفاتح و الثامن ماي 1945 . ورفيقه زيار عبد القادر الذي اغتيل ، كان من أوائل الشهداء .

في عام 1946 واعترافاً بقدراته و كفاءته ، كلفه الحزب بتنظيم وهيكلة منطقة الساحل بمساعدة شقيقه مجيد ، مناضل مخلص هو أيضاً ، وبالتحديد منطقة غرب العاصمة الممتدة من بولوغين إلى زرالدة .

أدى مهمته على أحسن وجه تحت إشراف سماعيلي الخياط ثم ديدوش مراد المدعو عبد القادر .

للقيام بمهمة توسيع ودعم هياكل الحزب ، نشط بالتعاون مع رفاق ، لاسيما منهم :

- ماضوي حسين ، نائب رئيس البلدية ، بصفته عضواً منتخباً للحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية (ح .أ .ح .د) ؛

- بورويبة بوعلام ، مستشار بلدي (ح .أ .ح .د) ومسؤول الفرع النقابي على مستوى الكونفدرالية العامة للعمال ؛

- درارني محمد ، مسؤول في حزب الشعب ، ومسؤول الفرع النقابي لعمال البريد ؛

-سيفي مصطفى ، رفيق ومسير النادي الرياضي أولمبيك سانت أوجين (شهيد أوقفه المظليون و مات تحت التعذيب) ؛

وخلال السداسي الثاني من عام 1947 ، عهد الحزب إلى مراد بوقشورة في مهمة لدى المنظمة الخاصة ضمن مجموعة شبه عسكرية . اجتاز امتحانه بشجاعة و براعة . كانت لديه قدرة فائقة على الإلمام بالقضايا الميدانية سمحت له بتولي المسؤولية على المجموعة داخل هذا التنظيم .

أدى واجبه النضالي دون تحفظ و بانضباط و برصانة إلى غاية انكشاف المنظمة الخاصة من قبل مصالح الأمن الفرنسية .

في عام 1951 ، اتخذ الحزب قراره بحل المنظمة الخاصة وأمر مناضليها بالالتحاق بالمنظمة السياسية . و كلف مراد مع مجموعة من رفاقه بتأطير الجمعيات المقربة من الحزب ، و يتعلق الأمر بحركة الكشافة الإسلامية ، ومدارس الحزب الحرة (الصباح والانتصار والخلدونية) .

بعد تأسيس اللجنة الثورية للوحدة و العمل في مارس 1954 على يد بوضياف و بن بولعيد ، كان مراد من بين المكلفين بتوزيع جريدة الحزب

«لوباتريوت» الموجهة لتوعية واستمالة العناصر القابلة للترويض في العمل المسلح .

وكانت فضاءات التوزيع مقسمة كما يلي :

- الهادي باجراح و قصاب نذير للقبة ؛

- مسعودي عبد الواحد للأبيار ؛

- نايت مرزوق عبد الرحمان و زرقاوي مصطفى و أنا للجزائر الوسطى .

- بلوزداد عثمان لبلكور ؛

- قاسي عبد الله عبد الرحمان و سعيد حالس لحي «لاردوت» (المرادية) ؛

- بوقشورة مراد و بوقشورة مجيد لحي «بوانت بيسكاد» (بولوغين) .

وبعد انعقاد اجتماع الاثنين و العشرين ، كان بوضياف و بن بولعيد متيقنين بأن تصدع الحزب أمر محتوم و لا مفر منه . كل المحاولات والمساعي للمصالحة بين الجناحين المتصارعين ، المصالي و المركزي ، لعقد جلسات المؤتمر من أجل حل الأزمة ، باءت بالفشل الذريع .

وارتأوا توسيع دائرة اتصالاتهم و علاقاتهم خارج التراب الوطني . و كان مراد بوقشورة من بين الذين سمحوا بالدخول في اتصال مع الممثلين المصريين : مكتب المغرب العربي . و كلّم مراد صهره أحمد مزغنة ، الذي يعد الذراع اليمنى لمصالي و رئيس الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية . فعرض مزغنة على مراد أن يطلب من محمد بوضياف الاتصال بأحمد بن بلة في فندق «سيمبلون»(Symplon) بمدينة برن السويسرية .

دائم النشاط

أثناء فترة التحضيرات لتفجير الثورة ، وضع مراد مدبغته الكائنة بشارع بلوز ، وكذا منزله الكائن بـ 24 شارع كونت غيو ببولوغين تحت تصرف اللجنة الثورية للوحدة و العمل . في منزله أقامت عائلتان من ستة عشر شخصاً ، منهم أطفال رضع . واحتضن كبار مسؤولي هيئة الأركان . وللذكرى ، فإن

في بيته عقد إجتماع 23 أكتوبر 1954 الحاسم الذي قرر خلاله تأسيس جبهة التحرير/ جيش التحرير و حدد تاريخ تفجير شرارة ثورة أول نوفمبر 1954 .

في هذا اليوم الأغر ، الثالث و العشرين من أكتوبر ، كنا أنا و بوقشورة مراد وشقيقه مجيد داخل غرفة مجاورة للقاعة التي كان فيه الستة مجتمعين ، ننتظر بأناة .

ألقي القبض على مراد في شهر نوفمبر عام 1954 . وعند إطلاق سراحه ، واصل نشاطاته السرية في ظروف جد معقدة عقب معركة الجزائر ، مع موجة القمع الشديدة التي نزلت بالعاصمة و قادها الجلادون المظليون تحت إمرة ماسو . تجدر الإشارة إلى أنه في تلك الأيام ، و منذ أن دمرت شبكات الناحية الحرة ، أقامت كل الولايات شبكات تتبع قيادات مناطقها .

اتصل مراد بأحمد زهوان ، الذي كلفه كريم رابح ، شقيق كريم بلقاسم ومسؤول ناحية في الولاية الثالثة ، بدعم شبكة الإسناد بمنخرطين جدد : في الاتصالات و صناديق البريد والإمداد بكل ما كانت تحتاجه جبهة التحرير/ جيش التحرير .

على هذا الأساس ، دخل مراد في اتصال مع مناضلين يعملون في الإذاعة ، و ساعده في ذلك الهادي باجراح الذي كان والده ضمن الفرقة الفنية للأوبرا .

بفضل مساهمة حسن الحسني و الطيب أبو الحسن و حميد نمري والطاهر بن عمور ، الصحفي في الإذاعة ، تمكنوا من تشكيل مجموعة من اثني عشر تقني راديو قام أحمد زهوان بتوجيههم إلى الجبل لدعم العناصر المكونة في الخارج والمرسلين ليعملوا في وحدات الاتصالات التابعة لجيش التحرير .

و كان مراد جد نشيطا كذلك في الإمداد بالمثقفين الذين لم يقووا على العمل في الهياكل المتنقلة بسبب سنهم أو حالتهم البدنية ، مثل مفدي زكريا الذي أفرج عنه من السجن و لابد من تهريبه إلى الخارج مروراً بقناة التنظيم في الغرب نحو المغرب الأقصى .

في 1959/1958 شارك مراد في التحضير لتشكيل الناحية السادسة التابعة للولاية الرابعة مع عدد من رفقاء السجن وعلى رأسهم الشهيد أحمد علام الذي تعرض لإصابة خطيرة أمام حاجز للدرك و سيلقى مصرعه على يد العساكر الفرنسيين .

في عام 1962 ، وفي فترة المواجهة مع القوى التدميرية للمنظمة الجيش السري ، أشرف على التسيير المالي لمستشفيات جبهة التحرير حيث كان الموتى والجرحى يعدون بالعشرات .

عند إعلان الاستقلال ، و بكثير من التواضع و وعياً منه بأداء الواجب ، عاد إلى ورشته ، رافضاً عدة عروض لتولي مناصب مسؤولية في دواليب الدولة والإدارة .

ناضل بعض الوقت في صفوف جبهة التحرير وعانى بعض المشاكل بسبب ارتباطه ببوضياف المنشق . عندما عرض عليه هذا الأخير الانضمام إلى حزب الثورة الاشتراكية ، رفض مراد مثلي أنا بكل لطف .

وقد دفعه استياؤه من تصرفات بعض رفاقه القدامى ، الذين تشيعوا لبن بلة ، إلى الانسحاب من السياسة و التفرغ لحرفته و عمله .

وافته المنية يوم 15 أكتوبر 1991 و وري جثمانه التراب في مقبرة القطار .

ماذا أقول عن بوقشورة مراد... هو القائد الكشفي و مناضل القضية الوطنية ، الدائم النشاط ، والمشبع بالمثل التي لم يتازل عنها أبداً ، الرجل الذي عاشر رواد نوفمبر ، و اقتسم قصعة السجناء ، الرجل الذي خطب في الجماهير و عالج الجرحى النازفين دماً ، و آزر الثكالى و اليتامى ، ولم يكن لديه هو نفسه الوقت ليضم أولاده إلى كتفه ، هو الرجل الذي قال في خريف عمره : «لقد أديت واجبي» .

الملـــحق الأول

نبذة تاريخية عن مقـر قيـادة الثورة
تحت مسؤولية المنسق محمد بوضياف

نحن في شهر مارس 1950 . القوات الكولونيالية الفرنسية اكتشفت وجود المنظمة الخاصة ، الجناح شبه العسكري لحزب الشعب/ (ح .إ .ح .د .) المكلف بتحضير الكفاح التحريري المسلح .

في شهر أفريل من نفس السنة ، بادرت قيادة الحزب بإحصاء عدد من المحلات التجارية والسكنات القابلة للاستعمال كملاجئ للعناصر التي نجت من اعتقالات سلطات الاحتلال .

وهكذا وقع اختيار محمد بوضياف ، المدعو سي الطيب الوطني ، على المحل الكائن بـ6 شارع بربروس بأعالي القصبة ، سيدي رمضان بالعاصمة ، والذي يملكه عيسى كشيدة ، خياط ومناضل الحزب في صفوف المنظمة الخاصة .

هـذا المأوى ضيـق نـوعـاً مـا ، و يـتكـون من دكـان و ورشـة ، و لـكنـه يمتاز بكونه يتوفر على منفذين ، الأول يؤدي إلى شارع بربروس والآخر إلى شارع كاتاروغيل (قطاع الرجل) . مما يضمن نوعاً من الأمن في حالة دخول البوليس . وبقرار من الحزب ، تم تكليف محمد بوضياف الناجي من حملة الاعتقالات التي جرت في شهر مارس 1950 و بصفته عضواً في هيئة أركان المنظمة الخاصة ، تم تكليفه بجمع من كانوا يطلق عليهم «الخارجين عن الشرعيـة»

والتكفل بأمرهم ، و يقصد بالخارجين عن الشرعية الأعضاء الموجودين محل بحث من قبل الشرطة الفرنسية و المتوزعين عبر كامل التراب الوطني .

في شهر جوان 1954 غداة تأسيس اللجنة الثورية للوحدة والعمل ، كانت التحضيرات لتفجير الثورة التحريرية قطعت شوطاً هاماً .

وكان بوضياف في أشد الحاجة لوسط هادئ وآمن للتفكير في رسم الاستراتيجية السياسية والعسكرية اللازمة . طلب من صديقه عيسى كشيدة ، المناضل و صاحب المحل ، بأن يتنازل له عنه كاملاً . فأهداه مجاناً لبوضياف الذي حوله إلى مقر لقيادة الثورة .

كان هذا المحل ، الذي احتضن الكثير من «غير الشرعيين» بمثابة نقطة تلاق لعديد من الزعماء . فشهد بالخصوص اجتماعات الرواد الخمس : بوضياف ، بن بولعيد ، بن مهيدي ، بيطاط و ديدوش الذين انضم إليهم كريم بلقاسم .

ففي 6 شارع بربروس ، وضعت هذه النواة من الثوار اللمسات الأخيرة لعملية تفجير ثورة نوفمبر 1954 . وتقررت الحلقـة الأخيـرة يوم 23 أكتوبر 1954 في بيت المناضل الدائم بوقشورة مراد في 24 شارع بشير بديدي برايس حميدو (بوانت بيسكاد سابقاً) .

في عام 1956 ، قام الجيش الفرنسي بتفجير المقر الأول لقيادة الثورة الجزائرية . ولم يبق من ورشة الخياطة . . ورشـة الثورة ، سوى أطلال .

من بين صناع الثورة التحريرية الوطنية الذين مروا أو اتخذوا مأوى لهم في 6 شارع بربروس ، نجد :

.محمد بوضياف

- محمد العربي بن مهيدي

.مراد ديدوش

.رابح بيطاط

.عبد السلام حباشي

.محمد مشاطي

- عبد الرحمان غراس
- بوجمعة سويداني
- محمد بن مقدم
- محمد خيضر المدعو سيد علي
- رمضان بن عبد المالك
- عبد الحفيظ بوصوف .

إلى هذه القائمة غير المكتملة ، تضاف أسماء مناضلين آخرين لم يكونوا محل بحث في تلك الفترة ، أي في غضون عام 1950 ، ونذكر من بينهم :

- مصطفى بن بولعيد
- أسعيد بوعلي
- سليمان ملاح .

ولكي لاينسى أحد شعار الشهيد بوضياف : «الجزائر قبل كل شيء» ؛ ولكي تبقى صورته حية ؛

ولكي يبقى أبناء المناضلين الذين مروا على 6 شارع بربروس محتفظين بذكرى خالدة عن مآثر آبائهم ؛

ولكي تعرف الحرية مكان نشأتها ؛

حري بأن يُحافظ على هذا المكان المشهود وأن يصنف ضمن النصب والآثار التاريخية .

الملـــحق الثاني

رسالة من بوضياف إلى كشيدة

يوم 14 أكتوبر 1990

عزيزي عيسى ،

طلب مني شقيقي أن أبعث إليك نسخة من الرسالة التي كتبتها لبوعجاج . وللأسف فأنا لاأحتفظ بنسخ عن رسائلي التي أكتبها بخط يدي مثل هذه الرسالة التي بين يديك .

أولاً ، أريد أن أعبر لك عن جزيل شكري على ما قمت به في شهادتك المنشورة بجريدة «الشعب» (ركن «منبر التاريخ») حيث وضعت النقاط على الحروف ، عكس الكثيرين ممن لم تكن لهم الجرأة على قول الحقيقة بل و قاموا بتشويهها .

مع بوعجاج ، أحكي لك ما جرى فعلاً . ففي العام الفارط ، زارني عثمان بلوزداد . تحدثنا مطولا ثم عاد . عندما جاء حتيا جلول ليحاورني في حواره التلفزيوني الطويل ، ارتأى أن يلتقي بالعديد من الأشخاص .

وبدأت أخشى أن تختلط عليه الأمور أمام شهادات لاتروي بالضرورة الحقيقة صافية خالية من الشوائب . فقررت أن أكتب إلى بوعجاج وإلى بلوزداد لأطلب منهما أن يتحدثا بصوت واحد بشأن مجموعة «الاثنين والعشرين» . في رسالتي اللطيفة ، ألححت على نقطة تخص دريش إلياس بقولي أنه حتى وإن لم يتم

تعيينه عضواً إلا أنه صوّت ومن ثم فيجب الاعتراف له بشجاعته على كونه وضع منزله تحت تصرفنا كرد على طلبي لدعم قاعدة «الاثنين والعشرين» ، تلقيت جواباً يكتنفه غموض وارتياب ونية مبيتة لتشويه التاريخ . لم أتمالك نفسي ، وقلت لبوعجاج رأيي في صمته حينما كان عضواً في جبهة التحرير الوطني و صمته أمام عمل الاغتصاب الذي تعرض له التاريخ الحقيقي والذي قام به بن بلة وأتباعه .

لكَم يؤسفني ، يا عزيزي عيسى ، أن كل واحد بعد الاستقلال صار يرى نفسه صاحب الحقيقة التاريخية ، بينما في الحقيقة لم يمثل بعضهم أي دور . هذه هي الحقيقة ، و لم أعتد في حياتي على الكذب بشأن مثل هاته القضايا .

طبعاً ، قد يخطئ الإنسان لكن ما ينبغي محاربته هو الجبن ، لأن الجبن ينتقل عن طريق العدوى ، وهذه العدوى شوهت لجيل الشباب الذين يشكلون الأغلبية الساحقة ، الحقيقة عن جذور الفاتح نوفمبر الحقيقية .

هذا ، وأريد أن أعرب عن ارتياحي لنتيجة العمل الذي أنجزه محمد عباس وحيا جلول و آخرون ، المتعطشون لمعرفة الحقيقة . و يحق لنا أن نقول بأن الجزائر خطت خطوة إلى الأمام في الاتجاه الصحيح . وما عدد المراسلات التي أتلقاها إلا دلالة على انبعاث ليس بمقدور أحد أن يوقفه ، « والحمد لله» .

أنتظر رسالتك لأعرف وجهة نظرك كمناضل عرفت ، عكس الكثيرين ، كيف تحتفظ ببرودة أعصابك و سداد أحكامك .

تحياتي لكل المناضلين الذين يبدون اليوم وغداً استعدادهم لخدمة الحقيقة ولا يخشون في ذلك لومة لائم .

تحيــاتي
محمد بوضياف
2نهج شكيب أرسلان
القنيطرة (المغرب الأقصى)

الملـحق الثالث

الخطاب الوصية الذي ألقاه الرئيس بوضياف يوم 29 جوان 1992 بمدينة عنابة

ما أريد أن أقوله هنا موجه للشباب . مررت على عدد من الأروقة و رأيت الشيء الذي يقدرون عليه . من واجبنا أن نشجع هؤلاء ، و أن يكون أحد أهدافنا و إحدى أولوياتنا العمل معهم لأنهم يمثلون مستقبل البلاد . و نطلب من هذه الشبيبة أن تنظم نفسها كما نطلب من الإطارات في أعلى مستويات الدولة ، أن تولي اهتماماً لهذه الشريحة من المجتمع و تساعدها من أجل ترقيتها وسعادتها .

و للإطارات من جهتهم دور كبير في تنمية البلاد ، بحكم تمكنهم من المعرفة . وإسهامهم شيء مطلوب .

مر اقتصاد بلادنا بمرحلتين . وتمثل الاشتراكية التجربة الأولى . كلنا نعرف بماذا أتت . لكن لا أحد ينكر بأنها أعطت بعض النتائج... دعونا من ذلك ، فليس المقام هنا للانتقاد... . اليوم ، واجب علينا أن نكون واقعيين قبل كل شيء . و واقعنا معروف . و ما يبعث على التفاؤل هو أن بلادنا تتوفر على كفاءات وثروات .

في ظرف ثلاثين سنة ، كوّنت رجالاً و شباباً مثقفين و إطارات كفأة . هذه الثروات الزراعية و المنجمية... كان يمكنها أن تسمح للجزائر بأن تكون لها مكانتها وتتقدم و تسمح لها بالخروج من الأزمة التي تتخبط فيها ، لأن الجزائر في أزمة .

و يجب أن نعترف بذلك . ما هي أسباب هذه الأزمة؟ هذا التجمع ليس هو المكان المناسب لاستعراضها كلها .

اليوم ، نحن نواجه أزمة . الديون ثقيلة والمشاريع تكاد تكون ميتة . في قطاع البناء مثلا و في القطاعات الأخرى ، قمت اليوم رفقة سلطات هذه الولاية بزيارة لبعض المنجزات و بعض المشاريع التي تنوي إنجازها . الجزائر تملك الكفاءات و القدرات للخروج من الأزمة الراهنة .

أما فيما يخص التوجه الاقتصادي للبلاد ، فهو اليوم واضح . فبعد الاشتراكية ، جاء عهد التجربة الليبرالية و اقتصاد السوق . لست اختصاصيا في الاقتصاد لكن أود توضيح بعض الأمور . يوجد في البلاد قطاعان اقتصاديان ، قطاع عمومي و قطاع خاص . فيجب تطهير القطاع العمومي ، و ينبغي علينا أن نقوم بهذا التطهير بشكل عقلاني . ينقسم القطاع العمومي إلى قسمين : قسم قابل للنهوض تلتزم الدولة بمساعدته و تطهيره حتى يتطور و يزدهر و يعطي ثماره . و القسم الثاني موجود في حالة إفلاس كبيرة . و ينبغي إيجاد حل له أيضا . وعلى القطاع الخاص أن يبني علاقات مع القطاع العمومي . علمنا بأنهما كانا في السابق متصارعين ، وليس ذلك من مصلحة الاقتصاد الوطني و لا من مصلحة البلاد . و هناك أيضا صناديق المشاركة ، التي ينبغي أن تكون أدوات للإصلاح و التطهير و الترقية و الإنتاج الوطني و مساعدة للمشاريع الإنتاجية . إن الإنتاج هو ثمرة المواد الأولية و اليد العاملة .

في السنوات الماضية ، كان بعض الجزائيين ينتظرون كل شيء من الدولة . و الدولة كانت تعطيهم كل شيء . لكن هذه الدولة ليست لديها الإمكانات لتعطي لكل الناس .

هناك مثلا بعض الشرائح . و لا أقول بأن الشعب الجزائري و الشباب لا يعملون و لا يبذلون مجهودات ، حاشى ذلك . لكن هناك ناس يقبلون العيش في البطالة و يرفضون هذه الوظيفة أو تلك . و نحن نعرف بأن اليد العاملة هي العامل الأول في عملية التنمية والتقدم .

في بداية كل شيء ، توجد الأفكار ويوجد العمل . الشعوب التي لا تبذل مجهودات و لا تعمل و لا تتقدم إلى الأمام تتراجع إلى الوراء ، من غير نقاش .

هناك مشكل آخر ، يتعلق بالضرائب و النظام الجبائي . فالضرائب ضرورية ، والدولة لا تفرضها لتملأ بها خزائنها ، لكن لتصحيح بعض الأمور . و على الناس أن يعوا بأن الغاية من الضرائب و النظام الجبائي ليست للعقاب بل بالعكس لإقامة توازنات . و كذلك ، من يدخل اقتصاد السوق ، ينبغي عليه أن يقبل ببعض القواعد .

مثلا ، مسعانا هو أن نعمل بالطريقة التي يكون أي وزير أو أي واحد لا يعمل بمعزل عن الآخرين و إنما بالتعاون مع رجال الميدان المعنيين ، وهذا رغبة في الحصول على أفضل النتائج .

و بما أن مسعانا يرمي إلى ترقية التقدم و المصلحة الوطنية ، أعتقد أن كل الجزائريين وطنيون ، لكن ينبغي على الإطارات أن يفهموا شيئا ، أن هناك مصالح خاصة وهذا لا شك منه ، لكن لو نجعل من هذه المصالح الخاصة الحافز والمحرك للإنسانية ، فسوف لن يتقدم المجتمع . أملي من الحاضرين ومن الإطارات و كافة الجزائريين أن يضعوا دائما نصب أعينهم بأن المصلحة العامة لابد أن تكون فوق المصالح الشخصية .

لاحظنا ذلك خلال شهر رمضان . في هذا الشهر طلبنا من الوزير المعني بالسهر على الحد من ارتفاع الأسعار . لقد أصبحت ظاهرة في الجزائر ، بمجرد حلول شهر رمضان ، ترتفع الأسعار إلى السماء . يجب أن ندرس من أين يأتي هذا . هناك طبقة من الجزائريين ، و لتحقيق مآربها الخاصة ، يلهبون الأسعار ، دون مراعاة للفقراء و المواطنين ذوي الدخل الضعيف . سنعلنها حربا على هذه الآفات و على هؤلاء الناس الذين انحرفوا ووضعوا مصالحهم فوق المصلحة الوطنية .

كل ما أقوله هنا ماهي إلا نقاط سجلتها و أريد أن ألح عليها .

شيء آخر : في عام من الأعوام مثلاً ، يقرر بناء 60 أو 70 أو 80 ألف سكن . وعندما تأتي نهاية السنة ، لا يجرى أي تقييم و لا أي حصيلة . و هذا أمر ضروري في جميع الميادين . لابد من تقييم ما تم إنجازه و ما لم ينجز بسبب نقص مادة من المواد . وهذا التقييم يسمح بإجراء تصحيحات وتعديلات .

هناك مشكل آخر عويص ، هو مشكل الإطارات . توجد ممارسات هدامة تسود في الجزائر .

لا أدري إن كانت تسود في البلدان الأخرى . . و تتعلق بإجراءات تسريح الإطارات الكفأة والعمال التي يجريها كل وزير جديد . لابد من حماية هذه القوى الحية للأمة . و لهذا الغرض ، سنسن قانوناً يحمي و يؤمّن الإطارات لكي تعمل من أجل المصلحة العامة ، و يكفل منع أي وزير أو أي مسؤول آخر من طرد هذا الإطار لأنه ليس من دشرته و ذاك الإطار لأنه لا يناسبه و آخر لأنه لا يسايره . هذه التصرفات غير مسؤولة . إن مسألة الإطارات مندرجة ضمن أولوياتنا التي هي السكن و الشبيبة و التكوين .

يمثل إذن استقرار الإطارات أولوية من الأولويات التي حددناها . ولابد من بناء قاعدة لهذه البلاد . اطلعت على دراسة حول النظام الفرنسي تبيّن بأن إطارات الدولة هي التي تتكفل بالملفات . بإمكان الحكومة أن تجري تغييرات ، لكن يجب ألا تغيب المصلحة العامة في الأذهان . فمن واجبنا إذن حماية الإطارات و الشباب الذين يؤدون دوراً أساسياً في المجتمع .

لكل هذه الأسباب ، يجب الرجوع إلى التجمع الوطني . هناك ربما من لم يفهم أهدافه و فلسفته . الفكرة المحورية للتجمع الوطني تتلخص في استحالة وجود أي تقدم دون وجود تعاون بين الشعب و قيادته . هذا التعاون ضروري . رجاؤنا أن يسترجعوا الثقة في أنفسهم و في قدراتهم على العمل . ستوفر لهم الدولة إطار العمل و ستساعدهم و تستمع إليهم . عقدت اجتماعا مع طلبة و شباب . لديهم مشاكل كثيرة . لديهم دور في هذا المجتمع . و في الحقيقة كل واحد لديه دوره الخاص . أملنا أن ننفخ في الجميع الروح الوطنية . و ليعلم كل واحد بأن له دورا يؤديه في هذا المجتمع .

هذا التعاون ينبغي أن يتم على مستوى القاعدة . بعد الثورة ، ومنذ 1962 لم يحدث تلاحم بين القاعدة و القمة ، و قد خلقت هذه الوضعية حواجز وعراقيل . المواطن لا يؤمن بالسلطة و لا يثق في دولته . يقول بأن كل المسؤولين لصوص و يستعملون مناصبهم لأغراضهم الخاصة . يجب القضاء على ذلك خدمة للمصلحة العامة . نرجو أن يكون التجمع الوطني إطاراً للتلاقي بين كل الجزائريين ، ومكاناً يتبادلون فيه أفكارهم ، حتى وإن لم يتفقوا مع بعض المساعي أو بعض التوجهات . والعامل المشترك سيكون المصلحة العامة ، مصلحة المجتمع . ينبغي أن يتم الاتفاق حول هذا العامل المشترك و حول شعار التجمع الوطني الذي هو «الجزائر أولاً و قبل كل شيء» . يجب أن نفهم أخيراً بأن الجزائر لن يكتب لها التقدم إلا بنا نحن . عندما أقول نحن ، أقصد القاعدة والقمة معاً . شيء آخر ، هناك ظروف تجعل من مواطن ما مسؤولاً . لكن هو مسؤول لماذا؟ للمزايا؟ للاغتنام؟ لا . أنا أعتقد بأن هناك في الجزائر قدرات . عرفنا ذلك ، إبان الحرب التحريرية . الشعب لم تكن له آنذاك الحرية ليقرر مستقبله بيده . اليوم ، الحمد لله لنا سيادتنا .

إذا كانت الحرب التحريرية اقتضت هذه التضحيات الكبيرة ، فإن عملية البناء و تكوين الدولة تتطلب تضحيات أكبر ، و تمثل الجهاد الأكبر . ويجب أن نفرق بين هذه الدولة التي علينا بتشييدها و بين مؤسساتها أو الشخصيات التي تمثلها . لن تكون هناك دولة إلا حين يكون الشعب واعياً وأن تكون نفس هذه الدولة نابعة منه .

لنعد إلى فكرة الديمقراطية . المواطن له الحق أن يختار مسؤوليه . ومن الضروري التعاون مع شعبنا . الوضعية الحالية مؤقتة ، و ناجمة عن الخطر الذي تعرضت له الجزائر . هذا الخطر ناتج عن بعض الجماعات والأفكار الدينية أو الجهوية التي أرادت أن تفرض إرادتها على الشعب . لنقض على ذلك . في وسط هذا الشعب ، هناك أشخاص لهم أفكار معينة ، أملنا أن نتعاون معهم ، حتى ولو أن أفكارنا مختلفة في بعض المجالات ، ونعمل لرفع المصلحة الوطنية فوق جميع المصالح . لتبق الجزائر ومستقبل الجزائر حاضرين دائماً في قلوبنا .

رجاؤنا أن يتعقل كل جزائري يشعر بأنه جزائري و يسأل ضميره : ماذا فعل من أجل الجزائر؟ بطبيعة الحال ، كل واحد عنده عائلة و عنده وظيفة ، لكن توجد قضية سامية : هذا التراب ترابنا ، و هذا الشعب شعبنا ، هذه الأرض أرضنا . ربما يكون هناك أناس سيقولون بأنها اليد الأجنبية .

لنع بأن الخير فينا و الشر فينا .

هذه الوضعية مؤقتة . لقد جرّت البلاد إلى حافة الهاوية . نحن نشاهد عمل هذه الجماعات المتطرفة . ما هي فائدة الإنسان الذي يحرق حافلة أو محل أو يفجر قنبلة؟ هل للوصول إلى السلطة؟ بكل صراحة ، رجائي أن أحذر هؤلاء الناس . إن السلطة عازمة على تخليص الشعب الجزائري من هذه العناصر المخربة . و إن أحد أهداف المجلس الأعلى للدولة في هذا الظرف يتمثل في استرجاع سلطة الدولة و هيبتها . قلت بأن الدولة لا تبنى فقط من فوق . إن وعي المواطنين ضروري . إذا كانت هذه الدولة غير صالحة ، فالشعب عنده إمكانات لتغييرها عن طريق صناديق الاقتراع . الدولة التي لا تحترم نفسها لا تُحترم . لهذا ينبغي على الأشخاص الموجودين في دواليب الدولة ، على كل المستويات ، أن يشرّفوا بأسلوبهم في العمل و في سلوكهم و علاقاتهم بالمواطنين ، هذه الدولة المبنية على القيم . والشعب الجزائري معروف بروح مقاومته و عزته و شهامته . يقال أن الجزائريين مشهورون بعزة النفس . أين هي عزتنا؟ إن القيم هي التي تمثل الأمم . قالها أمير الشعراء أحمد شوقي : «إنما الأمم الأخلاق ما بقيت/ فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا . .»

الشعوب من غير قيم ليست شعوبا . بعض الناس يقولون ، وأنا ألح على هذه النقطة ، أنه توجد «حقرة» . هذا صحيح . لكن أكيد أن هناك أناس يستحقون «الحقرة» . لنأخذ مثال . في الشارع ، واحد يسرق امرأة على مرأى عشرة شهود لا يحركون ساكناً . فهؤلاء الأشخاص الذين كانوا شهود عملية إزعاج و لم يحاربوها ، يحق عليهم الإزعاج .

فإذا أردتم أن تتجنبوا الانحرافات ، عليكم أن تتحلوا بالأخلاق الفاضلة . أم أنه ينبغي على الدولة أن تتدخل حتى في الشوارع... فهذا من شأن المواطن

شأن الدولة . المواطن عنده عائلة وعنده وظيفة ، و يعيش في بيئة . ليس من سلوكه و أخلاقه و مواقفه يشرّف الدولة التي شرفته بالمسؤولية . مثلاً ، إذا كان أي مسؤول يصل إلى المكتب على الحادية عشرة بدل الثامنة ، كيف تريدون ألا يصل العامل البسيط في منتصف النهار أو على الواحدة؟

و يحق لهذا العامل البسيط أن يجيب عليه إذا ما سئل : وأنت لماذا لا تصل في الوقت؟

القدوة يجب أن تأتي من القمة . لكن هؤلاء الأشخاص الذين يحكمون هذا الشعب ، و يتولون مسؤوليات و لكن لا تتوفر فيهم الأخلاق و القيم التي تجعل منهم أناساً محترمين... .

الغاية الأولى للمجلس الأعلى للدولة هي استرجاع قيمة الاحترام من القمة إلى القاعدة .

هناك مسؤولون يتشبثون بمناصبهم مدى الحياة و هم يعرفون بأن المسؤوليات محدودة في الزمن . ينبغي على المسؤول أن يكون في المستوى ، و إلا فليُخل السبيل للأشخاص الأكثر جدارة . و ليكن في علمهم بأنه يوجد من لديهم القدرة على تعويضهم .

إن عمر بني آدم لقصير . غدا نموت كلنا . الكفاءة و النزاهة ضروريتان لتحمل المسؤوليات . أي شخص يحتل منصبه للعمل و لبذل مجهودات .

الغاية الثانية للمجلس الأعلى للدولة هي استرجاع الطمأنينة للمواطنين .

على السلطة الحالية أن تقضي على أعمال العنف . و قد صرح وزير الدفاع مؤخراً بأننا على يقظة و بأننا سنقوم بكل ما وسعنا لتخليص الجزائر من هذه العناصر التي تزرع الفوضى والتخريب . ولن نتراجع عن موقفنا .

الغاية الثالثة تتعلق بالمسار الديمقراطي . لابد من العودة إلى الديمقراطية ، لكن إلى ديمقراطية حقيقية لا إلى ديمقراطية تفرز الفوضى و الافتراءات والإشاعات .

يجب تقييم الأشخاص الذين يتمتعون بالكفاءات . لأنهم هم الذين ينبغي أن يكونوا في الطليعة . وفي المستقبل ، إن شاء الله ، سنعمل على تولية العلم مكانة أساسية . إن مشكل الجزائر لا يكمن في الديـن ، فالإسـلام ديـن الجميع و ليس دين فئة معينة . و كما قال زغلول باشا : «الدين لله و الوطن للجميع .» كيف يسعنا أن نعرف ما في صدور الناس؟ لندع الله يحكم وحده و يحاسب وحده . إن الإسلام راسخ و ضارب جذوره في الجزائر و لا داعي للكلام عن ذلك لأننا كلنا مسلمون .

كان هناك شخص يصلي... التقى الإمام علي رضي الله عنه بأعرابي كان قد أتم صلاته . فقال له علي : «صلاتك غير مقبولة .» و رد عليه الرجل : «ولماذا صلاتي غير مقبولة؟» ، فقال له علي : «لكذا و كذا . . فأعِد الصلاة» وانصاع الأعرابي للأمر و كان محتاراً من صحة صلاته ، فقال له علي : «الصلاة الأولى هي المقبولة . لأنها كانت لله . أما الثانية فكانت لي .»

بالنوايا تصدق الأفعال . فمن لم يهده الله إلى الطريق المستقيم ، فلن يهديه الإنسان . ليس من حقي أن أحاسب أحداً ، هل يصلي أم لا يصلي . فإذا هداه الله ، فهذا خير له . لأن الصلاة تبعد المرء عن الرذائل و المنكرات . الدين في القلب .

الدين في الأفعال و السلوك و السيرة و الكرامة . هذه هي المواضيع التي ينبغي أن نعكف عليها في المجال الروحي...

الغاية الأخيرة تتمثل في العودة إلى الديمقراطية ، لكن إلى ديمقراطية شفافة . ديمقراطية ينتخب فيها الجزائريون مواطنين يملكون مشروعاً وبرنامجاً و يلتزمون بهذا البرنامج . وللمواطنين الحق أن يعرفوا هذه البرامج . اليوم ، أصبح الاقتصاد واسعاً ، وكذلك العالم . الإسلام يواكب التغيرات . المسلمون الحقيقيون يؤمنون بالتقدم . و المجتمع الذي يستحق الخير لا يقبل بأي شيء يعرض عليه .

بماذا فاتتنا الأمم الأخرى؟ فاتتنا بالعلم . و الدين الإسلامي . .

(و دوّت طلقات نارية . الرئيس بوضياف أغتيل) .

الملـحق الرابع

جبهة التحرير الوطني
بيـــان أول نوفمبر 1954

إلى الشعب الجزائري
إلى مناضلي القضية الوطنية

إليكم أنتم الذين يحق لكم أن تحكموا علينا ، أنت أيها الشعب بصفة عامة ، وأنتم أيها المناضلون بصفة خاصة . إن رجاءنا في نشر هذا البيان ، أن ننيركم حول الدوافع العميقة التي دفعتنا للتحرك ، و نحن نعرض عليكم برنامجنا ومغزى عملنا و غايته تبقى الاستقلال الوطني في الإطار الشمال الإفريقي . رجاؤنا أيضاً أن نجنبكم الوقوع في الخلط الذي قد تغذيه الإمبريالية و عملاؤها : من إداريين و ساسة عديمي الاستقامة .

نحن نعتبر قبل كل شيء ، أنه بعد عقود من الكفاح ، بلغت الحركة الوطنية مرحلة انجازها الأخيرة . وطالما أن غاية الحركة الثورية تتمثل في تهيئة كل الشروط الضرورية لتفجير الثورة التحريرية . و لقد تأكد لنا على الصعيد الداخلي أن الشعب مناصر لشعار الاستقلال و الثورة ، و على الصعيد الخارجي أن جو الهدوء السائد موات لحل المشاكل الصغيرة مثل مشكلتنا ، بفضل الدعم الديبلوماسي الذي سيساهم به أشقاؤنا العرب و المسلمين . إن أحداث المغرب الأقصى و تونس لها دلالتها في هذا السياق ، و لها أثرها العميق على مسار

الكفاح التحريري على صعيد الشمال الإفريقي . و جدير بالإشارة في هذا المجال ، أننا كنا دائماً و منذ زمن بعيد رواد الوحدة في العمل . و نتأسف لأنها لم تتحقق أبداً بين البلدان الثلاثة .

إن الجميع اليوم سائرون في هذا النهج ، و نحن تخلفنا فكان مآلنا مآل من تجاوزتهم الأحداث . لهذا راحت حركتنا الوطنية ، التي قهرتها سنو الجمود والروتين ولم توجه التوجيه السليم و محرومة من المساندة الضرورية للرأي العام الشعبي بعدما تجاوزتها الأحداث ، راحت تتفكك شيئاً فشيئاً ، ففرح بذلك الاستعمار الذي ظن بأنه حقق أعظم انتصار على الطليعة الجزائرية . إن الوضع خطير .

وأمام هذه الوضعية التي قد يتعذر تصليحها ، ارتأت مجموعة من المسؤولين و المناضلين الشباب ، و تلتف حولها أغلبية العناصر السليمة و العازمة ، بأن الساعة قد حانت لإخراج الحركة الوطنية من الطريق المسدود الذي جرتها إليه الصراعات الشخصية و الصراعات حول النفوذ ، و لدفعها في نهج الكفاح الثوري الحقيقي إلى جانب أشقائنا المغاربة و التونسيين .

و نحن حريصون على التأكيد في هذا الصدد بأننا مستقلون عن الجناحين اللذين يتصارعان من أجل السلطة . فنحن نضع المصلحة الوطنية فوق كل الاعتبارات الدنيئة و الخاطئة الخاصة بالأشخاص و بالنفوذ طبقاً للمبادئ الثورية ، فنضالنا موجه ضد الاستعمار وحده ، العدو الوحيد العنيد و الأعمى الذي رفض دائماً التنازل عن أدنى حرية بالطرق السلمية .

وهي في اعتقادنا أسباب كافية لتجعل من حركتنا التجديدية تأخذ تسمية : جبهة التحرير الوطني :

متنصلة عن أي مسعى تسوية مشبوه و مانحة لكل الوطنيين الجزائريين من كافة الشرائح الاجتماعية و من كل الأحزاب و الحركات الجزائرية الأصيلة ، فرصة خوض الكفاح التحريري من دون أي اعتبار آخر .

لمزيد من التوضيح ، نستعرض فيما يلي الخطوط العريضة لبرنامجنا السياسي .

الغاية : الاستقلال الوطني من خلال :

1 . إقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية و الاجتماعية ذات السيادة ضمن إطار المبادئ الإسلامية .

2 . احترام جميع الحريات الأساسية دون تمييز عرقي أو ديني .

الأهداف الداخلية :

1 . التطهير السياسي من خلال إعادة الحركة الوطنية الثورية على نهجها الحقيقي و من خلال القضاء على كل آثار الفساد وروح الإصلاح ، التي تعد مصدر انحطاطنا الراهن .

2 . تجنيد و تنظيم كافة الطاقات السليمة التي يتوفر عليها الشعب الجزائري من أجل تصفية النظام الاستعماري .

الأهداف الخارجية :

1 . تدويل القضية الجزائرية .

2 . تحقيق وحدة شمال إفريقيا في إطارها الطبيعي العربي والإسلامي .

3 .. في إطار ميثاق الأمم المتحدة ، التأكيد على تعاطفنا الفعال مع كافة الأمم التي تدعم كفاحنا التحريري .

وسائل الكفاح : طبقاً للمبادئ الثورية و بحكم الأوضاع الداخلية والخارجية ، مواصلة الكفاح بكل الطرق إلى غاية تحقيق غايتنا .

لبلوغ هذه الأهداف ، ستضطلع جبهة التحرير الوطني بمهمتين أساسيتين نؤديها في وقت واحد : عمل داخلي يخص العمل المباشر على الصعيد الداخلي ، و عمل خارجي كفيل بتصوير واقع القضية الجزائرية للعالم أجمع بدعم من كافة حلفائنا الطبيعيين .

وهذه مهمة جبارة تتطلب تعبئة كل الطاقات و الموارد الوطنية . و مهما طال الكفاح فعاقبتها أكيدة .

في الختام ، و رغبة منا في تفادي التأويلات الخاطئة و الحجج الواهية ، و لإثبات رغبتنا الحقيقية في السلم و الحد من الخسائر و سفك الدماء ، ارتأينا أن نعرض أرضية مطالب مشرّفة على السلطات الفرنسية سنعرف من خلالها إن كانت هذه الأخيرة تحدوها النية الحسنة و تقر أخيراً بحق الشعوب التي ترضخ تحت نيرها في تقرير مصيرها بيدها .

1 . فتح المفاوضات مع الناطقين باسم الشعب الجزائري على أساس الاعتراف بالسيادة الجزائرية الواحدة التي لا تقبل التجزؤ .

2 . خلق جو من الثقة بالإفراج عن جميع المعتقلين السياسيين و رفع كافة الإجراءات الاستثنائية و وقف كل المتابعات في حق القوى المناضلة .

3 . الاعتراف بالجنسية الجزائرية بإعلان رسمي يلغي المراسيم و القوانين التي تجعل من الجزائر «أرضاً فرنسية» و تنكر تاريخ الشعب الجزائري و جغرافيته و لغته و دينه و عاداته .

بالمقابل :

1 . سوف تحترم المصالح الفرنسية الثقافية و الاقتصادية المكتسبة بطريقة مشروعة ، و كذلك الأشخاص و العائلات .

2 . لكل الفرنسيين الراغبين في البقاء في الجزائر حرية الخيار بين جنسيتهم الأصلية ، فيعتبرون أجانب إزاء القوانين السارية المفعول ، و تبني الجنسية الجزائرية ، و في هذه الحالة سيعتبرون مواطنين جزائريين في الحقوق و الواجبات .

3 . العلاقات بين فرنسا و الجزائر سوف تحدد و تكون محل اتفاق بين الدولتين على أساس من المساواة و الاحترام المتبادل .

أيها الجزائري :

ندعوك للتأمل في مضمون الميثاق السالف الذكر . من واجبك أن تساهم فيه لإنقاذ وطننا و استرجاع حريته . إن جبهة التحرير الوطني هي جبهتك . ونصرها هو نصرك .

أما نحن ، فقد عقدنا العزم أن نواصل الكفاح و نحن واثقون من مواقفك المناهضة للإمبريالية و من وقوفك معنا ، و سوف لن نبخل بأغلى ما نملك فداء للوطن .

الأمانـة

فاتح نوفمبر 1954

الأمانة العامة

لجبهة التحرير الوطني

الملحق الخامس

جيش التحرير الوطني

نــــــداء

أيها الشعب الجزائري . .

على غرار الشعوب التي حطمت قيود العبودية والاضطهاد ، وباتفاق مع أشقائك التونسيين والمغاربة الذين تربطك بهم قرون من التاريخ والحضارة والمعاناة ، يجب ألا تنسى أبداً بأن مصيرنا جميعاً مشترك .

و لهذا ، لا شيء يمنعنا من أن نوحد و نكثف كفاحنا . إن خلاصنا واحد وانعتاقنا واحد . وإن محاولة تجزئة القضية المغاربية إنكار للحقيقة التاريخية التي نعاني من مآسيها جميعاً منذ 1830 .

إلى جانب ذلك ، فكّر قليلاً في العار الذي تجره وأنت تعيش مذلولاً مستعمراً فوق أرضك كخادم تستغله أبشع استغلال حفنة من المستغلين ، تمثل طبقة مهيمنة و أنانية لا تسعى سوى وراء ربحها تحت غطاء الحضارة و التقدم .

و في الحديث عن الحضارة ، نذكّرك ببعض التواريخ : تميزت سنة 1830 بالسلب والنهب ارتُكبت فيها جرائم باسم حق الأقوى ، في حين وقعت مجازر سنة 1870 وصودرت أملاك وأراضي آلاف الجزائريين ، في حين شهدت سنة 1945 وقوع مجزرة الأربعين ألف جزائري ، أما سنة 1948 فقد وقعت فيها مهزلة انتخابات على الطريقة النيجيلية ، وتلتها سنة 1950 بحدوث المؤامرة الشهيرة . وهكذا ترى أن العدالة والديمقراطية والمساواة مع الاستعمار ما هي

الأوهام و خدع يقصد بها مخادعتك وإغراقك يوماً بعد يوم في البؤس الذي تعرفه أكثر من غيرك .

وإذا أضيف إلى كل هذه المآسي إفلاس كل الأحزاب السياسية التي تدعي الدفاع عن حقوقك ، فعليك أن تقتنع بضرورة استعمال وسائل كفاح أخرى .

لهذا و وعياً منا بخطورة الوضع لدى أشقائنا في الشرق و الغرب الذين يموتون من أجل أن تحيا أوطانهم ، ندعوك لأن تنفض عنك استسلامك للقدر وترفع رأسك لكي تسترجع حريتك وتدفع دمك ثمناً لها .

في هذا المجال ، نحن نعرف ما أنت قادر عليه ؛ لكن في البداية نود أن نلفت انتباهك إلى الطريقة التي ينبغي إتباعها لخدمة قوى التحرير التي عاهدت نفسها بأن تضحي بكل شيء من أجلك .

1 - كن هادئاً ومنضبطاً . فلا تنسق وراء الفوضى التي لا تخدم سوى مصلحة العدو .

2 - من واجبك مساعدة إخوانك المحاربين بكل الوسائل .

3 - كن يقظاً . فالعدو يتربص بك و يراقب أدنى حركاتك لعرقلة عملك .

حذار من البيانات الكاذبة والأراجيف والرشاوى و الوعود التي ترمي إلى تحويلك عن النهج الذي أملاه علينا ديننا و واجبنا الوطني .

ختاماً :

.أي تقصير في اليقظة قد يكلف حياة أشخاص .

.أي إفشاء للسر تنجر عنه عواقب وخيمة .

إذن و دون تضييع دقيقة من الوقت ، نظّم عملك إلى جانب قوى التحرير التي من واجبك أن تقدم لها يد المساعدة والحماية في كل وقت وفي أي مكان .

و بخدمتها تخدم قضيتك .

عدم الاكتراث بالكفاح جريمة .

معارضة الثورة التحريرية خيانة .

إن الله مع مناضلي القضايا العادلة و ليس بمستطاع أي قوة أن توقفها ، عدا الموت استشهاداً أو التحرير الوطني .

يحيا جيش التحرير . .

تحيا الجزائر المستقلة . .

الملحق السادس

جبهة التحرير / جيش التحرير
مؤتمر الصومام

محضر اجتماع مسؤولي أقاليم وهران و الجزائر و قسنطينة ، المنعقد بتاريخ 20 أوت 1956 .

الأعضاء الحاضرون :

- بن مهيدي ، ممثل الإقليم الوهراني ، رئيس الجلسة
- عبان ، ممثل جبهة التحرير ، كاتب الجلسة
- أوعمران ، ممثل إقليم الجزائر العاصمة
- كريم ، ممثل القبائل
- زيغوت ، ممثل الشمال القسنطيني .
- بن طوبال ، نائب زيغوت .

الأعضاء الغائبون :

- بن بولعيد مصطفى ، ممثل الأوراس - النمامشة
- سي الشريف ، ممثل الجنوب (متغيب بعذر بعدما أرسل تقريره للاجتماع)

جدول الأعمال :

1 .دواعي و أهداف الإجتماع

2 .عرض حال :

أ .الناحية النظيمية : التقسيم ، الهيكلة ، مراكز القيادة .

ب .الناحية العسكرية :العدد ، الوحدات ، التشكيلة ، التسليح

ج .المالية :المداخيل ، النفقات ، الخزينة

د .الناحية السياسية : معنويات المحاربين و الشعب

3 . الأرضية السياسية و الدفاتر الثلاث .

4 . توحيد النمط :

أ .التنظيمي ، التقسيم ، الهياكل ، التحويلات ، مراكز القيادة

ب .العسكري ، الوحدات ، الرتب ، الشارات ، الأوسمة ، الأجرة و المنح العائلية

ج .السياسي ، المحافظون السياسيون و صلاحياتهم

د .الإدارة ، مجالس الشعب .

5 . جبهة التحرير الوطني : العقيدة ، القانون الأساسي ، الهيئات القيادية : المجلس الوطني للثورة الجزائرية ، لجنة التنسيق و التنفيذ و اللجان .

6 . جيش التحرير الوطني : المصطلحات (مجاهد ، مسبل ، فدائي) ، الوضعية الحالية ، التوسيع و التطوير الهجومي

7 .العلاقات بين جبهة التحرير و جيش التحرير : علاقات الداخل بالخارج ، تونس ، المغرب الأقصى ، فرنسا .

8 . العتاد

9 .رزنامة العمل : العسكري ، السياسي ، العتاد ، وقف إطلاق النار ، المفاوضات ، هيئة الأمم المتحدة ، الحكومة المؤقتة .

10 . مواضيع متنوعة : القبائل ، الأوراس ، إلخ .

افتتحت الجلسة على الساعة الثامنة .

1 . دواعي و أهداف الإجتماع

عرض قدمه بن مهيدي و عبان

2 . عرض حال

أ. الناحية الثانية

تقرير أنجزه و تلاه زيغوت يوسف .

ملاحظات : نقص في عدد القوات المسلحة ، مناضلو جبهة التحرير واحصاء الأسلحة الحربية (أنظر ملخص عن التقرير في الأخير)

ب.. الناحية الثالثة

تقرير شفوي قدمه كريم . الناحية تضم القبائل العليا و السفلى و الصغرى . منقسمة إلى ثلاث نواحي ، و هي بدورها منقسمة إلى 10 مناطق مقسمة إلى 30 .

العدد في انطلاقة أول نوفمبر 1954 : 450 مجاهد ، و في الخزينة مليون فرنك .

العدد الحالي : مناضلو الجبهة : 044 87 المسبلين : 4707 ،

المجاهدين : 1003

الوحدات : المجموعة ، تحت قيادة عريف ، متكونة من 10 إلى 20 رجلاً .

ثلاث مجموعات تشكل فصيلة تحت قيادة مساعد .

حدود الناحية : جيجل ، سطيف ، برج بوعريريج ، المسيلة ، أومال ، عين بسام ، بالسترو (الأخضرية) ، مينرفيل (الثنية) وسواحل البحر الأبيض المتوسط .

التسليح 404 بندقية حرب ،106 رشاشة ، 8بنادق رشاشة ، 4 أف أم بارت 4 ، FM BART أف أم/ 29 24 ، 4425 بندقية صيد .

المالية : في الخزينة 445 مليون فرنك .

ملاحظات : حالياً ، المداخيل الشهرية المتوسطة بلغت 49 مليون فرنك . النفقات الشهرية المتوسطة : 55 مليون فرنك . ما بقي تسديده : 55 مليون فرنك .

معنويات الشعب و المحاربين : معنويات مرتفعة ، لكن الجميع يطالبوننا بالسلاح باستمرار . الشعب متضامن و مستعد للمشاركة في انتفاضة شاملة إذاماقامت .

قضية «الحركة» أورابح و انضمام سكان دوار إريش و دراع الميزان . قضية «الحركة» أورابح ، هي الآن في طريقها إلى الحل . أما قضية دوار إريش ، و هو دوار مصالي تم تمشيطه من طرف قواتنا . جزء من الدوار طلب فعلاً حماية فرنسا . حالة دوار مزليوة بذراع الميزان ، الذي كان دائماً مناوئاً للوطنية ، لم ترتكب فيه قواتنا أي عمل اعتداء ، بما أن الدوار لم يتم اقتحامه أصلاً .

ج ـ الناحية الرابعة

تقرير أعده و تلاه أوعمران .

العدد في انطلاقة أول نوفمبر 1954 :50 مجاهد .

العدد الحالي : مناضلي الجبهة : 40 ألف ، المسبلين : ألفين ، المجاهدين : ألف .

وحدات المناطق التالية : برواقية ، المدية ، شامبلان ، بوغار ، ثنية الحد ، مليانة ، تنس ، أورليون فيل ، شرشال غير محسوبة في الأرقام الواردة أعلاه .

التسليح : 5 أف أم واحدة منها من نوع أف أم بارت ،200 بندقية حرب ، 80 رشاشة ،300 مسدس ، 1500 بندقية صيد .

المالية : 200 مليون فرنك في الخزينة .

د ـ الناحية الخامسة

محضر قدمه بن مهيدي .

حدود الناحية : مقاطعة وهران ، مستغانم ، الجنوب ، معسكر ، كولومب بشار .

العدد في أول نوفمبر 1954 مجاهد (50 منهم ألقي القبض عليهم أو قتلوا) .

في الخزينة في أول نوفمبر 1954 80 ألف فرنك .

العدد في الإندلاع الثاني ، أول أكتوبر1955 : 500 مجاهد ، 500 مسبل .

العدد إلى تاريخ أول ماي1956 : 1500 مجاهد ، ألف مسبل .

التسليح إلى تاريخ أول ماي 1956 : 50 أف أم ، 165 رشاشة ، 1400 بندقية حرب ، 100 مسدس ، 1000 بندقية صيد .

المالية إلى تاريخ أول ماي 1956 : مليون فرنك ، 25 مليون في الخارج (الريف) معنويات السكان و المحاربين : مرتفعة ، علاقات جبهة التحرير/ جيش التحرير مع الشعب ممتازة ، و سيطلب تقرير أوفى و أدق من وهران .

هـ ـ الناحية السادسة

تقرير شفوي قدمه أوعمران عوض سي الشريف : الناحية السادسة انشئت حديثاً .

تضم الأقاليم التابعة للبلديات أومال ، سيدي عيسى ، عين بوسيف ، شلالة . هذه المناطق تصلهاقواتنا . بلديات الجلفة و الأغواط و المزاب و أقصى جنوب العاصمة لم تدخلها بعد قواتنا .

العدد الحالي : مناضلي الجبهة : 5آلاف مناضل ،المسبلين :11 ،المجاهدين : 200 .

التسليح : 100 بندقية حرب ، 1 أف أم ، 10 رشاشات ، 50 مسدس ، 100 بندقية صيد .

المالية : 10 ملايين فرنك دفعت للناحية الرابعة .

. الأرصدة السياسية و الدفاتر الثلاثة

تمت قراءة ، تحليل و مناقشة هذه الوثائق .

. توحيد النمط : التنظيمي من ناحية التقسيم

. **الناحية الأولى** : الأوراس ، النمامشة

الحدود : من الشمال : مونتسكيو ، سدراتة ، القراح ، سطيف ، من الجنوب : الصحراء و الإقليم القسنطيني ، من الغرب : برج بوعريريج ، المسيلة ، بوسعادة ، الوادي ، الخلفة ، من الشرق : الحدود التونسية .

. **الناحية الثانية** : الشمال القسنطيني

الحدود : من الشمال : من القالة إلى سوق الإثنين ، من الجنوب ، سطيف طريق العاصمة ، قسنطينة إلى حدود القراح ممتدة إلى غاية الحدود التونسية مرورا بسيفوس ، مونكالم ، سدراتة ، مونتسكيو ، من الغرب : سطيف ، خراطة ، سوق الإثنين ، من الشرق : الحدود التونسية .

. **الناحية الثالثة** : القبائل

الحدود : من الشمال : سوق الإثنين ، كوربي مارين ، من الجنوب : خط السكك الحديدية الجزائر . قسنطينة إلى حدود سطيف ممتدة نحو برج بوعريريج ، المسيلة و عين خجل ، أومال ، عين بسام ، بالسترون من الغرب : كوربي ، ميرفيل ، من الشرق : سطيف ، خراطة ، سوق الإثنين .

. **الناحية الرابعة** : العاصمة

الحدود : من الشمال : كوربي مارين ، تنس ، من الجنوب : البويرة ، عين بسام ، بير غبالو ، البرواقية ، بوغار ، تيارت . من الغرب : حدود مقاطعة

وهران ، من الشرق : كوربي مارين ، ميرفيل ، بالسترو ، تيارت ، البويرة عين بسام .

ملاحظة : الجزائر العاصمة و البلديات المجاورة لها : حسين داي و القبة و الأبيار و بوزريعة و سانت أوجان لا تتبع الناحية الرابعة و تمثل تنظيما مستقلا* .

. **الناحية الخامسة** : الإقليم الوهراني

الحدود : مقاطعة وهران .

. **الناحية السادسة** : جنوب العاصمة

الحدود : من الشمال : بيردو ، بوغار ، البرواقية ، بير غبالو ، عين بسام ، من الجهات الأخرى : صحراء إقليم الجزائر العاصمة

ملاحظة : مدينة سطيف تتبع الناحية الثالثة (القبائل) ، إلا أن النظام في مدينة سطيف ملزم ببذل كل المجهودات لخدمة الناحيتين الأولى و الثانية .

ابتداء من اليوم ، مصطلح الناحية « Zone » يعوض مصطلح الولاية ، Région تدعى «المنطقة» ، Secteur «القسم» تدعى ناحية .

مراكز القيادة : عملا بمبدأ القيادة الجماعية ، فإن جميع هيئات المداولة ملزمة باحترام هذا المبدأ . يتشكل مركز القيادة من القائد (سياسي أو عسكري) ، ممثلا مركزيا لسلطة جبهة التحرير . يحاط بنواب و مساعدين ضباط و عددهم ثلاثة ، و يتكفلون بالفروع العسكرية و السياسية و الاستعلامات و الاتصالات . توجد مراكز القيادة للولاية و المنطقة و القسم و الناحية .

التحويلات : التحويل تصدره الهيئة العليا المباشرة التي ينتمي إليها العنصر المعني . إن مبدأ التحويل على كل المستويات مقبول .

الجانب العسكري : الوحدات : الفوج متكون من 11 رجل من بينهم عريف و 2 برتبة جندي أول ، نصف الفوج يضم 5 رجال من بينهم جندي أول واحد ، الفرقة متكونة من 35 رجل (3 أفواج + قائد الفرقة و نائبه) ، الكتيبة تضم 110 رجل (3 فرق + 5 إطارات) .

الرتب : تم تبني الرتب المعمول بها في بلاد القبائل ، و هي :

- جندي أول (sergent) : شارة حمراء توضع على الساعد الأيمن .
- عريف : (sergent-chef) شاراتين حمراوان .
- مساعد : (adjudant) :شارة حمراء مسطرة بخط أبيض .
- ملازم : (aspirant) : نجمة بيضاء .
- ملازم ثاني : (FT sous-lieutenant) نجمة حمراء
- ضابط أول : (capitaine) : نجمتان حمراوان
- صاغ أول :(commandant) : نجمتان حمروان و واحدة بيضاء
- صاغ ثاني : (colonel) : ثلاث نجمات حمراء .
- قائد الولاية : صاغ ثاني و نوابه الثلاث برتبة صاغ أول .
- قائد المنطقة : ملازم ثاني ، نوابه الثلاثة ملازم .
- قائد الناحية : ضابط أول ، نوابه الثلاثة ملازم أول .
- قائد القسم : مساعد ، نوابه الثلاثة عريف أول .

ملاحظة : المحافظون السياسيون يتقلدون نفس رتبة ضباط الهيئة التي ينتمون إليها . نجمة و هلال حمراوين تحمل على القبعة (تصنعها كل ولاية) . أما النياشين فتصنعها الولاية الثالثة .

الأوسمة : إن لجنة التنسيق و التنفيذ مكلفة بدراسة هذه المسألة . كل هذه الرتب تكون مؤقتة . عند استقلال البلاد ، تكلف لجنة عسكرية بدراسة كل حالة و إعادة ترتيب هذه الرتب في الجيش الوطني . رتبة الجنرال لن يتم العمل بها إلا بعد استقلال البلاد . إن قرارات تعيين و إنزال الرتب للضباط تصدرها لجنة التنسيق و التنفيذ باقتراح من قائد الولاية . ضباط الصف يعينون و تنزل رتبهم من طرف قائد الولاية . ذوي رتبة جندي أول يعينون أو تنزل رتبهم من طرف قائد الناحية .

الأجور و المنح العائلية : كل مجاهد يدفع له راتب شهري وفق المعيار التالي :

- الجندي :1000 فرنك
- الجندي أول :1200 فرنك
- العريف :1500 فرنك
- العريف أول :1800 فرنك
- المساعد :2000 فرنك
- الملازم :2500 فرنك
- الملازم الثاني :3000 فرنك
- الملازم الأول : 3500 فرنك
- الضابط الأول :4000 فرنك
- الصاغ الأول :4500 فرنك
- الصاغ الثاني :5000 فرنك .

المرضون و الممرضات يعدون في مركز العريف و تدفع لهم 2500 فرنك في الشهر . الأطباء العسكريون يعدون في مركز الملازم براتب شهري حدد ب 2500 فرنك . الأطباء يعدون في مركز الملازم أول براتب 3000 فرنك في الشهر .

لا تكون إلا أدوات التواليت على عاتق المجاهدين ، أما كل الباقي فعلى نفقة الجيش .

المنح العائلية : كل المجاهدين الذين يعيلون أسراً ، يستفيدون من علاوات شهرية . إنما الجميع مدعوون باسم الوطنية للحفاظ على ممتلكات الثورة . و ستعطى توجيهات في هذا المسعى لقادة الأفواج و المحافظين السياسيين . المسبلون يستفيدون من إعانات من نفس مستوى المجاهدين عندما يؤدون مهمة دائمة من ثلاثين يوماً في الشهر ، و تمنح لهم نصف العلاوة عندما يعملون لمدة 15 يوماً في الشهر ، و ربع العلاوة عندما لا يعملون إلا أسبوعاً في الشهر . الأسرى و عائلات الموتى تمنح يستفيدون من علاوة على الأساس التالي :

.للريف : 2000 فرنك أجر قاعدي زائد 200 فرنك لكل شخص .

.للمدن : 5000 فرنك أجر قاعدي زائد 2000 فرنك لكل شخص .

الجانب السياسي : المحافظون السياسيون و صلاحياتهم : المهام الأساسية المخولة للمحافظين السياسيين تحدد كما يلي : تنظيم و تربية الشعب ، الدعاية و الإعلام ، الحرب النفسية (العلاقات مع الشعب و الأقلية الأوروبية و أسرى الحرب) . يدلي المحافظون السياسيون بآراءهم في برامج العمل العسكري لجيش التحرير و في التمويل و التموين .

الإدارة : مجالس الشعب (راجع الدراسة رقم2) .

المجالس تكون منتخبة . و تتكون من 5 أعضاء ، منهم رئيس و تتكفل بالحالة المدنية و الشؤون القضائية و الشرعية و الشؤون المالية و الإقتصادية و الشرطة .

. جبهة التحرير الوطني

العقيدة ، القانون الداخلي ، الهيئات القيادية : المجلس الوطني للثورة ، لجنة التنسيق و التنفيذ ، اللجان .

العقيدة (أنظر الوثائق)

القانون الداخلي : لجنة التنسيق و التنفيذ مكلفة بإعداده .

الهيئات القيادية : المجلس الوطني للثورة ، و يضم 34 عضواً(17 أصلي و 17 بديل)

.الأصليون :

1 . بن بولعيد مصطفى

2 . زيغوت يوسف

3 . كريم بلقاسم

4 . أوعمران اعمر

5 . بن مهيدي محمد العربي

6 . بيطاط رابح

7 . عبان رمضان

8 . بن يوسف بن خدة

9 . عيسات إيدير

10 . بوضياف محمد

11 . آيت أحمد حسين .

12 . خيضر محمد .

13 . بن بلة أحمد .

14 . لمين محمد دباغين

15 . عباس فرحات

16 . توفيق المدني

17 . يزيد امحمد

.الإضافيين :

1 . نائب بن بولعيد

2 . . بن طوبال لخضر

3 . محمدي سعيد

4 . دهيلس سليمان

5 . . بوصوف عبد الحفيظ

6 . ملاح علي

7 . بن يحي محمد الصديق

8 . بجاوي محمد .

9 . مالك تمام .

10 . دحلب سعيد

11 . الإتحاد العام للعمال الجزائريين (إ .ع .ع .ج)

12 . لزانشي صالح .

13 . الثعالبي الطيب .

14 . مهري عبد الحميد

15 . فرتسيس أحمد .

16 . سي ابراهيم مزهود

ملاحظة : استدعاء المجلس الوطني للثورة من صلاحيات لجنة التنسيق و التنفيذ التي تقرر ذلك كلما رأى ذلك ضرورياً ، أو بطلب من النصف زائد واحد من أعضاءه ، مداولات المجلس الوطني لا تكون شرعية إلا 12 عضواً (أصلياً أو بديلاً) يجتمع المجلس الوطني يجتمع في الحالة العادية مرة كل عام مدة وجود الحرب .

لجنة التنسيق و التنفيذ :

متكون من بن مهيدي و عبان و بن خدة و كريم ودحلب . و بما أن هذا الأخير لايزال موجوداً في السجن ، فيعوض بصفة نهائية بمالك تمام .

ملاحظة : أي عضو في لجنة التنسيق و التنفيذ أو أي مندوب انتدب من قبل هذه الهيئة مخول له بمراقبة كل نشاطات هيئاتنا داخل الوطن و خارجه . و من صلاحيات أعضاء لجنة التنسيق و التنفيذ مراقبة الهيئات السياسية و العسكرية و الاقتصادية و الاجتماعية . . مرة في كل ثلاثة أشهر .

اللجان : لجنة التنسيق و التنفيذ مكلفة بمراقبة و تشكيل لجان شتى يكون مقرها الجزائر العاصمة .

6 . جيش التحرير الوطني : المصطلحات (مجاهد ، مسبل ، فدائي) الانتشار والتوسع والإكثار من الهجومات .

في المستقبل ، لا تستعمل إلا المصطلحات التالية :

- مجاهد : هو جندي جيش التحرير
- مسبل : هو المناصر
- الفدائي : هو عضو الفرقة المكلفة بشن غارات على المراكز

إن التلاحم فيما بين المجموعات التابعة لكافة نواحينا أمر بات نظرياً محسوماً فيه . ينبغي العودة إلى مبادرة العمليات و تطويرها على جميع الأصعدة .

7 . العلاقات بين جبهة التحرير و جيش التحرير

(العلاقة بين الداخل و الخارج ، الوضع في المغرب و تونس و فرنسا)

العلاقات بين جبهة التحرير و جيش التحرير : أولوية السياسي على العسكري .

على مستوى مراكز القيادة ، من واجب القائد السياسي العسكري السهر على الحفاظ على التوازن بين كافة الفروع الثورية

العلاقة بين الداخل و الخارج : أولوية الداخل على الخارج مع تكريس مبدأ القيادة الجماعية .

الوضع في تونس : الوضع الراهن . أرسلنا بعثة متكونة من أربع أعضاء على أن يلتحق بهم بن عودة الذي سيكلف على وجه الخصوص بالإمداد بالعتاد من تونس إلى الجزائر .

الوضع في المغرب الأقصى : تم عرض حال ، البعثة يقودها الثعالبي الطيب تحت إشراف بوضياف .

الوضع في فرنسا : تمت تلاوة تقرير الفدرالية و تمت المصادقة على الغايات الرئيسية . رسالة موقعة من طرف كل المسؤولين أرسلت إلى اللجنة الفدرالية .

. العتاد :

لن يتم أي تحويل للأسلحة فيما بين الولايات بحكم أن العتاد الذي نملكه هو عتاد مسترجع . في المستقبل ، لجنة التنسيق و التنفيذ هي المخولة الوحيدة للقيام بتوزيع عادل ، آخذة بعين الإعتبار وضعية كل ولاية .

. رزنامة العمل

استرجاع مبادرة العمليات العسكرية مهما كلف ذلك من ثمن ، شن عمليات عسكرية و هجومات ابتداء من تاريخ . . . ، أول نوفمبر سيعتبر ذكرى ، قرار شن الإضراب العام و مقاطعة المدارس الفرنسية يبقى قائماً ، مقاطعة انتخابات لاكوست ، يعلن عن استعمال القوة المسلحة في أي وقت يرى المسؤولون ذلك ضرورياً .

وقف إطلاق النار و المفاوضات : المجلس الوطني وحده مخول بإعلان وقف إطلاق النار الذي يحدد إطاره في أرضية الأمم المتحدة . من الآن فصاعداً ، الداخل ملزم بتوفير كل المعلومات التي في حوزتنا لتسهيل المهمة لممثلينا في هيئة الأمم المتحدة . الحكومة المؤقتة : ستدرس هذه القضية ، و تمت المصادقة على الوضعية التالية : إرسال زيغوت و سي ابراهيم بصلاحيات موسعة لحل مشكلة سوق أهراس - النمامشة .

إرسال أوعمران و سي شريف و عميروش بصلاحيات لحل مشكلة الجنوب والأوراس . لجنة التنسيق و التنفيذ هي وحدها المخولة للفصل في آخر الأمر .

المحاكم : لا يحق لأي ضابط مهما كانت رتبته أن ينطق بحكم بالإعدام . فالمحاكم على مستوى النواحي تكلف بمحاكمة المدنيين و العسكريين . من الآن فصاعداً الذبح ممنوع منعاً باتاً ، المحكوم عليهم بالإعدام يعدمون رمياً بالرصاص .

للمتهم حق في اختيار دفاع له . التشويه الجسدي ممنوع منعا باتاً مهما كانت الأسباب المتذرع بها .

أسرى الحرب : يمنع منعاً باتاً إعدام أسرى الحرب . مستقبلاً ، ستنشأ مصلحة خاصة بأسرى الحرب على مستوى كل ولاية ، مهمتها الترويج لعدالة كفاحنا .

دفتر شخصي : في المستقبل ، كل مجاهد سيزود بدفتر شخصي .

ترقيم : كل ولاية تقترح نموذجاً للجنة التنسيق و التنفيذ .

التسريحات : يعاد العمل بنظام التسريحات .

مصلحة الصحة : كل منخرط جديد يجرى عليه فحص طبي إن أمكن ذلك .

الناحية الثانية :

العدد في أول نوفمبر 1954 : 100 مجاهد

العدد الحالي : 1669 مجاهد ، 5000 مسبل

التسليح : 13 أف أم ، 325 بندقية حرب ، بما في ذلك الرشاشات ، 3750 بندقية صيد .

المالية : 203 مليون و خمسمائة ألف فرنك معنويات السكان و المحاربين : جيدة .

ملاحظة : كامل الإقليم الحدودي التونسي موضوع تحت مراقبة الأوراس ، في حين كان المعمول به في العادة أن منطقة سوق أهراس ملحقة بالشمال القسنطيني .

انتهــى

تعاليق على الصور

1 . السيد عيسى كشيدة يتسلم شهادة في تعليم الخياطة ويظهر في الصورة على يسار سيدة .

2 .. مكتب لجنة مدرسة الصباح ـ القصبة

3 .. أعضاء الكشافة الإسلامية الجزائرية يستقبلون من طرف جمال عبد الناصر . في الصف الأول ، من اليمين إلى اليسار : آيت أحمد ، حمدان عبد الوهاب ، عبد الناصر ، عمر لاغا .

4 . المؤلف (الثاني من اليمين) رفقة مسبلين ومجاهدين في قصر زنينة .

5 . بن مهيدي

6 . الهادي باجراح

7 .. عيسى كشيدة

8 . الشبيبة تبكي بوضياف

9 . عودة بوضياف

10 . محمد بوضياف : : سي الطيب الوطني في فيللا عزيزة

11 . في الجبل بمنطقة القديد ، من اليسار إلى اليمين : شريف من الأوراس ، مسؤول اللجنة الشعبية ، دهينة محمد ، عضو اللجنة الشعبية .

الجالسون : أحمد من الأغواط و عيسى كشيدة .

12 . المؤتمر الثاني للكشافة الإسلامية الجزائري ، من 10 إلى 12 سبتمبر 1965 بالرباط .

من اليمين إلى اليسار :الواقفون :بوشكيوة يونس ،رشيد طوبيشي ،صادق الفول ،شنوف لحسن ،شاوي حمودي .القرفصاء :اعمر رشيد ،دحمان رشيد ،خميسة عمار .

13 .من اليمين إلى اليسار :بوقشورة مراد ،الهجيم قدور ،عيسى كشيدة ، رابح بيطاط ،عبد الرحمان ديدوش ،علي مجقان ،قاسي عبد الله عبد الرحمان ،قاسي عبد الله مختار .

14 . زرداني عبد العزيز ،عينوز مولود في الوسط (كاتب كريم بلقاسم) و بوضياف حميد .

15 .غراس عبد الرحمان ،بوقشورة مراد و عيسى كشيدة .

16 .مقر الشعلة :«في هذا المكان المرموق ،عاش العديد من مناضلي و مسؤولي ثورة نوفمبر 1954 الذين كانوا محل بحث من قبل الشرطة الفرنسية .هذا المحل البسيط للخياطة أهداه السيد عيسى كشيدة مناضل الحركة الوطنية لقيادة الثورة ممثلة في الراحل محمد بوضياف الذي استعمله كمقر قيادة و قد استخدم هذا المحل كمركز للقيادة الوطنية للثورة حيث عقدت اجتماعات للقيادة المفجرة لثورة نوفمبر 1954 المجيدة ،بعد آخر اجتماع لها في 23 أكتوبر 1954 في رايس حميدو .

17 .نايت مرزوق عبد الرحمان ،عضو خلية اللوجستيك .

18 .أحمد علام ،مسؤول في الفداء

19 .عبد الله كشيدة

20 .عبد الواحد مسعودي ،عضو في خلية اللوجستيك .

الفهرس

أنجز طبعه بمطبعة الشهاب
عمار قرفي
المنطقة الصناعية ص ب: 61 - باتنة
الهاتف: 30 .59 .86 033 الفاكس: 23 .02 .86 033